

غزوة تبوك

في ضوء القرآن الكريم

تقرير الأبحاث
العلامة الشيخ محمد رضا الجعفري قدس سره
١٣٥٠-١٤٣١هـ



محاضرات في التاريخ الإسلامي



غزوة تبوك

في ضوء القرآن الكريم

تقريراً لأبحاث

العلّامة آية الله الشيخ محمد رضا الجعفري

١٣٥٠ ـ ١٤٣١هـ

تعريب

الأستاذ كاظم الخاقاني

سرشناسه: جعفری، محمدرضا، ۱۳۱۰ - ۱۳۸۹

عنوان و نام پدیدآور: غزوة تبوك في ضوء القرآن الكريم/ تقريراً لابحاث: العلامة الشيخ محمدرضا الجعفري ۱۳۵۰ - ۱٤۳۱ هـ؛ تعريب: الاستاذ كاظم الخاقاني

مشخصات نشر: تهران، نشر تک، ۱۳۹٦

مشخصات ظاهری: ۲٦٤ ص

فروست: محاضرات فی التاریخ الاسلامی.

شابک: ۳-٤۳-٦۷۳۷-۹٦٤-۹۷۸

وضعیت فهرست نویسی: فیپا

یادداشت: عربی

یادداشت: کتابنامه: ص. [۲۵۱] - ۲۵۸؛ همچنین به صورت زیرنویس

موضوع: محمد ﷺ، پیامبر اسلام، ۵۳ قبل از هجرت - ۱۱ق.

موضوع: غزوه تبوک، ۹ ق.

موضوع: غزوات.

شناسه افزوده: خاقانی، کاظم، مترجم

رده بندی کنگره: ۱۳۹۵ ۷ج۲ت/ ٤۵ / ۲٤ BP

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۹۳۷

شماره کتابشناسی ملی: ۴۴۳۵۴۶۲

*****

غزوة تبوك، العلامة الشيخ محمدرضا الجعفري ﷺ

الناشر: تك — الطبعة: الاولىٰ — تاريخ النشر: ١٤٣٩هـ

الشابك: ۳-٤۳-٦۷۳۷-۹٦٤-۹۷۸ — الكمية: ١٠٠٠ نسخة

مركز التوزيع: مركز الثقافة الجعفرية للبحوث والدراسات

www.bjafari.ir

*****

مركز الثقافة الجعفرية للبحوث والدراسات

قم المقدسة، الهاتف: ٠٢٥-٣٢٩١٧٦١١ الفاكس: ٠٢٥-٣٢٩١٧٦١٠

البريد الالكتروني: info@bjafari.com



الحمد لله ربّ العالمين وصلى الله على سيد رسله وخاتم أنبيائه وأفضل خلقه محمد وآله الطيّبين الطاهرين الأئمة الهداة المعصومين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين لاسيّما أولهم مولانا أميرالمومنين وسيد الوصيّين وقائد الغر المحجّلين وخاتمهم مولانا الإمام الثاني عشر المهدي المنتظر عجّل الله تعالى فرجه وجعلنا من أنصاره وأعوانه في غيبته وظهوره والعن اللهم أعدائهم أجمعين من الأولين والآخرين ولاحول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم **﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلِإخْوانِنَا الَّذينَ سَبَقُونا بِالْإيمانِ وَلا تَجْعَلْ في قُلُوبِنا غِلاًّ لِلَّذينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحيمٌ﴾**[١].

اللهمّ كن لوليّك الحجّة بن الحسن المهديّ صلواتك عليه وعلى آبائه الطاهرين في هذه الساعة وفي كلّ ساعة ولياً وحافظاً وقائداً وناصراً ودليلاً وعَيْناً حتّى تسكنه أرضك طوعاً وتمتّعه فيها طويلاً وهب لنا رأفته ورحمته ودعاءه وخيره ما نَنال به سعة من رحمتك وفوزاً عندك.

---

١. الحشر (٥٩): ١٠.

كلمة المركز

مع اتساع الآفاق الفكرية وتشعبها في زمن الثورة المعلوماتية الهائلة التي ألقت ظلالها على الفكر الإنساني، كان لابد لكل صاحب تراث من أن يتحرك للحفاظ على تراثه من العبث العلمي الذي ربما يعصف بموروثه الفكري والإنساني، واللازم على كل ذي تراث أن يسعى للمحافظة على ما وصل إليه من السابقين كي ينقله إلى الجيل الذي يليه، محاولاً بذلك أن يبقي تراثه نقياً من فكرة فاسدة أو رأي سقيم مستولد عن فكر غير سوي يُخاف منه على تراثه، نتيجه الفاصل الزماني الطويل في مراحل النقل.

والتراث الشيعي أحد هذه الموروثات ليس خارجاً عن هذه المعادلة، بل الاهتمام بالفكر الشيعي من حيث سلم الأولوية يقع بالصدارة، خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الموروث الشيعي كان منذ القِدم مستهدفاً من أعدائه أيما استهداف لما يُشكل من قوة فكرية ومنطقية وعقلية يهابها المزيفون للتاريخ.

هؤلاء الذين لم يدخروا وسعاً في استهداف كل ما هو أصيل فحاولوا تشويه بُنى المذهب ومحاربته وطمس معالمه ظناً منهم أنهم قادرون على إخفاء الحقائق الجلية، ومن هذا المنطلق تشكلت سياسة المعاداة في ضمن لغة التخريب والكذب المدروس و(فبركة) لقلب الحقائق لإعطائها طابعاً واقعياً كي تنطلي الحيلة على البسطاء من الناس، فاستأجروا الأقلام الرخيصة والأنفس الضالة لهذه المهمة القذرة حتى نسبوا إلى الطائفة الشيعية أموراً مقيتة.

والقارئ لتاريخنا الإسلامي يجد في كثير من المواضع أنه قد أبتلي بالأهواء النفسية

والنزعات الشخصيّة إلى الحد الذي ابتعد فيه عن جادة الموضوعية، وهذا مثّل خطراً على الأُمة ونقلها إلى منطقة الصراعات والتناحرات، حتى صار المتتبّع للتاريخ يسير بخطى سريعة إلى مجهول مظلم لا تعرف عواقبه وصار العثور على الحقيقة ضرباً من الاستحالة.

إنّها جريمة الاعتداء على الأمانة التاريخية، فمسخوا صورتها، وشوّهوا حقيقتها، ورفعوا الذين من شأنهم أن يكونوا في أسفل سافلين، فلمعوا صورهم، ونسبوا إليهم كلّ عظيم، ووجّهوا أخطاءهم التي غصّت بها بطون الكتب لتصل إلى اللاحقين ناصعة بيضاء مشرّفة، وهذا ما فعلوه مع الشخصيّات الرسالية التي كانت تدأب جاهدةً في إثراء التاريخ بكلّ ما من شأنه أن يجعل التاريخ تاريخاً مشرّفاً يفتخر المرء بأنّه أحد المنتسبين إليه، فشوهوا صورهم الناصعة لتصل إلى اللاحقين صوراً مشوهة مزيفة.

إنّ هذه الأيادي التي استأجرت لتقلب الحقائق بقلمها المرتزق إنّما فعلت ذلك بعدما باعت آخرتها بدنيا غيرها، وبعدما باعت طاقاتها بحفنة من الدراهم المعدودة، وبعد ما قبرت ضمائرها لتخلق من أقلامها وحوشاً تنهش الأمانة التي يجب أن تكون موجودة عند كلّ صاحب قلم وعند كلّ ذي مادة علمية، فرفعت الداني، وأنزلت العالي، ونسبت وقالت ووضعت، حتّى أصبح تاريخ المسلمين في كثير من المواضع موضع ريب وتوقّف.

ناهيك عن التقية التي كان يعيش معها الشيعة خوفاً من التنكيل وهرباً من ألوان العذاب الذي كان ينتظرهم لا لأجل جريمة اقترفوها هنا أو جريرة عمدوا إليها هناك، بل كان لأجل موالاتهم لعلي بن أبي طالب‰، فاعتبروا مولاة علي جريمة تستحق القتل وهم بذلك يريدون أن يقتلوا فكر عليٍ في كل نفس شيعية.

فلم يقف أعداء المذهب عند هذا الحد، بل استخدموا الكذب طريقاً للوصول إلى

تحقيق مآربهم حتى في عصرنا الحاضر، والشيعة مع كل هذا لم يألو جهداً للرد على هذه الفئة بالطرق العلمية ليخرسوا ألسنتهم ويلزموهم بالحجة بعد ما كان دأب القوم الفرار من المنازلات العلمية والاكتفاء بإلقاء التهم من بعيد، ومن هنا نرى تصدي علماء الطائفة ـ رحم الله الماضين منهم ووفق الباقين ـ لمثل هذه الأصوات الناشزة وردّ كيد الأعداء إلى نحورهم، ولكن تبقى خفافيش الظلام ساعيةً إلى حجب ضياء الحق عن عيون الناس، فهؤلاء الذين يقتاتون الكذب سرعان ما تراهم في زاوية مظلمة من زوايا التاريخ لا يذكرهم الذاكر إلا وذكر الكذب والزيف معهم، ويبقى الفكر الشيعي متألقاً على مدى العصور والدهور، قال تعالى ﴿**يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ الله بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى الله إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾.

ومن هذا المنطلق وعلى هذا الأساس ومن واقع المسؤولية الملقاة على عاتقنا اتجاه تراثنا الشيعي وبتوفيق من الله تبارك وتعالى ومن إمامنا الحجة المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف قمنا بالتالي:

١ـ قد تم بحمد الله وتوفيقه وبمساندة بعض المؤمنين المهتمين بنشر معارف أهل البيت عليهم السلام تأسيس صرح علمي يهتم بنشر معارف الفكر الجعفري والذب عن حياض المذهب أمام الهجمة الشرسة التي تواجهها الطائفة اليوم والمتمثلة بالشبهات والافتراءات خصوصاً في مجالي العقائد والتاريخ، تحت اسم «مركز الثقافة الجعفرية للبحوث والدراسات» والذي بدأ نشاطه عام ١٤٢٢هـ ولم تكن فكرة إنشاء هذا المركز إلا إيماناً منّا بالدور الفاعل الذي تلعبه المؤسسات العلمية في وقتنا الحاضر، إذ أخذنا على عاتقنا أن نضيف لبنة إلى تلك المسيرة العلمية الظافرة وأن نشارك في بناء عقيدة الفرد الشيعي وحمايته من جميع الشبهات، لما نراه من تكليف شرعي ملقى على عاتقنا وتلبية لنداء الضمير الديني، فإننا لم ندّخر وسعاً في إنجاز هذا المشروع بأكمل وجه سائلين المولى تبارك وتعالى أن يتقبل أعمالنا بأحسن القبول.

٢ـ تمّ الاستعانة بالعالم الجليل العلامة الشيخ «محمد رضا الجعفريﷺ» للمساهمة في إثراء مجال البحوث والدراسات والنهوض بالمركز من الجهة العلمية والإشراف على الحركة العقائدية المتواصلة، وذلك لما كان يحمله الشيخ من علمٍ وافر وآراء دقيقة سديدة، خصوصاً وأنه قد صرف عمره الشريف في التحقيق وتقديم الدراسات والنظريات خدمة للمذهب، وتلبية لهذا النداء قام سماحته مشكوراً بالانتقال إلى مدينة قم المقدسة، ليكون مشرفاً مباشراً على المؤسسة، فكان وجوده الرصيد الأكبر للمؤسسة، مما حفّز كثيرين للعمل بجدّ والتساوق لتقديم الأفضل للمذهب، خصوصاً أنّ سماحة الشيخ قد قام متفضلاً بنقل مكتبته العامرة للمركز ليخلق بذلك حافزاً آخر للنهوض بالمسيرة والخروج بنتاجات عملية مشرّفة.

٣ـ طباعة مجموعة من المدوّنات التي تخدم المذهب في مواضيع متعددة، إحداها وهي التي بين يديك، وهي عبارة عن تقرير مباحث لسماحة العلامة الشيخ محمد رضا الجعفريﷺ حول غزوة تبوك حيث كان رحمه الله يلقي محاضرات في التاريخ الإسلامي متخذاً القرآن الكريم مصدراً ومنبعاً لذلك باللغة الفارسية وقد قام المركز بتدوينه ثم قام جناب الفاضل الأُستاذ كاظم الخاقاني مشكوراً بتعريبه واخراجه الأمر الذي جعل هذه المحاضرات قابلة للعرض والاستفادة.

وفي الختام لابد أن نقدّم شكرنا الجزيل لكل من ساهم في تهيئة وتقديم هذه المجموعة القيّمة في مراحلها المختلفة.

والحمد لله رب العالمين أولاً وأخيراً.

مركز الثقافة الجعفرية
للبحوث والدراسات
قم المشرفة ١٤٣٨ هـ

المقدّمة

إنّ التاريخ الذي تركه لنا الماضون لا يمثل في الواقع إلا إرث السلطات الحاكمة على المجتمع الإسلامي، فهم لا يقدمون الأحداث كما وقعت بالفعل بل كما يحلو لهم، ويلقنون الرأي العام بما يناسبهم من أفكار وقراءات؛ لذا من أجل أن نتوفر على صورة واضحة لحقيقة ما جرى في عصر النبيّ الأكرمﷺ لا نملك إلا اللجوء إلى القرآن الكريم، لأنّ الصورة التي ترسمها الآيات الشريفة عن المجتمع الإسلامي المعاصر للنبي الأكرمﷺ تمثل حقيقة غير خاضعة للجدال. ومن أجل التعرف على حقيقة النسيج الاجتماعي للمسلمين في صدر الإسلام وتمييز من تشربوا بالرسالة الإلهية وأخلصوا لها ممن كانوا يتظاهرون باعتناقها، لابد من تحليل الدلالة التطابقية والالتزامية للآيات القرآنية في هذا الخصوص.

من المصطلحات التي ابتدعها القرآن الكريم «النفاق». ولم يكن هذا المصطلح يحمل عند العرب قبل نزول القرآن الدلالة نفسها التي يحملها اليوم؛ لذا لا نحتاج للإحاطة الكاملة بدلالة الكلمة إلى الرجوع إلى علم الألفاظ بل ينبغي تقصي معانيها في الآيات القرآنية.

ولعل ما يضفي أهمية أكبر على تحليل قضية النفاق من منظور الآيات القرآنية ما تعرض له هذا الموضوع من تحريف في التاريخ الإسلامي، بحيث بدا وكأن أغلب

المنافقين كانوا من أهل المدينة ومن الأنصار؛ حتى أنّ ابن كثير يدّعي في تفسيره أنه لم يكن هناك منافقون في مكة، وهذا ما جعل صفات المنافقين تتضمنها السور المدنية فقط، بل ما أكثر ما كان فيها من المؤمنين ممن كتموا إيمانهم وتظاهروا بالكفر نتيجة الضغوط التي كانوا يتعرضون لها من الأجواء السائدة.[١] ثم يقول: إنّ تبلور ظاهرة النفاق بدأ منذ هجرة النبيّ ﷺ إلى المدينة وإنّ النفاق اقتصر على قبيلتي الأوس والخزرج، ويسند قوله إلى حديث عن ابن عباس في تفسير الآية الثامنة من سورة البقرة[٢]، بأن المراد بـ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ المنافقون من الأوس والخزرج.[٣]

ولابد من عرض الادعاء بعدم وجود منافقين في المهاجرين من مكة على القرآن.

فبتدبر الآيات القرآنية يتضح أنّ هناك آيات تدل على نفاق أهل مكة، منها مثلاً، الآيات الأولى من سورة العنكبوت المكية التي تتحدث عن النفاق وغفل عنها أكثر الباحثين الذين يقصرون النفاق على الأنصار.

يقول تعالى:

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾.[٤]

الفتنة تعني الجذب، لذلك ينعت القرآن الكريم الأموال والأولاد بالفتنة، لأنّ الأموال والأولاد تجذب الإنسان إليها.

---

١. ابن كثير، التفسير: ١/ ٨٣.
٢. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ البقرة (٢): ٨.
٣. ابن كثير، التفسير: ١/ ٨٣.
٤. العنكبوت (٢٩): ٢.

ثم يقول تعالى:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ﴾.[١]

قد يرد هنا إشكال حول أولئك الذين لم يكونوا يقيمون الصلاة في مكة، ليس بسبب عدم إيمانهم، بل لخوفهم من أذى الناس، ولكن الله يقول بصريح الآية:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ العَالَمِينَ﴾.[٢]

يعني: أنّ هذا النوع من الأشخاص يقول: لو أننا ثبتنا على إيماننا تعرضنا إلى الأذى من الناس وإذا تركنا الإيمان تعرضنا لعذاب الله!

والحقيقة أنّ هذين النوعين من العذاب كانا في نظر البعض متشابهين لأنهم لم يكونوا يؤمنون حقيقةً بالعذاب الإلهي؛ هذا النوع من الناس كان ينتهي به الأمر إلى التخلي عن الإيمان، ولكنهم في الوقت نفسه كانوا يسعون لأن يكونوا مستفيدين من الطرفين في جميع الأحوال، فإن كان الفتح مع المؤمنين قالوا: ألم نكن معكم؟ ولكن الله يقول:

﴿أَوَ لَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ العَالَمِينَ﴾.

يتبين إذن أنهم كانوا يزعمون عند المسلمين بأنّ براءتهم من الإسلام كانت لدفع

---

١. العنكبوت (٢٩): ٣.

٢. العنكبوت (٢٩): ١٠.

أذى المشركين عن أنفسهم وأنهم كانوا مضطرين إلى ذلك! ولكنّ الله يذكّرهم بأنهم إن كانوا نجحوا في خداع المسلمين والمشركين فإنهم لا يستطيعون أن يخدعوا الله:

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾.[١]

وهناك آية أخرى في سورة النساء المدنية ولكنها تتحدث عن النفاق في أهل مكة، يقول تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾.[٢]

روى النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم والبيهقي في ذيل هذه الآية: أنّ عبدالرحمن بن عوف وأصحاباً له[٣] أتوا النبيّ صلى الله عليه [وآله] وسلم بمكة، فقالوا: يا نبيّ الله، إنّا كنّا في عزّ ونحن مشركون، فلمّا آمنا صرنا أذلّة، وطلبوا من النبيّ ﷺ أن يأذن لهم بالقتال فأبى، لأنّ الظروف في مكة لم تكن حينئذٍ تسمح للمسلمين بمحاربة المشركين، ولكن حين أصدر أمر القتال للمسلمين في المدينة تنصّل

---

١. العنكبوت (٢٩): ١١.

٢. النساء (٤): ٧٧.

٣. أي: مصاحبين معه، وهم الأشخاص الذين جلبهم أبوبكر معه حين أسلم، كانوا خمسة [أو ستة] دخلوا الإسلام معاً: أبوبكر وعثمان والزبير وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص [أو طلحة]. (ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**: ١٨/ ٣٤٨؛ الصفدي، **الوافي بالوفيات**: ١٧/ ١٦٥).

هؤلاء أنفسهم عن الجهاد ولم يركنوا للحرب.[١]

وهذه الآية تذكير من الله لنبيه ﷺ بموقفهم في الحالتين، حين أمروا قبل الجهاد بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ثم حين أمروا بعد ذلك بالجهاد إذا هم يخافون الناس أكثر من مخافتهم الله وقالوا: لم أمرتنا بالجهاد ولم تمهلنا؟

يبدو أنّ الغاية من قصر النفاق على الأنصار من أهل المدينة كانت لسد باب الارتياب بالمهاجرين، على أنّ هذا لا يعني أنّ المتبنين لهذا الموقف كانوا مدفوعين بالولاء للمهاجرين بشكل عام، ولكن الهدف كان تبييض ساحة عدد منهم مهما كلف الأمر، وهل من غطاء أفضل من شرف «المهاجر في سبيل الله»؟

بعبارة أخرى: إنّ تنزيه المهاجرين من النفاق ـ كالخلاف بين الشيعة والسنة حول معنى الصُحبة ـ ما هو إلا محاولة لطرح موضوع جانبي غايته تنزيه الخلفاء من المطاعن، والأحاديث الموضوعة في كتب السنة غايتها تحقيق هذا الهدف، حتى أنهم ينسبون لرسول الله ﷺ قول: «لا تسبوا أصحابي فوا الذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل جبل أحد ذهباً لا يبلغ معشار أحدهم»[٢]؛ وربما استند إمام الحنابلة إلى هذه الأحاديث الموضوعة فقرر أن الكلام عن عيوب الصحابة أو بغضهم أو ذكر مساوئهم بدعة حتى يعود صاحبها إلى حبهم بقلبه.[٣]

ولو فرضنا صحة هذا الذي يقوله السنة فإنّ عليهم يجيبوا على السؤال التالي:

---

١. النسائي، **السنن الكبرى**: ١٠/ ٦٨؛ الطبري، **جامع البيان**: ٥/ ١٧٠-١٧١؛ ابن أبي حاتم، **التفسير**: ٣/ ١٠٠٥؛ الحاكم النيسابوري، **المستدرك**: ٢/ ٧٦، ٣٣٦؛ البيهقي، **السنن الكبرى**: ٩/ ١٩.

٢. أحمد بن حنبل، **المسند**: ٣/ ١١؛ البخاري، **الصحيح**: ٥/ ٨؛ مسلم، **الصحيح**: ٤/ ١٩٦٧.

٣. القفاري، **مسألة التقريب**: ١/ ٩٥؛ نقلاً عن كاشف الغمة في اعتقاد أهل السنة.

إذا كان جميع صحابة النبيّ الأكرم ﷺ منزهين، فمن هم مصاديق المنافقين المشار إليهم في آيات النفاق؟! إنهم يذكرون عبدالله بن أبيّ على رأس المنافقين، ولكن هذا مات قبل وفاة النبيّ ﷺ في حين نزلت الكثير من الآيات بعد موته وفي السنوات الأخيرة من عمر النبيّ ﷺ تحذر المسلمين من خطر المنافقين، فهل كان هؤلاء المنافقون خارج دائرة صحابة النبيّ الأكرم ﷺ؟

واضح أنّ بعض أهل السنة بطرحهم هذه المواضيع، إنما يسعون للتغطية على حوادث مثل واقعة «الغدير» و«سقيفة بني ساعدة» والانحراف عن المسار الإلهي المتمثل بالإمامة، إذ بقبول تعريف العامة للصحابي يصبح من المتعذر تتبع مواضيع مثل إنكار حديث الغدير وغصب الخلافة، فهل يكون ممكناً بعد قبول هذا التعريف اتهام الصحابة بالتواطؤ والخداع في قضية خلافة النبيّ الأكرم ﷺ إذا كانوا ـ كما يصفهم أحمد بن حنبل ـ منزهين عن النقص، مبرئين من العيب؟ كيف يمكن اتهامهم بغصب الخلافة إذا كانوا يرفلون في ساحة العصمة على حد زعم أهل السنة؟

ويتشبث بعض أهل السنة في تبرير هذا الاعتقاد الباطل حتى بالآيات القرآنية؛ من تلك الآيات على سبيل المثال، قوله تعالى:

﴿لَقَد تَابَ اللهُ عَلَى النبيّ وَالمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ العُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.[١]

أو الآية التي تقول:

﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم

١. التوبة (٩): ١١٧.

بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذٰلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾.[1]

ويستدلون بآيات وروايات أخرى على اعتقادهم؛ ناسين أنّ هذه الآيات القرآنية لا تعتبر مطلق المهاجرين والأنصار أهلاً للتكريم، بل إنّ الآيتين المذكورتين تخصصان الأهلية بقيد «التبعية» لله ورسوله.

إنّ إعادة قراءة حوادث صدر الإسلام بأسلوب مطابقة التاريخ والسيرة النبوية مع القرآن الكريم، تمكننا من تحصيل أجوبة للكثير من تساؤلاتنا من آيات الوحي.

ومن أجل تحقيق الفهم الصحيح والدقيق للحوادث التي وقعت بعد وفاة النبيّ الأكرمﷺ علينا إعادة دراساتنا التاريخية والعلمية وفق هذا الأسلوب، لأنّ من المؤكد أنّ الاعتماد على التاريخ المدون وفق أهواء الحكّام الأمويين والعباسيين لا يفتح أمامنا طريقاً إلى الحقيقة. ومن جانب، يرتبط الكثير مما وقع بعد وفاة النبيّﷺ من حوادث هامة ارتباطاً وثيقاً بظروف الأشخاص المحيطين بالنبيّﷺ والمقدمات التاريخية التي سبقت وفاتهﷺ.

وبناءاً على هذا يكون «أسلوب مطابقة دراسة التاريخ على مباني القرآن» الخيار الوحيد الموصل إلى حقائق تاريخ الإسلام.

من المهم والمؤثر جداً في الدراسات القرآنية الأخذ بنظر الاعتبار حقيقة أنّ الترتيب التنظيمي لسور القرآن، قائم على أساس الحجم وليس النزول؛ فكما أنه لم يراع في

---

١. التوبة (٩): ١٠٠.

الآيات ترتيبها من حيث مدنيتها ومكيتها، كذلك لم يراع هذا الترتيب في السور. ولا شك أنّ عدم مراعاة الترتيب النزولي للسور من قبل الباحثين أخفى علينا الكثير من الحقائق المتعلقة بالتحولات الاجتماعية التي شهدها صدر الإسلام والتي يسهّل فهمَها الترتيبُ النزولي للسور.

ولكننا نملك من الشواهد الكثير مما يكفي للتدليل على مدنية بعض هذه السور، وهذا يكفي للدراسة الحالية.

إنّ سورتي «التوبة» (براءة) و«المائدة» يحتلان ـ حسب الترتيب القرآني المعروف ـ التسلسلين التاسع والخامس من سور القرآن، في حين أنّ سورة التوبة نزلت قبل وفاة النبيّ الأكرمﷺ بنحو سنة ونصف السنة، أما المائدة فكانت آخر سورة نزلت عليهﷺ.

النقطة المهمة هي أنه لابد أنّ الظروف الاجتماعية التي سادت في السنوات الأخيرة من حياة النبيّ الأكرمﷺ قد تم تصويرها في هاتين السورتين، فكلتا السورتين تتضمنان مبحثي النفاق والولاية وتبينان اشتداد تيار النفاق من جهة وأهمية الولاية من جهة أخرى.

وسورة التوبة التي سنقيم عليها دراستنا في هذا الكتاب تعطينا صورتين لمخالفي الدين؛ فآياتها الأولى تتناول مشركي مكة، بينما تتناول تكملة الآيات ظاهرة النفاق في معركة تبوك.

استناداً إلى التحاليل القائلة بمثالية مجتمع صدر الإسلام، لابد أن يكون إيمان أفراد المجتمع قد بلغ الذروة في أواخر حياة النبيّ الأكرمﷺ وأن تكون الآيات مؤيدة لذلك؛ والحال أنّ الآيات التي نزلت في تلك الفترة كانت في غالبيتها مفعمة بمعاني

التهديد والتحذير وفضح النفاق ومؤامرات المنافقين.

وهدفنا من إعادة قراءة غزوة تبوك، تتبّع التيار الخاص بالمنافقين في صدر الإسلام، لأننا نرى أنّ ذلك يمكن أن يكون مقدمة ضرورية لمباحث الخلافة ومعرفة التحولات التي أعقبت وفاة النبيّ ﷺ.

وكما قلنا، فإنّ كتب التاريخ كانت تُكتب عادةً منسجمة مع توجهات الحكّام الأمويين والعباسيين الذين لم يخفوا عداءهم لأهل البيت عليهم السلام، لذا فإنّ أسلوبنا في تحليل غزوة تبوك سيقوم على عرض النصوص التاريخية الخاصة بها على الدلالة التطابقية أو الالتزامية للآيات القرآنية.

بالنتيجة، فإنّ الدراسة النفسية للمجتمع المدني في حوادث عصر النبيّ الأكرم ﷺ تمكننا من تقديم تحليل أدقّ للحوادث التي أدّت إلى ظهور السقيفة، ولا يمكن العثور على أسباب تغير الموازين الاجتماعية لصالح النفاق بشكل مفاجئ بعد وفاة النبيّ الأكرم ﷺ في دراسة سوابق بعض المهاجرين.

إنّ بعض المهاجرين كانا يمثلان خاصية زمنهما وقد ركبا الموجة التي أحدثها الجهل المستشري في مجتمعهما. إنّ سرطان السقيفة الذي ابتليت به الأُمة، يعود في ظاهره إلى الخبث الذي مارسه زعماء فرضوا أنفسهم وتوجهاتهم على المجتمع المسلم، أما في باطنه فيعود إلى انتشار النفاق في ضمير المجتمع.

ومن الخطأ طرح السؤال على هذا النحو: لماذا تغير وجه الإسلام بعد وفاة النبيّ الأكرم ﷺ؟ وهو سؤال خاطئ مردّه إلى التاريخ المزوق الذي تم تلقين الرأي العام به.

الحقيقة هي أنّ وجه الإسلام لم يتغير ولكنه كشف عن حقيقته التي كان يخفيها حتى ذلك الحين، حتى قال حذيفة: إنّ المنافقين أصبحوا يمارسون نفاقهم بحرّية بعد

رسول الله ﷺ، ويقول:

«إنّ المنافقين اليوم شر منهم على عهد رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم، كانوا يومئذ يكتمونه، وهم اليوم يجهرونه».[١]

لابد من التفتيش عن السبب الرئيس في الانحراف عن مسير الإمامة الإلهي بين الناس أنفسهم. ومما يؤسف له أننا كلما اقتربنا من الأيام الأخيرة من حياة النبيّ الأكرم ﷺ وجدنا أهل ذلك الزمان في غالبيتهم بين منافق ومَن على وجهه غبار من نفاق، بحيث أنّ رسول الله ﷺ يحدد علامات النفاق الخالص بثلاث صفات هي: الكذب وإخلاف الوعد وخيانة الأمانة، ويقول: إنّ من يبتلى بواحدة من هذه الصفات فهو مبتلى بشعبة من النفاق.[٢] واستناداً إلى هذا الحديث قرر ابن كثير أنّ النفس البشرية تدور على مدار الإيمان والنفاق، وقسّم النفاق إلى نفاق عملي ونفاق اعتقادي.[٣]

تتمتع غزوة تبوك بأهمية خاصة من حيث اقترانها بوفاة النبيّ الأكرم ﷺ وتناظرها مع سورة التوبة، ويكشف تحليل هذه المعركة التي وقعت في السنة التاسعة للهجرة أنّ أكثر الناس كانوا مصابين بالنفاق العقائدي.

وتفيد الشواهد التي سنعرضها من المصادر السنّية خلال هذه المباحث بأنّ اعتقاد أكثر الصحابة برسول الله ﷺ لم يكن قائماً على أساس إيماني متين.

---

١. البيهقي، السنن الكبرى: ٨/ ٣٤٨.

٢. المجلسي، **بحار الأنوار**: ٧٥/ ٢٢٩.

٣. ابن كثير، **التفسير**: ١/ ٨٣.

ورغم أنّ ابن هشام ينقل قصيدة أبي خيثمة التي مطلعها «لما رأيت الناس في الدين نافقوا»[١]، المشيرة إلى نفاق أغلب الناس، فإنه يرفض الحديث الوارد عن الإمام المعصوم «ارتد الناس بعد رسول الله...».

وسواء رضينا أم لم نرض فإنّ الآيات القرآنية تشهد على تنامي النفاق في السنوات الأخيرة من حياة النبيّ الأكرمﷺ؛ لذا نجد الجزء الأكبر من سورتي المائدة والتوبة اللتين نزلتا في أقل من سنتين سبقتا وفاة النبيّ، خصص لظاهرة النفاق في المجتمع.

إنّ التحليل التطبيقي لسورة التوبة ـ الناظرة لمعركة تبوك وما سبقها وما تلاها من حوادث ـ على السيرة النبوية، يوضح لنا أنّ النسيج الاجتماعي في السنوات الأخيرة من عمر النبيّ الأكرمﷺ كان ـ خلافاً لما تصوره كتب التاريخ ـ يتوزع على الأقسام الأربعة التالية مرتبةً حسب الكمية العددية:

١ـ الجسم العام للمجتمع، ويشمل الأغلبية المتأثرة بتيار النفاق (منافقون عقائديون).

٢ـ المنافقون الخالصون، وهم على مجموعتين: المتخلفين عن القتال، والذين شاركوا في المعركة ولكنهم كانوا يخططون لقتل النبيّ الأكرمﷺ (المنافقون العمليون).

٣ـ المشركون وعلى رأسهم مشركو مكة.

٤ـ المؤمنون الخُلّص، وهم قليلون أمثال سلمان وأبي ذر وحذيفة وعمار.

---

١. ابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ١٦٤.

الفصل الأول

منبع النفاق

- **المدخل**
- **الحالة الإيمانية لأهل مكة؛ إسلام أم استسلام؟**
- **مظاهر النفاق في فتح مكة**

المدخل

يعتبر فتح مكة من المنعطفات الهامة في السيرة النبوية، انفتحت على إثرها صفحة من تاريخ صدر الإسلام.

ففي العام السادس الهجري دخلت قبيلة «خزاعة» في حلف مع المسلمين، على أثر «صلح الحديبية»[1] الذي عقد بين زعماء قريش والنبيّ الأكرمﷺ، وبموجب التعهدات التي قطعها الطرفان، بينما تحالفت «بنوبكر» مع قريش.[2] وكان بين بني بكر وخزاعة عداوة قديمة، فانتهزت بنوبكر الفرصة وقتلت[3] رجالاً من خزاعة؛ فجاء

---

١. في العام السادس من الهجرة أمر رسول اللهﷺ المسلمين بالتهيؤ لأداء «العمرة»، وعند ما اقترب النبيّ الأكرمﷺ من مكة علمت قريش بقدومه، فأرسلت إليه رسلاً يسألونه عن قصده من سفره ذاك، فأكد لهم رسول اللهﷺ أنه لم يأت للقتال، بل لزيارة بيت الله الحرام. ولكن قريشاً رفضت دخول المسلمين إلى مكة خشية من مواجهة النبيﷺ، فقام النبيﷺ بتجديد بيعة المسلمين له في ذلك المكان، وأخذ عليهم المواثيق بأن لا يهربوا مهما كانت الظروف حتى يحسم الأمر. وسميت تلك الواقعة «بيعة الشجرة»، ووافقت قريش ـ بعد أن أدركت عجزها عن مواجهة المسلمين ـ على أن يأتي المسلمون إلى الحج في العام التالي كما يفعل سائر القبائل العربية. وبعد الاتفاق بين النبيﷺ مع قريش تم توقيع اتفاق يلتزم ببنوده الجانبان عشر سنوات، ونص أحد بنود صلح الحديبية على حق الجانبين في التحالف مع أية قبيلة، وأن لا تتعرض أية قبيلة تتحالف مع المسلمين أو مع قريش إلى المضايقات من الجانب الآخر، إلا أنّ نقض قريش للاتفاق أدى إلى فتح مكة.

٢. ابن هشام، **السيرة النبوية**: ٤/ ٣٢.

٣. المصدر نفسه.

جماعة من خزاعة إلى النبيّ ﷺ وفيهم «بديل بن ورقاء الخزاعي»[١] وأخبروه بنقض قريش العهد؛[٢] وكانت تلك الحادثة مقدمة لفتح مكة.

ولكن الجدير بالاهتمام أنّ قبول قريش بصلح الحديبية كان نتيجة خوفهم من مواجهة المسلمين، فلم يكن مع النبيّ ﷺ عند خروجه من المدينة إلى مكة للحج سوى ألف وأربعمائة شخص[٣]، وكان خروجه ﷺ بدون ترتيبات عسكرية[٤]؛ إلا أنه بعد مضي نحو سنتين على صلح الحديبية[٥] وعلى إثر أخذ بيعة الرضوان من أفراد المسلمين، على عدم الفرار من القتال مهما كانت الظروف،[٦] شعر زعماء قريش بالهلع وبانت لهم آثار انكسارهم، وهذا ما دفعهم لقبول الصلح.

إنّ ملاحظة كون صلح الحديبية جاء نتيجة شعور قريش بالضعف أمام أربعمائة مسلم لا أكثر، يعطينا صورة أوضح للحالة التي انتابت أهل مكة عند ما رأوا جيشاً قوامه عشرة آلاف مسلم مسلح يتقدم نحوهم؛ كانت حالة دفعت حتى بشخصية مهمة مثل أبي سفيان إلى أن يتخلى عن غطرسة الجاهلية ويتوسل بأمثال أبي بكر وعمر في المدينة لمنع النبيّ ﷺ من الزحف على مكة.[٧]

---

١. هو الجد الأعلى لدعبل الخزاعي وآل دعبل وهم جميعاً شيعة.

٢. ابن هشام، **السيرة النبوية**: ٤/ ٣٧؛ الطبري، **التاريخ**: ٢/ ٣٢٥.

٣. ابن هشام، **السيرة النبوية**: ٣/ ٣٢٢.

٤. المصدر نفسه.

٥. حسب رواية ابن إسحاق فإنّ صلح الحديبية تم أواخر العام السادس الهجري، بينما تم فتح مكة في شهر رمضان من العام الثامن. (للاطلاع على المزيد عن صلح الحديبية انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**: ٣/ ٣٢١؛ وللاطلاع على المزيد عن فتح مكة انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**: ٤/ ٣١).

٦. ابن هشام، **السيرة النبوية**: ٣/ ٣٣٠.

٧. ابن هشام، **السيرة النبوية**: ٤/ ٣٨ـ ٤٢.

دخل النبيّ الأكرمﷺ مكة في وقت كانت قريش تشعر بالعجز الكامل عن مواجهة المسلمين وتحس بمرارة الهزيمة مقدماً؛ دخل مدينة سبق له أن دعا أهلها إلى الإيمان ثلاث عشرة سنة فلم يستجب لدعوته إلا عدد قليل منهم، رغم أنهم كانوا يجلونه ويحترمون خصاله ويسمونه «محمد الأمين». ثم كان لأهل مكة فرصة أخرى للإيمان امتدت ثماني سنوات كان فيها النبيّ الأكرمﷺ في المدينة ولكنهم أصروا على شركهم وجهلهم حتى جاء فتح مكة؛ فكيف يمكن التصديق بأنّ مشركي مكة المصرّين على شركهم، دخلوا الإسلام دخولاً صادقاً بين ليلة وضحاها فاستحقوا صفة صحابة رسول اللهﷺ كما يعتقد أهل السنة؟! وأي وجدان سليم يمكن أن يقتنع بأنّ أعداء الأمس، الذين دفعوا بأذاهم النبيّﷺ إلى الهجرة من مكة، وأشعلوا نار الحرب في بدر وأُحد، هم مؤمنو اليوم؛ لتصبح ساحتهم مبرأة من كل عيب ونقص فلا يطالهم الطعن واللعن؟!

إنّ الشواهد تبين أنّ أهل مكة ليس فقط لم يسلموا بعد فتح مكة، بل إنهم لم يظهروا إسلامهم حتى. ويتأكد هذا الادعاء حين نأخذ بنظر الاعتبار أنّ الدخول في الإسلام لا يتحقق بالمعجزة، بل يأتي نتيجة مسيرة تكاملية يقطعها الفرد حتى يبلغ درجة الإيمان؛ لذا فمن المستحيل أن يتحول جميع أهل مكة إلى الإسلام دفعة واحدة، خاصة أنّ النبيّ الأكرمﷺ دخل مكة بلا قتال، فلم يكن أحد يخشى أن يُقتل إن لم يُسلم.

وهكذا، لا يمكن لفتح مكة وحده أن يكون سبباً لإيمان أهلها. ولا شك أنّ أهل مكة خضعوا أمام القوة العسكرية للمسلمين، أما إظهارهم للإسلام فكان بسبب الخوف الذي استولى عليهم نتيجة انتصار المسلمين.

سوف ندخل في تفاصيل هذه النقطة في ظل الآيات القرآنية والشواهد التاريخية المتوفرة وسنثبت في النهاية أنّ مشركي مكة ـ المسلمين في الظاهر ـ ومنافقي المدينة كانا قطبي تيار النفاق، اللذين تحالفا في البداية من أجل قتل النبيّ الأكرمﷺ، وبعد ذلك من أجل حرف الخلافة عن مسارها الإلهي.

القسم الأول: الحالة الإيمانية لأهل مكة، إسلام أم استسلام؟

تحليل زمن نزول الآيات الأولى من سورة التوبة

بعد فتح مكة في شهر رمضان من العام الثامن الهجري[1]، نزلت سورة التوبة في شهر ذي الحجة من العام التاسع للهجرة ـ أي: بعد سنة من الفتح ـ[2]؛ في البداية أعطى النبيّ الأكرمﷺ آيات سورة التوبة إلى أبي بكر ليقرأها على أهل مكة، ولكن لما وصل أبوبكر إلى منتصف الطريق، بعث النبيّ الأكرمﷺ ـ بأمر من الله ـ بعلي بن أبي طالب ليأخذ منه الآيات، ويذهب إلى مكة، ليقرأها على أهلها.[3]

لقد تليت آيات البراءة على أهل مكة بعد سنة من دخولهم في الإسلام ـ كما يظن أهل السنة ـ، غير أنّ ظاهر الآيات الافتتاحية لسورة براءة ينم عن الشرك العلني لأهل مكة؛ فالله تعالى يتحدث عن المشركين بكلام شديد في الآيات الثماني والعشرين الأولى من السورة ويرغّب المسلمين في قتالهم، وبعد هذه الآيات الثماني والعشرين يتوجه الخطاب القرآني إلى أهل الكتاب في موضوع يناسب الأرضية التاريخية لمعركة تبوك.

---

١. ابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ٣١.

٢. ابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ١٨٨.

٣. ابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ١٩٠.

ولكن مع ذلك، لا نجد في أخبار التاريخ شيئاً عن معركة وقعت مع المشركين بعد فتح مكة.

على فرض نزول الآيات الافتتاحية من سورة التوبة بعد فتح مكة، فإنّ تلك الآيات تثبت بشكل قطعي الشرك العلني لأهل مكة.

أما الفرض الآخر فهو أكثر انسجاماً مع وقائع التاريخ وأكثر توافقاً مع مضامين الآيات القرآنية، وهو أنّ الآيات الافتتاحية لسورة التوبة نزلت وأبلغت قبل فتح مكة بينما نزلت الآيات الأخرى بعد معركة تبوك.

وسواءٌ نزلت هذه الآيات قبل فتح مكة أو بعده، تبقى الشواهد قائمة على شرك أهل مكة ونفاقهم.

سوف نتناول بالتحليل الآيات الافتتاحية لسورة التوبة، ثم نتناول آيات السورة الأخرى التي تبين حالة المجتمع في المدينة في أواخر عمر النبيّ الأكرمﷺ لإثبات واقع النفاق الأليم في المدينة.

وسيتبين بعد ذلك استحالة اعتبار المجتمع المكي مجتمعاً مؤمناً في ظل تلك الظروف؛ بل سيتضح أنّ أهل مكة لعبوا الدور الرئيس في حالة النفاق التي ألّمت بمجتمع المدينة فكافأتهم على ذلك بأهم المناصب.

فرض نزول الآيات قبل فتح مكة:

الآيات الثماني والعشرون الأولى من سورة التوبة (براءة) تظهر موقفاً شديداً من الله تجاه المشركين، لدرجة أنه يحرض المسلمين على قتالهم:

﴿أَلاَ تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَـهُمْ وَهَـمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَـرَّة أَتَخْشَوْنَـهُمْ فَالله أَحَـقُّ أَنْ تَـخْشَـوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِـينَ﴾.[١]

في الآية يسأل الله المؤمنين: ألا تحاربون قوماً نقضوا عهودهم وحاولوا إخراج الرسول مع أنهم هم الذين بدأوا القتال؟ فهل تخافونهم؟ أو ليس الله أحق بأن تخافوه؟

ويقول في آية أخرى:

﴿فَإِذا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِـينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَد فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِـيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِـيمٌ﴾.[٢]

يأمر الله المؤمنين في هذه الآية بصراحة بأن لا يعطوا الأمان للمشركين بعد انقضاء الأشهر الحرم، وأن يقعدوا لهم في مكامنهم ويحاصروهم ويأسروهم ولا يخلوا سبيلهم، إلا إذا آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وإلا فعليهم أن يقتلوهم حيثما وجدوهم.

وبعض الآيات يتحدث عن وجود زعماء الكفر في مكة:

﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَـهُمْ مِنْ بَعْدِ عَـهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِـمَّةَ الكُفْرِ إِنّـهُمْ لا أَيْمانَ لَـهُمْ لَعَلَّـهُمْ يَنْـتَـهُونَ﴾.[٣]

---

١. التوبة (٩): ١٣.

٢. التوبة (٩): ٥.

٣. التوبة (٩): ١٢.

وفي هذه الآية يأمر الله المسلمين بمحاربة المشركين إذا نقضوا عهدهم واستهدفوهم في دينهم، ويؤكد على محاربة قادة الكفر لأنهم لا عهد لهم.

يتبين من ظاهر هذه الآيات أنّ سورة التوبة نزلت قبل فتح مكة، فقوله تعالى: ﴿أَلاَ تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَـهُمْ وَهَـمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ﴾ يناسب أوضاع مكة قبل الفتح؛ فإذا كانت نزلت بعد فتح مكة، فما الوجه في دعوتها لمحاربة الذين همّوا بإخراج الرسول؟

ومن الشواهد القرآنية الأخرى الداعمة لهذه الدعوى قوله تعالى:

﴿ما كانَ لِلْمُشْرِكِـينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللهِ شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِـهِمْ بِالكُفْرِ أُولـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُـهُمْ وَفِي النّارِ هُمْ خالِدُونَ﴾.[١]

يقول الله للمسلمين: إنّ من غير المناسب أن يتولى عمارة المسجد الحرام مشركون يقرون على أنفسهم بالكفر.

يفهم من هذه الآية وغيرها أنّ شؤون الكعبة المهمة مثل السقاية والعمارة كانت بأيدي المشركين:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الحاجِّ وَعِمارَةَ المَسْجِدِ الحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَجاهَدَ فِي سَبِـيلِ اللهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظّالِمِـينَ﴾.[٢]

يسأل الله المسلمين في هذه الآية: هل تساوون بين سقاية الحجيج وإعمار المسجد

---

١. التوبة (٩): ١٧.

٢. التوبة (٩): ١٩.

الحرام وبين عمل من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله؟! ثم تقولون إنهما متساويان عند الله، والله لا يهدي القوم الظالمين.

من الصعب قبول فكرة بقاء المناصب المهمة الخاصة بالكعبة بيد المشركين بعد فتح مكة؛ لا يمكن تصور هذه الحالة إلا قبل أن يسيطر المسلمون على مكة.

ويتأكد الموضوع أكثر من آية أخرى هي قوله تعالى:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾.[١]

يأمر الله نبيه في هذه الآية بأنه إذا لجأ إليه أحد المشركين أن يقبل لجوءه حتى يتبلغ بدعوة الإسلام ثم يوصله إلى مأمنه، لأنّ هؤلاء قوم جاهلون كما يصفهم القرآن؛ واضح من الآية أنّ المسلمين لم يكونوا مسيطرين على مكة، فلو كانت الآية نزلت بعد فتح مكة، لكان المشركون تحت سلطة المسلمين، فلا يبقى معنى لاستجارة أحد من المشركين بهم.

ثم أنه لو كانت الآيات نزلت بعد الفتح، فماذا يكون معنى قوله تعالى: **﴿...فَأَجِرْهُ حَتّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ...﴾**؟ فهل يعقل أنهم لم يسمعوا كلام الله بعد مضي سنة على فتح مكة؟

وهناك آيات أخرى تعزز فرضية نزول الآيات الافتتاحية لسورة براءة قبل الفتح؛ وهي آيات تكشف عن إرهاصات ما قبل الحرب.

---

١. التوبة (٩): ٦.

يقول تعالى في الآية الأولى من سورة التوبة:

﴿بَرآءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إلى الَّذِينَ عاهَـدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِـينَ﴾.[1]

الآية تتحدث عن براءة الله ورسوله من المشركين الذين عاهدوا المسلمين، وهذا يعني أنه كان للمسلمين معاهدات مع المشركين لم يعد هناك ضرورة للالتزام بها بعد نزول هذه الآيات. وفي الآية التي تليها يمهل الله المشركين أربعة أشهر:

﴿فَسِـيحُوا فِي الأَرضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُر وَاعْلَمُوا أَنَّـكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الكافِرِينَ﴾.[2]

بعد مهلة الأربعة أشهر هذه يوجه الله تعالى للمشركين إنذاراً بأنهم أعجز من أن يُعجزوا الله وأنّ الله هو مخزي الكافرين.

يتبين من هذه الآية أيضاً أنّ المعاهدات بين المسلمين والمشركين ينتهي نفاذها بعد مهلة محددة. يبدو من ظاهر الآية أنه لم تكن قد اندلعت نار حرب بين الطرفين في ذلك الوقت بعد، ولكن الأوضاع كانت تنبئ عن استعدادات كان يقوم بها المشركون للحرب، والله يخاطبهم من موقع القوة ويحذرهم من التفكير بإخضاع المسلمين لأنه ظهيرهم، وأنّ المشركين أعجز من أن يواجهوا قدرته.

ثم يؤكد على تبليغ الناس في يوم الأضحى ببراءة الله ورسوله من المشركين:

﴿وَأَذانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلى النّاسِ يَوْمَ الحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ

---

١. التوبة (٩): ١.

٢. التوبة (٩): ٢.

الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.[١]

وهكذا يخير المشركين بين أمرين: إما التوبة مما سلف من ذنوبهم والإيمان بالله ورسوله ـ وهو الأفضل ـ، أو الإعراض عن أوامر الله؛ وفي هذه الحالة لن يكون بمقدورهم الخروج من قدرة الله. ويبشرهم الله بعذاب أليم.

وفي النهاية يبين أنّ هذا الإعلان الشديد اللهجة الذي تلي في موسم الحج، يشمل جميع الكافرين، إلا الذين لم ينقضوا العهود ولم يحموا أعداء المسلمين؛ تقول الآية:

﴿إِلاّ الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.[٢]

في هذه الآية يؤكد الله على المسلمين بإتمام عهدهم إلى انتهاء مدته.

وفي الآية التالية يضيق دائرة الحصانة حتى لا تشمل إلا العهود الموقع عليها في المسجد الحرام:

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلاّ الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فَما اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.[٣]

---

١. التوبة (٩): ٣.

٢. التوبة (٩): ٤.

٣. التوبة (٩): ٧.

الآية تأمر المسلمين بالتقيد بالعهد مع من تعاهدوا معهم في المسجد الحرام بمقدار التزامهم به.

يتضح من مجموع الآيات أنه لم تكن هناك حرب بين المسلمين والمشركين، ولكن الصورة التي تعطيها الآيات عن العلاقات المتبادلة بين الطرفين، تنبئ بقرب وقوع الحرب بينهما؛ ولهذا تعمل الآيات على تهيئة المسلمين للجهاد المرتقب. ورغم صدور الأوامر الصريحة في هذه الآيات للمسلمين بقتل المشركين، إلا أنّ التاريخ لا يحدثنا عن وقوع معركة بين المسلمين والمشركين بعد فتح مكة.

وهذا بحد ذاته شاهد آخر على نزول الآيات قبل فتح مكة؛ فمن جهة، من المستبعد جداً أن تكون وقعت مواجهات بين المسلمين ومشركي مكة لم تحدثنا عنها كتب التاريخ؛ ومن جهة أخرى، لا يمكن تصور عدم تنفيذ النبيّ الأكرم ﷺ للأوامر الإلهية الصريحة بوجوب قتل المشركين؛ لذا يغلب الظن بنزول الآيات قبل فتح مكة.

شواهد على عدم إيمان أهل مكة بعد الفتح:

ألف) إعادة قراءة النصوص التاريخية:

رغم نزول الآيات الافتتاحية لسورة التوبة (براءة) قبل فتح مكة، إلا أنّ ذلك لا يقلل من شرك أهل مكة ونفاقهم طول السنوات التي تلت الفتح، فهناك شواهد على بقاء أهل مكة على الشرك والكفر، وأنّ إقبالهم على الإسلام في السنوات التالية لم يكن إلا التفافاً استراتيجياً، لأنهم شاهدوا تغلغل الإسلام في شبه الجزيرة فخشوا التخلف عن الركب، ورأوا الدخول في الإسلام هو السبيل الأضمن لتحقيق مآربهم الدنيوية.

وهكذا فتح زعماء قريش صفحة جديدة لمحاربة الإسلام ارتدوا لها ثوباً مغايراً.

لهذا السبب وجدنا أهل مكة يستميتون بعد وفاة النبيّ الأكرمﷺ من أجل الحصول على مناصب حكومية، حتى نجحوا في النهاية في تحقيق غايتهم من خلال حكم الخلفاء الثلاثة وخاصة عثمان، حيث استحوذوا على بعض مقاليد الأمور.

أما الشواهد التي تعزز ادعاءنا باستمرار أهل مكة على الشرك بعد الفتح، فهي:

١ـ أعطى النبيّ الأكرمﷺ الأمان لأهل مكة يوم الفتح وقال لهم: «من أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن».[١]

وجاء في بعض الروايات: «من دخل المسجد».[٢]

وهكذا منع رسول اللهﷺ المسلمين من التعرض لمن كان في المسجد الحرام أو في دار أبي سفيان أو في داره، وأعطى الأمان كذلك لمن وضع السلاح مستسلماً، ولم يرد في أي مصدر تاريخي أنه أعطى الأمان لمن أسلم.

هذا يعني أنّ النبيّ الأكرمﷺ لم يجبر أهل مكة على الدخول في الإسلام، ويعني أيضاً أنهم لم يكونوا راغبين في الدخول فيه؛ حتى أنّ رسول اللهﷺ أعطى الأمان لصفوان بن أمية وكان من كبار قريش للعودة إلى مكة، وعند ما عرض عليه النبيّ الأكرمﷺ الإسلام، طلب مهلة شهرين، فأمهله النبيّﷺ أربعة أشهر[٣]؛ بل روي أنّ «هبيرة بن أبي وهب المخزومي» لم يسلم ومات كافراً.[٤]

٢ـ في تقسيم غنائم معركة حنين قام رسول اللهﷺ بتوزيع سهم «المؤلفة قلوبهم»

---

١. البلاذري، فتوح البلدان: ١/ ٤٨.

٢. الطبري، التاريخ: ٢/ ٣٣١.

٣. ابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ٦٠.

٤. ابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ٦٢.

على أهل مكة،[1] وتفسر بعض المصادر ما فعله النبيّ الأكرمﷺ بأنّ الغاية منه كانت استمالة قلوبهم إلى الإسلام.[2]

إنّ إعطاء هذا السهم لأهل مكة دليل على أنهم لم يكونوا مسلمين.[3]

٣ ـ سمى النبيّ الأكرمﷺ أهل مكة بعد فتحها بالطلقاء،[4] وما كان ليطلق عليهم هذا الاسم لو كانوا مسلمين، لأنّ الطليق يسمى بها من كان أسيراً ثم أطلق من الأسر، ولا يجوز أسر المسلم.[5]

ب ـ دلالة سورة النصر:

إضافة إلى جميع ما تقدم ذكره، تقدم سورة النصر دليلاً آخر على عدم إسلام أهل مكة. فرغم أنّ السورة نزلت في فتح مكة إلا أنها لا تشير من قريب أو بعيد إلى إسلام أهلها:

﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾.[6]

إنّ الرسالة التي تبعث بها هذه السورة لا تعني إسلام أهل مكة، بل هي إشارة إلى

---

١. ابن هشام، **السيرة النبوية**: ٤/ ١٣٥؛ الطبري، **التاريخ**: ٢/ ٣٥٨.

٢. ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**: ٢/ ١٤٠.

٣. للمزيد من الاطلاع على دلالة «المؤلفة قلوبهم» على أهل الكفر، انظر: الكوراني، **جواهر التاريخ**: ٢/ ١٠٢ ـ ١٠٩.

٤. اليعقوبي، **التاريخ**: ٢/ ٦٠.

٥. عن طريق الخاصة، انظر: «إنّ أهل مكّة دخلها رسول اللهﷺ عنوة فكانوا أسراء في يده فأعتقهم وقال: اذهبوا فأنتم الطُلَقَاء». (الكليني، **الكافي**: ٣/ ٥١٣).

٦. النصر(١١٠): ١ ـ ٣.

واقعة تاريخية وهي أنّ الناس بعد الفتح، أقبلوا على الإسلام جماعات جماعات في ما سمي بسنة الوفود؛[١] وتطلق (سنة الوفود) على العام التاسع للهجرة؛ إذ بعد أن فرغ النبيّ الأكرمﷺ من معركة تبوك وأسلمت ثقيف، تدفقت وفود القبائل على رسول اللهﷺ من كل جانب.[٢] وعند ما تأتي كتب السيرة على ذكر سنة الوفود لا تقول شيئاً عن إسلام أهل مكة. ويرى ابن هشام أنّ آيات سورة النصر ناظرة إلى «سنة الوفود» وقدوم وفود القبائل على رسول اللهﷺ، ولا يشير في حديثه عن سبب نزول السورة إلى إسلام أهل مكة.

يقول ابن هشام:

«وإنما كانت العرب تَرَبّص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش، وأمر رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم، وذلك أنّ قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم وخلافه. فلما افتُتحت مكة، ودانت له قريش، ودوّخها الإسلام، وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم ولا عداوته، فدخلوا في دين الله، كما قال عز وجل: أفواجا، يضربون إليه من كل وجه، يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه [وآله] وسلم: ﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ

---

١. انظر: ابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ٢٠٥.

٢. المصدر نفسه.

﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾، أي: فاحمد الله على ما أظهر من دينك، واستغفره إنه كان تواباً».[١]

كما تلاحظون، فإنه حتى ابن هشام لم يذكر أهل مكة وزعماءها في حديثه عن دخول القبائل المختلفة في الإسلام رغم تعصبه الشديد، أما من قريش فلا يذكر إلا ثقيفاً وهي ليست من أهل مكة، بل كانت تسكن الطائف في الغالب.[٢]

على أنّ أهل مكة اضطروا بعد ذلك لإظهار الإسلام بسبب القيود التي فرضت عليهم، مثل منعهم من دخول المسجد الحرام، وعوامل أخرى، مثل نزول آيات تهديدية؛ ولكنهم أبداً لم يُقبلوا على الإسلام بقلوبهم، بل كانوا يتربصون الفرص للعودة إلى الشرك الجاهلي والقضاء على الإسلام، حتى أنهم كانوا أصحاب الدور الرئيس في ظهور مؤامرة معركة حنين.

فرضية نزول الآيات بعد فتح مكة:

بعد أن ثبت أنّ أهل مكة لم يتركوا الكفر والشرك حتى بعد فتح مكة، تستدعي فرضية نزول الآيات الافتتاحية لسورة براءة (التوبة) بعد الفتح اهتماماً أكثر.

إنّ هذه الفرضية، رغم مباينتها للمشهور من الحوادث التاريخية، يمكن اعتبارها فرضية جديرة بالمناقشة.

إنّ المعطيات التي نستند إليها في مناقشة الفرضية تتمثل بالشواهد والنصوص التاريخية التي سبقت الإشارة إليها والتي تفيد بأنّ أهل مكة ليس فقط لم يؤمنوا بعد

---

١. المصدر نفسه.

٢. الحموي، **معجم البلدان**: ٤/ ٩؛ السمعاني، **الأنساب**: ١/ ٥٠٨.

الفتح فحسب، بل إنهم بادروا إلى محاولات أثبتت عداءهم الصريح لرسول الله ﷺ.[١]

ولئن دخلوا في الإسلام بعد ذلك فقد كان دخولهم بدافع مصالحهم، لقد كان في الواقع استسلاماً وليس إسلاماً قلبياً. كذلك فإنّ هؤلاء الذين يُزعم أنهم أسلموا، ما كانوا ليفوتوا أية فرصة تسنح لهم لإيذاء رسول الله ﷺ.

لذا فمن غير المستبعد أن تكون الآيات الافتتاحية لسورة التوبة (براءة) ـ وهي الموجهة للكفار والمشركين ـ قد نزلت بعد الفتح؛ وعلى هذا الفرض لابد من الإجابة على السؤالين التاليين:

١ ـ إذا كانت الآيات الافتتاحية لسورة براءة (التوبة) نزلت بعد الفتح، فلِمَ لم يشر إلى ذلك أي مصدر من مصادر التفسير والحديث؟

٢ ـ لماذا لا توفر لنا النصوص التاريخية شواهد على شرك أهل مكة وكفرهم بعد فتح مكة وتصرح بنزولها بعد الفتح؟

أما معطياتنا المتغيرة في مناقشة هذه الفرضية، فهي الآيات الافتتاحية نفسها في سورة التوبة المفعمة بالتهديد والعتاب والخطاب الموجه للمشركين؛ وهي الآيات التي تدعو المسلمين تارة إلى مقاتلة المشركين كافة وتحثهم تارة على الجهاد ضد ﴿أَئِـمَّةَ الْكُفْرِ﴾؛ وهي التي تنهى المسلمين عن أن يتركوا مسؤولية أستار الكعبة والسقاية وعمارة المسجد الحرام بيد المشركين، وتدعوهم إلى نقض معاهداتهم التي عقدوها معهم، وتعبر عن براءة الله من المشركين.

---

١. من تلك المحاولات الغادرة، مؤامرتهم التي أدت إلى وقوع معركة حنين؛ وقعت غزوة حنين بعد فتح مكة وكان لأهل مكة الدور الرئيس في إشعال نارها.

ويواجه هذا الفرض سؤالاً يتطلب جواباً حاسماً وهو أنه:

إذا كانت تلك الآيات نزلت بعد فتح مكة، فلماذا لا يذكر لنا التاريخ معركة واحدة وقعت بين المسلمين وأهل مكة بعد فتحها، رغم تأكيد الآيات على وجوب محاربة المشركين؟

دور أهل مكة في مؤامرة معركة حنين:

وقعت معركة حنين بعد فتح مكة في العام الثامن الهجري،[١] حيث أعدت قبيلة هوازن ـ بتحريض من أهل مكة ومنافقي المدينة ـ جيشاً لمحاربة الجيش الإسلامي، فقابلهم رسول الله ﷺ في وادي حنين. وكان ألفا مقاتل من جيش المسلمين، الذي كان قوامه اثني عشر ألفاً من أهل مكة.[٢] وعند ما حصل الاشتباك، هرب أهل مكة ومنافقو المدينة من ساحة القتال، تنفيذاً لمؤامرة مسبقة. ولما رأى المسلمون ذلك، انفرط عقد انسجامهم فهرب كل واحد منهم إلى جهة، ولم يثبت منهم إلا النبيّ الأكرم ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام والعباس عمّ النبيّ ﷺ وعدد من الرجال. ويذكر القرآن هروب من هربوا بقوله:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَة وَيَوْمَ حُنَيْن إِذ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾.[٣]

ثم اختص الله المؤمنين بالسكينة:

---

١. ابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ٨٠.

٢. ابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ٨٣.

٣. التوبة (٩): ٢٥.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعلى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذلِكَ جَزاءُ الكافِرِينَ﴾.[١]

إنّ اختصاص النبيّ ﷺ والمؤمنين بالسكينة من قبل الله، يدل على وجود منافقين في جيش النبيّ ﷺ.

من المؤكد أنّ معركة حنين كانت فرصة للكثير من الأشخاص لأن يميطوا اللثام عن كفرهم ونفاقهم. ويشير ابن هشام إلى هذه الحقيقة إذ يقول:

«فلما انهزم الناس ورأى من كان مع رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلّم من جفاة أهل مكة الهزيمة، تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن».[٢]

جدير بالتذكير أنّ ألفي رجل من جيش النبيّ الأكرم ﷺ كانوا من أهل مكة الذين يعتبرهم أهل السنة صحابة لا يجوز الطعن بهم، أما الباقون فكانوا من أهل المدينة وهم أسبق صحبة لرسول الله ﷺ من أهل مكة.

كان بعض الأشخاص يمرون من أمام النبيّ الأكرم ﷺ ولا يلتفتون إليه أبداً، حتى كلّف النبيّ ﷺ عمّه العباس بأن يجمع الناس ويدعوهم إلى مواصلة القتال، فعاد بعض المسلمين للقتال تدريجياً فأنزل الله نصره عليهم وانتهت المعركة لصالحهم.

ولعل من أكثر ما يلفت النظر هنا الخطاب الذي وجهه العباس عمّ النبيّ ﷺ؛ يقول الإمام علي الهادي عليه السلام في زيارة أمير المؤمنين عليه السلام في يوم الغدير:

«ويوم حنين على ما نطق به التنزيل: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ

---

١. التوبة (٩): ٢٦.

٢. ابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ٨٦.

عَنكُمْ شَياً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثمُ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثمُ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَىَ رَسُولِهِ وَعَلَىَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والمؤمنون أنت [يا علي] ومن يليك، وعمك العباس ينادي المنهزمين، يا أصحاب سورة البقرة، يا أهل بيعة الشجرة، حتى استجاب له قوم قد كفيتهم المؤنة، وتكفلت دونهم المعونة، فعادوا آيسين من المثوبة، راجين وعد الله تعالى بالتوبة، وذلك قول الله جل ذكره: «ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء» وأنت [يا علي] حائز درجة الصبر، فائز بعظيم الاجر».

في قول العباس مخاطباً الناس «يا أصحاب سورة البقرة» نقطة مهمة، وهي: أنّ سورة البقرة أطول سور القرآن وعدد آياتها ٢٨٦ آية، وليس من السهل حفظها، وكان حفظها في ذلك الوقت دليل قوة الإيمان؛ لذا لم يكن المنافقون يطيقون حفظها أبداً، كل ما كان يهمهم من القرآن أن يحفظوا بعضاً منه لكي يُعَدّوا من حملته دون أن يتجشموا كبير عناء؛ لذا كانوا يحفظون قصار السور فحسب.

ويدل خطاب العباس على أنّ النفاق كان مستشرياً بين المسلمين، ويتبين منه أنّ المسلمين كانوا على علم بوجود المنافقين بينهم، لأنّ من عادوا أثبتوا إيمانهم، أما من فروا فقد صرّحوا بنفاقهم. فالعباس يدعو المسلمين إلى عدم الانخداع بالمنافقين وأن لا ينسوا أنّ الله وفقهم لحفظ سورة البقرة وأنّ عليهم أن يعودوا لنصرة نبيهم.

واللافت للنظر أنّ هناك أشخاصاً تمنوا طول عمرهم أن يحفظوا سورة البقرة ولكنهم لم يوفقوا إلى ذلك.[١]

---

١. الاميني، الغدير: ٦/ ١٩٧.

القسم الثاني: مظاهر النفاق في فتح مكة

إنّ سورة براءة (التوبة) هي السورة الوحيدة في القرآن التي لا تبدأ بالبسملة وتنبئ نبرة آياتها عن العذاب الإلهي. هذه السورة تصور قسمين من معارضي الدين: فآياتها الافتتاحية تتحدث عن المشركين وأهل مكة، فيما تتناول آياتها الختامية المنافقين وأهل المدينة.

وتكتسب السورة أهمية خاصة من حيث نزولها في أواخر حياة النبيّ الأكرمﷺ وفي فترة حساسة من تاريخ صدر الإسلام، وهي الفترة الممتدة بين فتح مكة وغزوة تبوك. وخلافاً لما يُتصور، فإنّ المجتمع الإسلامي في أواخر حياة النبيّﷺ لم يكن غير نقي من الشرك والنفاق فحسب، بل إنّ نبرة التهديد الفاضحة لمؤامرات المنافقين في آيات سورة التوبة تكشف أن النفاق أسفر عن وجهه في أواخر سنوات النبيّﷺ، وتغلغل في مفاصل المجتمع أكثر من قبل.

هذه الحقيقة يمكن استشفافها من تعدد أسماء السورة؛ فالأسماء التي أُطلقت على سورة براءة تبين أنّ المجتمع الإسلامي كان يتجه نحو الانسياق وراء تيار النفاق، وكانت الحالة من الجدية والخطورة بحيث نزلت سورة من القرآن تفضح المنافقين وتكشف مؤامراتهم.

حتى أنّ ابن إسحاق يرى أنّ السورة كان اسمها في حياة النبيّ الأكرمﷺ «المعبرة» لأنها فضحت المنافقين.[١]

وفي رواية أخرى: إنّ سورة براءة أظهرت كل ما كان يضمره المشركون؛ لذا سميت «المنقرة» يعني: الباحثة.[٢]

ويقر عبدالله بن عمر ـ في رده على سؤال سائل له عن سورة براءة ـ بأنّ السورة أحدثت عند نزولها اضطراباً شديداً بين الناس حتى لم يكونوا يسمونها إلا «المقشقشة».[٣]

ويورد تفسير الكشاف أسماء أخرى للسورة؛ منها: «المبعثرة» [المطلعة]، و«المثيرة»، و«الحافرة»، و«المخزية»، و«الفاضحة»، و«المنكلة»، ويصرح بأنها سميت بتلك الأسماء لأنها تحدثت عن النفاق وفضحت المنافقين وكشفت عن أسرارهم.[٤]

وما أكثر ما أنبأ الله فيها الناس عن المنافقين، ففي حديث عن حذيفة يُصحح المستدرك أسانيدَه[٥]، أنه قال:

> «ما تقرءون ربعها ـ يعني: براءة ـ وانكم تسمونها سورة التوبة وهي سورة العذاب».[٦]

---

١. السيوطي، **الدر المنثور**: ٤/ ١٢١.

٢. المصدر نفسه.

٣. المصدر نفسه.

٤. الزمخشري، **الكشّاف**: ٢/ ٢٤١.

٥. هناك مصادر أخرى نقلت المضمون نفسه بألفاظ مختلفة: الهيثمي، **مجمع الزوائد**: ٧/ ٢٨؛ السيوطي، **الدر المنثور**: ٤/ ١٢٠؛ ابن أبي شيبة، **المصنف**: ٧/ ١٧٨.

٦. الحاكم النيسابوري، **المستدرك**: ٢/ ٣٦١.

يصرح الحديث بأنّ سورة التوبة المتداولة بين الناس لا تمثل إلا ربعها، ويقول: أنتم تسمونها التوبة وهي سورة العذاب.

ويسميها عمر أيضاً سورة العذاب، يقول:

«هي إلى العذاب أقرب ما أقلعت عن الناس حتى ما كادت تدع منهم أحداً».[1]

إنّ هذا الاعتراف من عمر جدير بالتأمل؛ يتبين من كلامه أنه بنزول آيات سورة براءة انكشف النقاب عن وجوه الكثير من المنافقين.

وفي حديث آخر عن عكرمة: قال عمر:

«ما فرغ من تنزيل براءة حتى ظننا أنه لم يبق منا أحد إلا سينزل فيه، وكانت تسمى الفاضحة».[2]

ونقرأ كذلك في حديث آخر، عن سعيد بن جبير:

«قال: قلت لابن عباس: سورة التوبة! قال: التوبة هي الفاضحة! ما زالت تنزل، ومنهم ومنهم، حتى ظنوا أنها لن تبقي أحداً منهم إلا ذكر فيها».[3]

إنّ تعبير «ومنهم» في هذا الحديث يعني أنّ آيات كانت تنزل مترادفة في فضح أحوال المنافقين وأقوالهم، وفي كل مرة كانت تنكشف للناس مجموعة جديدة منهم.

---

١. السيوطي، **الدر المنثور**: ٤/ ١٢١.

٢. المصدر نفسه.

٣. البخاري، **الصحيح**: ٦/ ١٤٧؛ مسلم، **الصحيح**: ٤/ ٢٣٢٣؛ ابن حجر، **فتح الباري**: ٨/ ٦٢٩؛ السيوطي، **الإتقان**: ١/ ١٩٢.

وشكل ذلك هاجساً وقلقاً لدى الكثير من الناس، الأمر الذي كشف عن انتشار النفاق في أوساطهم.

هذه المجموعة من الروايات تبين أنه بالرغم من انتشار النفاق وتجذره في المجتمع، إلا أنه بنزول هذه الآيات وانكشاف وجه النفاق ـ وربما تعيين المنافقين بأسمائهم ـ، تمت الحجة على جميع الناس ولم يبق عذر لمعتذر بالتنصل عن العهد الذي أخذه النبيّ الأكرم ﷺ على أفراد المسلمين بحق خلافة أمير المؤمنين عليه السلام له.

الامتناع عن القتال

بعد الآيات الشديدة التي افتتحت بها سورة التوبة، يحذّر الله المسلمين في الآيات التالية من أنه إذا تغلب عليهم المشركون فإنهم لن يرعوا فيهم حرمة لقرابة ولن يلتزموا حيالهم بعهد؛ يقول تعالى:

﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ وَتَأْبى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ﴾.[١]

«كيف تُحترم عهود المشركين وهم إذا تمكنوا منكم لم يرعوا حرمة لقرابة ولا عهد».

من تأكيد الباري عزّ وجلّ على أنهم ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ وَتَأْبى قُلُوبُهُمْ﴾ يتضح أنّ الحالة النفسية للمجتمع كانت تتعرض، قبل المعركة، لضغوط المنافقين وإيحاءاتهم في جبهة المسلمين، وكذلك للإعلام المشرك في الجبهة المقابلة.

---

١. التوبة (٩): ٨.

كما يمكن استنتاج ما يلي من هذه الآية:

الأول: إذا كان رسول الله ﷺ سيلغي معاهدته مع المشركين تنفيذاً لأوامر الآية فذلك يعني أنّ المشركين كانوا قد عزموا مسبقاً على التنصل عن تعهداتهم للمسلمين.

الثاني: يتبين أنّ بعض الأشخاص عارضوا موقف النبيّ الأكرم ﷺ، متذرعين بذريعة القرابة مع مشركي مكة، ودغدغوا بذلك مشاعر المجتمع، ونجحوا في استمالة بعض المسلمين وضمهم إلى الرافضين للقتال بهذه الحجة؛ لقد انتقدوا قرار النبيّ الأكرم ﷺ محاربة المشركين وكانوا يقولون: ما الداعي لمحاربة أهل مكة وهم أهلنا وبيننا وبينهم معاهدة صلح؟

إنّ الآية ترد على هؤلاء المعترضين وتصرح بأنّ المشركين لن يحترموا تعهداتهم، وأنّ قلوبهم تضمر خلاف ما يجري على ألسنتهم من تمسك بالمعاهدة.

ويتبين من مجموع الآيات أنّ بعض أفراد المجتمعات كانوا ينبزون النبيّ الأكرم ﷺ نفسه، ويقولون: أنت أيضاً تنصلت عن عهودك وقطعت الرحم والقرابة.

والآية السابقة تشير إلى هذا الموقف الذي اتخذه بعضهم من النبيّ ﷺ؛ لذا يدافع الله تعالى عن النبيّ ﷺ ويصرح:

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلاّ الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فَما اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.[١]

---

١. التوبة (٩): ٧.

لقد بلغ الإعلام المنافق القائم على القرابة مع المشركين من الاتساع، بحيث أنّ آيتين متتاليتين خصصتا للرد على هذه الفكرة؛ بعد الآية الثامنة من السورة يوبخ الله المشركين بقوله:

﴿اشْتَرَوْا بِآياتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾.[١]

«باعوا آيات الله بثمن بخس ومنعوا الناس من الاهتداء بهديه».

ثم بعد آية واحدة، يعود الخطاب للمسلمين ليحذرهم من أنّ المشركين:

﴿لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾.[٢]

ثم يبين الله تعالى في آية واحدة ما يجب على المسلمين فعله، فيحدد الإيمان مقياساً للالتزام بالعهود واحترام القرابة:

﴿فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.[٣]

فالتوبة، إذن، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة هي مقاييس القرابة وموجبات التزام المواثيق، وإنّ قرابة الدم وحدها ليست سبباً كافياً للكف عن القتال.

---

١. التوبة (٩): ٩.

٢. التوبة (٩): ١٠.

٣. التوبة (٩): ١١.

الخوف من المشركين

يعتبر الخوف من المشركين، في المنطق القرآني، من علامات النفاق؛ تقول الآية الشريفة:

﴿أَلاَ تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّة أَتَخْشَوْنَهُمْ فَالله أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.[1]

من تخصيص الباري عزّ وجلّ آية يلوم فيها المسلمين، يتبين أنّ عدداً كبيراً منهم امتنع عن قتال المشركين خوفاً منهم. واللافت للنظر هنا أنّ الله اعتبر الخوف من المشركين من علامات عدم الإيمان، إذ يقول: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَالله أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾، ثم يقول مباشرة: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ معنى هذا: إن كنتم تخشون المشركين أكثر من خشيتكم الله فلستم بمؤمنين.

الملاحظة الأخرى أنّ الله يقول في الآية السابقة لهذه الآية:

﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾.[2]

«... فقاتلوا قادة الكفر عسى أن يكفوا عن شرورهم وفتنهم».

إذن، لا ينبغي حصر أئمة الكفر بالمشركين، بل اعتبار من لامهم الله في الآية ١٣ من سورة التوبة، منهم.

---

١. التوبة (٩): ١٣.

٢. التوبة (٩): ١٢.

الصداقة الخفية مع المشركين

يقول الله في الآية ١٤ من سورة التوبة:

﴿قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾.[1]

فالآية تتحدث عن إشفاء صدور جماعة مؤمنة، وتقول الآية التي تليها:

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ...﴾.[2]

وهذه الإشارة وإشارة الآية السابقة لإشفاء صدور قومٍ مؤمنين تدلان دلالة لطيفة على أنّ الغيظ تجاه المشركين لم يكن مستقراً في قلوب جميع أفراد المجتمع الإسلامي، بل إنّ بعض أفراد هذا المجتمع كان على علاقة سرية مع المشركين، وواضح أنّ هذه الفئة لم تكن تجد مصلحة لها في قتالهم؛ ويشير الله إلى هذه العلاقة السرية ويقول:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾.[3]

«هل ظننتم أن تُتركوا دون تمحيص ودون أن يبين الله الذين جاهدوا منكم ولم يوالوا إلا الله ورسوله والمؤمنين؟».

«الوليجة» هو صاحب السر والمؤتمن في الدين والدنيا، وأنّ كون بعض الأشخاص

---

١. التوبة (٩): ١٤.

٢. التوبة (٩): ١٥.

٣. التوبة (٩): ١٦.

يجعلون وليجتهم غير الله ورسوله والمؤمنين، دليل على تفشي تيار النفاق في المجتمع.

ويدل قول الله في نهاية الآية: ﴿وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على أنّ هؤلاء الأشخاص كان بمقدورهم أن يحققوا غاياتهم في ظل العهود التي كان يتمتع بها المشركون إزاء المسلمين وأن يواصلوا علاقاتهم السرية مع المشركين، غافلين عن أنّ الله سيخلق ظروفاً تضطرهم إلى إعلان نفاقهم الباطني.

الفصل الثاني:

الظروف والحوادث التي سبقت معركة تبوك

- حالة المدينة قبيل المعركة
- إجراءات المنافقين في المدينة
- فشل مؤامرة المنافقين في المدينة

القسم الأول: حالة المدينة قبيل المعركة

دوافع النبيّ الأكرمﷺ لتجهيز الجيش رغم عدم ملاءمة الظروف

لعل سؤالاً يطرح: لماذا قام النبيّ الأكرمﷺ بتجهيز الجيش، رغم علمه بوجود المنافقين ومعرفته بهم وبمؤامراتهم؟

يروي البيهقي عن الحاكم: أنّ اليهود جاؤوا إلى النبيّﷺ ليشجعوه على الهجوم على الشام، وقالوا: إذا كنت رسولاً من الله ـ كما تزعم ـ فافتح الشام، فهي أرض أنبياء الله التي وعدهم الله بها. فانطلق النبيّﷺ لفتح الشام ـ استجابة لتحريض اليهود ـ، فنزلت: ﴿وَإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاّ قَلِيلاً﴾[١] في تبوك، وأمر الله النبيّﷺ بالعودة إلى المدينة.[٢]

ولكن ابن كثير يرد هذا الرأي بحق، ويقول:

> «قيل: نزلت في اليهود إذ أشاروا على رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم بسكنى الشام بلاد الأنبياء وترك سكنى المدينة، وهذا القول ضعيف، لأنّ هذه الآية مكية وسكنى المدينة بعد ذلك.
>
> وقيل: إنها نزلت بتبوك، وفي صحته نظر. روى البيهقي، عن

---

١. الإسراء (١٧): ٧٦.

٢. البيهقي، دلائل النبوة: ٥/ ٢٥٤.

الحاكم، عن الأصم، عن أحمد بن عبدالجبار العطاردي... وفي هذا الإسناد نظر. والأظهر أنّ هذا ليس بصحيح، فإنّ النبيّ لم يغز تبوك عن قول اليهود، وإنما غزاها امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ...﴾[1]، ولقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[2]، وغزاها ليقتص وينتقم ممن قتل أهل مؤتة من أصحابه، والله أعلم».[3]

من التدبر في مجموع آيات سورة التوبة يتبين بوضوح أنّ هجوم النبيّ الأكرمﷺ لم يكن إلا امتثالاً لأوامر إلهية.

ولا ينبغي أن ننسى أنّ النبيّﷺ كان يبني إجراءاته على الظروف الظاهرية، ولا يُدخل علمه بالغيب في قراراته، خاصة تلك المتعلقة بإدارة شؤون المجتمع؛ لذا تصرف بناءاً على الأخبار المقلقة التي وصلت إلى المدينة والتي لم تسمح الظروف بالإبطاء حيالها.

لقد كان المتآمرون يبثون الإشاعات بين القوافل التجارية والقبائل المنتشرة على الطرق، بحيث كانت أخبار الروم تصل المدينة بشكل متواتر، وهذا ما جعل من الضروري التهيؤ واتخاذ التدابير الاحترازية.

---

١. التوبة (٩): ١٢٣.

٢. التوبة (٩): ٢٩

٣. ابن كثير، **التفسير**: ٤/ ٣٣٢.

ذرائع المنافقين للفرار من القتال

اتضح مما تقدم ومن الآيات القرآنية المرتبطة، أنّ شؤون العتبات المقدسة في مكة، كانت قبل الفتح بيد المشركين؛ يقول تعالى:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الحاجِّ وَعِمارَةَ المَسْجِدِ الحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ وَجاهَدَ فِي سَبِيلِ الله لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ الله وَاللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظّالِمِينَ﴾.[١]

«هل ساويتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بعمل من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله؟».

واضح أنه عند نزول هذه الآية كان البعض يعتبر إدارة شؤون المسجد الحرام صنواً للإيمان؛ لكنّ الله يصرح بأنهما لا يستويان لكي يسد الطريق على المتذرعين بإدارة شؤون المسجد الحرام للقعود عن القتال.

فقد كان المنافقون يثيرون بين المسلمين تساؤلاً عن شرعية محاربة من يتصدى لإدارة مثل هذه الأمور الهامة، فيردّ القرآن على هذه الشبهة بقوله:

﴿ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ الله شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالكُفْرِ أُولـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ وَفِي النّارِ هُمْ خالِدُونَ * إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ الله مَنْ آمَنَ بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتى الزَّكاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاّ اللهَ فَعَسى أُولـئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ المُهْتَدِينَ﴾.[٢]

---

١. التوبة (٩): ١٩.

٢. التوبة (٩): ١٧ ـ ١٨.

في هذه الآيات يحصر الله جدارة إدارة شؤون المسجد الحرام بالمؤمنين وحدهم، ثم يشترط للتصدي لشؤون العتبات المقدسة إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والخشية من الله؛ وبهذا ينبّه المنافقين إلى أنّ المشركين لا يمكنهم الإعراض عن الإيمان بالله وبرسوله، بحجة التصدي لأمور المسجد الحرام، لأنّ الاهتمام بشؤون الأماكن المقدسة لا يمكن أن يحل محل الإيمان بحالٍ من الأحوال.

تكشف الآيات عن أنّ المنافقين كانوا يتشبثون بأية ذريعة للتهرب من القتال، وكانت هذه الحالة تنتشر بين أفراد المجتمع كالمرض المعدي، بحيث أنّ الله يوجه خطاب الآية إلى جميع المسلمين، ومن أجل أن يسد طريق التنصل من المشاركة في القتال يعود فيقول:

﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَإِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الكُفْرَ عَلَى الإِيمانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ﴾.[١]

ثم يقول:

﴿قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الفاسِقِينَ﴾.[٢]

---

١. التوبة (٩): ٢٣.

٢. التوبة (٩): ٢٤.

«قل يا محمّد، إن كنتم تفضلون على الله آباءكم وأبناءكم وإخوتكم وأزواجكم وعشائركم وأموالكم التي حصلتم عليها وتخافون أن تخسروها وتفضلونهم على رسوله والجهاد في سبيله فانتظروا حلول العذاب بكم، والله لا يهدي القوم الفاسقين».

إذن، لا الوالد ولا الابن ولا الزوجة ولا العشيرة ولا الأقرباء، من وجهة نظر القرآن، يحظون بشأن عند الله ما لم يؤمنوا.

إنّ صريح القرآن يفيد بأنه لو أنّ المسلمين اتخذوا الكافرين والمشركين أولياء فسيكونون ظالمين، فكيف إذا امتنع بعضهم عن الجهاد بحجة علاقات المودة التي تربطهم بهم؟ هذه الآيات تعكس وخامة الوضع في المجتمع الإسلامي قبل فتح مكة، حيث كان المسلمون والمحيطون برسول الله ﷺ يتشبثون بأوهى الذرائع من أجل عدم المشاركة في الجهاد.

إنّ تخصيص الآيات الثماني والعشرين الافتتاحية من سورة التوبة لترغيب المسلمين وترهيبهم وتشجيعهم وتهديدهم، دليل على تفشي ظاهرة البحث عن مبرر [للقعود عن الجهاد].

وما يستفاد من سورة الفتح هو أنّ الدخول في حرب على أهل مكة كان يصعب على بعض الأشخاص، فكانوا يفتشون عن ذرائع للتنصل من المشاركة فيها.[1]

---

١. ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَأَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ (الفتح (٤٨): ١١)؛ ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا كَذلِكُمْ قالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاّ قَلِيلاً﴾ (الفتح (٤٨): ١٥)؛ و... .

بل إنّ تغلغل النفاق بين شرائح المجتمع بلغ من القوة، بحيث أنّ هؤلاء الأشخاص لم يكونوا يكتفون بإيجاد الأعذار لتخلفهم عن الجهاد، بل كانوا يبثون نمطاً من التفكير بين أفراد المجتمع قائماً على التساؤل عن مشروعية مقاتلة الأقرباء من أجل الدين! وبلغت بهم الوقاحة حداً سمح لهم بالاعتراض على رسول الله ﷺ بالقول: إنّ النبيّ ﷺ لا يريد دعوة أهل مكة إلى الإسلام بالطرق السلمية، بل يختار القتال وسفك الدماء ويسعى إلى تقطيع الأرحام.

وكانت جميع تلك الذرائع والشبهات تنتشر في المجتمع بواسطة تيار معين غايته إضعاف الروح المعنوية لدى المسلمين. غير أنّ الله تعالى أدخل الرعب في قلوب أهل مكة فتم الفتح بلا قتال ولا سفك دماء ولا قطع أرحام، وأفشل مخططات المنافقين مرة أخرى، فكان الفتح فرصة لكشف النقاب عن المنافقين وتمييزهم من المؤمنين.

كره الناس للمشاركة في الجهاد

في شهر رجب من العام التاسع للهجرة انطلق رسول الله إلى غزوة تبوك،[١] وعاد إلى المدينة في شهر رمضان من السنة نفسها.[٢] ويروى أنّ أوامر تجهيز الجيش صدرت في موسم كان الناس فيه في فقر وعوز، وكان الجو في المدينة شديد الحرارة والفواكه قد نضجت في الأشجار، وكان الناس يمنون النفس بالاستراحة في مزارع الفاكهة وتحت ظلال الأشجار.[٣]

---

١. ابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ١٥٩.

٢. ابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ١٨٢.

٣. ابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ١٥٩؛ السيوطي، الدر المنثور: ٤/ ٢١٣ ـ ٢١٤.

يقول ابن اسحاق:

«فتجهز الناس على ما في أنفسهم من الكره لذلك الوجه لما فيه، مع ما عظموا من ذكر الروم وغزوهم».[١]

ويقول البيهقي أيضاً: إنّ تجهيز الجيش تم في الخريف ومع اشتداد الحر في المدينة، ويقول: «تخاذل الكثير عن مرافقة النبيّ». يتبين أنّ الكثير من أهل المدينة ـ بما فيهم المؤمنون والمنافقون ـ كانوا مترددين في الاستجابة لأوامر رسول الله ﷺ بتجهيز الجيش.

إنّ الظروف التي واجهها النبيّ الأكرم ﷺ في أواخر حياته في المدينة تشبه إلى حد بعيد الظروف التي واجهها أميرالمؤمنين عليه السلام في الكوفة. ففي خطبته، يلوم أميرالمؤمنين الناس على التهرب من مواجهة معاوية، وهو ما يؤكد أنّ النبيّ وأميرالمؤمنين عليهما السلام كليهما واجه أوضاعاً متشابهة حيال أهل زمانيهما. يقول عليه السلام في جانب من الخطبة:

«ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسراً وإعلاناً، وقلت لكم اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا، فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنت الغارات عليكم وملكت عليكم الأوطان...

...فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر قلتم هذه حمارة القيظ أمهلنا يسبخ عنا الحر وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم هذه صبارة القر أمهلنا ينسلخ عنا البرد، كل هذا فراراً من الحر والقر، فإذا كنتم من الحر والقر تفرون فإذا أنتم والله من السيف أفر...».[٢]

---

١. الطبري، التاريخ: ٢/ ٣٦٧.

٢. نهج البلاغة: الخطبة ٢٧.

لقد بلغ تخاذل الناس عن تجهيز الجيش من الانتشار حداً جعل الله عزّ وجلّ يعاتب المؤمنين بقوله:

﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثّـاقَلْتُمْ إِلى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الآخِرَةِ فَما مَتاعُ الحَياةِ الدُّنْيا فِي الآخِرَةِ إِلاّ قَلِيلٌ﴾.[1]

يعاتب الله المؤمنين في هذه الآية بسؤالهم: ما لكم كلما أُمرتم بالانطلاق السريع في سبيل الله تشبثتم بالأرض متثاقلين؟

«النفر» هو الحركة السريعة، لذا سميت الحركة من المشعر إلى منى والحركة من عرفات إلى المشعر بالنفر. وتعبير ﴿اثّـاقَلْتُمْ إِلى الأَرْضِ﴾ كناية عن أنّ المؤمنين كانوا شديدي التخاذل بالنسبة للأمر الإلهي حتى كأنهم كانوا متسمّرين في الأرض.

ثم يقول: ﴿أَرَضِيتُمْ بِالحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الآخِرَةِ﴾؟ والدنيا ليست اسماً للأرض أو التراب، بل هي مؤنث «أدنى» اتخذت صفة للحياة، لأنّ الحياة مؤنثة وتعني «الحياة الأوضع»؛ وقد نعت الله الحياة الدنيا بهذا النعت لأنه بالمنطق القرآني ﴿فَما مَتاعُ الحَياةِ الدُّنْيا فِي الآخِرَةِ إِلاّ قَلِيلٌ﴾.

بعد هذه الآية يهدد الله المؤمنين بقوله:

﴿إِلاّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُم وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾.[2]

---

١. التوبة (٩): ٣٨.

٢. التوبة (٩): ٣٩

«إن لم تنطلقوا فوراً للجهاد في سبيل الله سيحل عليكم منه عذاب أليم وسيبدلكم بقوم آخرين».

ثم يقول الله تعالى للمؤمنين: إنكم ﴿**لا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيء قَدِيرٌ**﴾. ويتضح من التهديد بالعذاب أنّ الكثير من المؤمنين كانوا متأثرين بالأجواء السائدة التي جعلتهم يتخاذلون عن امتثال أوامر رسول الله ﷺ؛ وإذا كان هذا حال المؤمنين من التهديد بالعذاب فلا حاجة لشرح أحوال المنافقين المؤسفة.

ثم يؤكد الله للمؤمنين نصره لنبيه ﷺ فيذكّرهم بحادثة من حوادث السنوات الأولى من الهجرة، حادثة تذكّر بالأيام الصعبة التي مرت بها الدعوة الإسلامية في مكة:

﴿**إِلاّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذ هُما فِي الغارِ إِذ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُود لَمْ تَرَوْها وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[1].

---

١. التوبة (٩): ٤٠؛ يضرب الله تعالى مثلاً عن قدرته ويبين أنه: عند ما أخرج المشركون النبي الأكرم ﷺ من مكة كان وحيداً فنصره الله. فإن سأل أحدهم: متى نصر الله نبيه؟ جاءه الجواب من الله: ﴿**إِذ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾. ثم يقول ﴿**ثانِيَ اثْنَيْنِ**﴾ وهذا يعني أنه كان معه رجل آخر وكان ﷺ هو الثاني. ثم يقول: ﴿**...إِذ هُما فِي الغارِ...**﴾ أي: أنّ الرجلين الذين فرّا ولجآ إلى الغار لم يكونا قادرَين على الدفاع عن نفسيهما وأنّ الأمور كانت تجري خلاف مصلحتهما. ﴿**...إِذ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ...**﴾ والضمير في «يقول» يعود للنبيّ ﷺ نفسه كما يعود الضمير (هاء) في «أخرجه» إليه ﷺ؛ إذن فالنبيّ ﷺ كان الشخص الثاني من شخصين وكان رفيق سفره «حزيناً». والإنسان عادة يقال: يخاف على المستقبل ولا يحزن، وهذا يعني أنّ الرجل لم يكن قلقاً على مستقبله، بل كان حزيناً على ماضيه ـ أي: أنه كان حزيناً على ما تركه في مكة مما كان يملك ـ، إذ يقول تعالى: ﴿**لا تَحْزَنْ**﴾ ولم يقل: «لا تخف»، وبهذا يظهر بطلان قول أهل السنة بـ: أنّ أبابكر

حين أخرجه الكفار من بلدته ولاحقوه ليقتلوه وهو ثاني اثنين في الكهف فيقول لصاحبه: لا تحزن إنّ الله معنا فأنزل الله سكينته على نبيه وعزّزه بجنود لم تروها. إنّ الله ينبّه المؤمنين إلى أنه كما نصر نبيه في تلك المحنة وكان عديم الناصر، فإنه قادر على نصره في هذا الموقف أيضاً إن لم يهبّوا هم لنصرته.

هذا يعني أنّ المسلمين كانوا حينئذٍ في حالة يمكن معها القول لهم: إنكم لا تنصرون نبيكم أبداً.

تبعية أهل المدينة لسادتهم

كان الالتزام بالقبيلة واتباع الزعماء والأشراف من المواريث الجاهلية التي تسربت إلى الإسلام، ولقد سعى النبيّ الأكرمﷺ لأن يجعل الإيمان والتقوى بديلاً للانقياد القبلي الأعمى، ولكن العصبية القبلية أعمت العرب وأعجزتهم عن التخلص من هذه الصفات الجاهلية الذميمة، حتى أنّ تلك الصفة كانت آفة دينهم ودنياهم.

لقد أسلم الكثير من المسلمين بتأثير سادتهم وأشرافهم، ولكنّ المؤسف أنّ الكثير من أولئك السادة والأشراف الذين اقتدى بهم الناس كانوا منافقين أو على صلات وثيقة بالمنافقين.

وهناك مواقف كثيرة وقف فيها هؤلاء الزعماء إلى جانب المنافقين وفي خدمة أهدافهم فأدوا بالمجتمع ـ نتيجة ذلك ـ إلى الانحراف عن مسار الحق. ولعل تسليط

كان حزيناً من أجل النبيّﷺ وعلى مستقبل رسالته. فأبوبكر كان حزيناً لخروجه من مكة لأنه كان يحب أن يبقى في مكة دائماً رغم أنها كانت بلاد الشرك. وفي قوله تعالى ﴿فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ يعود الضمير في «عليه» على النبيّ الأكرمﷺ.

الضوء على هذه الشريحة يعطينا صورة للوضع الذي كان يعيشه النبيّ الأكرمﷺ والمجتمع في صدر الإسلام.

في معركة تبوك، جاء جماعة إلى رسول اللهﷺ واستأذنوه في عدم المشاركة في القتال.

يقول ابن إسحاق:

«وكان الذين استأذنوه من ذوي الشرف ـ فيما بلغني ـ، منهم: عبدالله بن أبي بن سلول، والجد بن قيس، وكانوا أشرافاً في قومهم، فثبطهم الله لعلمه بهم أن يخرجوا معه، فيفسدوا عليه جنده، وكان في جنده قوم أهل محبة لهم، وطاعة فيما يدعونهم إليه، لشرفهم فيهم. فقال تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ...﴾[1] [يعني: أنّ بين المسلمين من يتجسس لهم (للمنافقين)]...».[2]

حسب ما يقول ابن إسحاق، فإنّ زعماء من هذا القبيل كانوا ينشطون ضد النبيّ الأكرمﷺ على جبهتين:

فمن جهة، تمرد جماعة من المسلمين على أوامر النبيّﷺ متأثرين بعاداتهم الجاهلية واتباعهم لهؤلاء الزعماء، ولم يقاتلوا.

ومن جهة أخرى، كان لهؤلاء الزعماء جواسيس منبثون في جيش رسول اللهﷺ يزودونهم بالمعلومات. ولا شك أنّ هؤلاء الأفراد كانوا ينفذون أوامر سادتهم.

---

١. التوبة (٩): ٤٧.

٢. ابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ١٩٤.

وسوف نذكر بالتفصيل كيف أنهم أثبتوا تمسكهم بالمنافقين من خلال الأعمال المناقضة لأهداف المسلمين التي قاموا بها طول الطريق إلى تبوك.

القسم الثاني: نشاط المنافقين في المدينة

تحذير الناس من مناصرة النبيّ الأكرمﷺ

جنّد المنافقون كل طاقاتهم من أجل أن يخفضوا قدرات الجيش الإسلامي المتوجه إلى تبوك؛ لذا لم يألوا جهداً في عرقلة تجهيز الجيش. وكانت غايتهم إضعاف قوة المسلمين لكي يفقدوا القدرة على مواجهة الروم بأقصى سرعة إذا وقعت المعركة، فينتهي الأمر إما بقتل رسول اللهﷺ أو وقوعه في الأسر؛ من أجل هذا توسلوا بمختلف الطرق لإعاقة تجهيز جيش المسلمين، فتارة يعملون على تثبيط عزائمهم، وتارة يضعون العراقيل في طريق التجهيز، وثالثة يدخلون الرعب في نفوس المسلمين ليمنعوهم من مرافقة النبيّﷺ.

منع الناس من مرافقة النبيّ الأكرمﷺ

فضلاً عن الدعايات وبث الإشاعات، كان المنافقون يتسترون بالمآدب والجلسات لمنع الناس من الجهاد. فقد بلغ النبيّ الأكرمﷺ مرةً أنّ رجالاً يجتمعون في دار «سويلم اليهودي» ويمنعون الناس من الجهاد، فبعث رسول اللهﷺ طلحة بن عبيدالله مع جماعة من أصحابه ليحرق دار سويلم، ولكن حين تصاعدت ألسنة النار من الدار، هرب جماعة ممن كانوا فيها من جهتها الخلفية، وكان منهم رجل يسمى

«ضحاك بن خليفة» سقط في أثناء فراره وانكسرت رجله فلزم فراشه.[١]

على أنّ مثل تلك الأفعال لم تقتصر على معركة تبوك، بل إنّ المنافقين كان همّهم الوحيد أن يعرقلوا تحركات جيش المسلمين كلما عزم النبيّ الأكرمﷺ على المضي إلى قتال. ويشير القرآن إلى واحدة من تلك المواقف في معركة الأحزاب:

﴿لَـئِنْ لَمْ يَـنْتَهِ الْمُـنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَـنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِـيها إِلاّ قَلِـيلاً﴾.[٢]

الآية تتضمن تهديداً للمنافقين الذين كانوا يعملون في المدينة على بث الرعب في قلوب المسلمين، والله يهدد ثلاثة أصناف من هؤلاء: هم المنافقون والذين في قلوبهم مرض والذين يبثون الإشاعات في المدينة، بأنهم إن لم يكفوا عن مؤامراتهم، فإنه سيحرض رسوله عليهم، فلا تمضي فترة وجيزة حتى يكون قد قضي عليهم ولا يبقى في المدينة أحد منهم.

تخذيل الناس عن مواجهة العدو

استثماراً للتجربة المريرة التي مرّ بها المسلمون في معركة مؤتة، حاول المنافقون تحطيم الروح المعنوي للمسلمين بتلقينهم بأنهم لا قِبَلَ لهم بمواجهة جيش ضخم كجيش الروم، وأنه إذا تورط النبيّ الأكرمﷺ بالدخول في مثل هذه الحرب فلن ينجو منها. ففعل ذلك التلقين فعله حتى ورد في كتب التاريخ:

---

١. ابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ١٦٠.

٢. الأحزاب (٣٣): ٦٠

«فأبطأ عنه ناس كثير وقالوا: الروم ولا طاقة لنا بهم! فتخلّف المنافقون وحدّثوا أنفسهم أنّ رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلّم لا يرجع إليهم أبداً، فاعتلوا وثبطوا من أطاعه...».[1]

وهكذا أدى تخلف المنافقين عن جيش النبيّ الأكرمﷺ، من جانب، ونشرهم الإشاعات المثبطة، من جانب آخر، إلى تقاعس جماعة آخرين.

ولكن ما أغفله التاريخ هنا هو أنّ عدد المنافقين الذين تخلفوا عن جيش المسلمين كان كبيراً جداً، لأنه لم يكن بمقدور مجموعة صغيرة في مجتمع مغلق مثل مجتمع المدينة في صدر الإسلام أن ترفع راية المعارضة بوجه النبيّ الأكرمﷺ وتخالف أوامره!

إذن، إما أن يكون عددهم كبيراً لدرجة تمنحهم هوية مستقلة في مواجهة النبيّ الأكرمﷺ وذلك ما نسميه «تيار النفاق».

وإذا لم يكن عددهم كبيراً فلابد أنهم كانوا يتمتعون بنفوذ قوي بحيث يتأثر بموقفهم الكثير من الناس. فإذا لم يكن عدد المنافقين كبيراً فكيف استطاعوا أن يثبطوا عزائم الناس؟ وإذا كان عدد المخالفين صغيراً فإنهم يفضحون أنفسهم بمخالفتهم لرسول اللهﷺ.

يستنتج من التأثير الكبير الذي تركه تخلف المنافقين عن الجيش على معنويات الناس أنه إما أنهم كانوا يشغلون حيزاً واسعاً من الرقعة الاجتماعية أو أنه كان بينهم شخصيات ذات نفوذ عالٍ وكلمة مسموعة.

---

١. البيهقي، **دلائل النبوة**: ٥/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

وسنرى أنه في الأيام الأخيرة من حياة النبيّ الأكرمﷺ كان المنافقون يحوزون على الصفتين: الانتشار الواسع والنفوذ القوي الذي تتمتع به شخصيات بارزة.

إدخال الرعب في قلوب الناس

الطريقة الأخرى التي اتبعها المنافقون لمنع الناس من مواكبة رسول اللهﷺ إلى القتال تمثلت في نشر الرعب في صفوف المسلمين وخلق أجواء رعب حول المدينة. مثال ذلك ما حدث حينما كان رسول اللهﷺ متوجهاً إلى تبوك، حيث كان جماعة من المنافقين، ومنهم «وديعة بن ثابت» يشيرون إلى المسلمين بالقول: «أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً! والله لكأنّا بكم غداً مقرنين في الحبال»[١]. وبعد أن ينقل ابن إسحاق هذه القصة يقول: إنها لم تكن إلا «إرجافاً وترهيباً للمؤمنين»[٢]؛ والإرجاف: إفراغ ما تحت القدم، والترهيب: خلع الفؤاد من موضعه وايجاد الهلع فيه. من ثمّ كانت أحد وسائلهم في إضعاف جيش النبيّﷺ هو ايجاد الرعب والوحشة بين المسلمين.

التأليب وبث الإشاعات

طول فترة وجود النبيّ الأكرمﷺ في المدينة لم يترك المنافقون وسيلة إرهاب وتخويف إلا واستعملوها لتخذيل الناس عن مرافقة النبيّ الأكرمﷺ إلى القتال. وعند ما غادرﷺ المدينة إلى تبوك غيّر المنافقون أسلوبهم، فقد انتهجوا طريق التأليب وبث الإشاعات ليجعلوا المدينة أكثر تأثراً بمؤامراتهم.

---

١. ابن هشام، **السيرة النبوية**: ٤/ ١٦٨.

٢. المصدر نفسه.

كان المؤمنون قد خرجوا من المدينة ولم يبق فيها إلا العجزة والنساء والأطفال، لذا لم يكن هناك من يقف بوجه المنافقين، الأمر الذي جعلهم يكشفون الكثير من أسرارهم وكانوا يسارعون إلى نشر أي خبر سيء يصل إلى المدينة.[١]

ويميط القرآن الستار عن حقيقة المنافقين بقول الله:

﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾.[٢]

يعني: أنه إذا أصاب النبيّ ﷺ حسنةً ـ كالنصر أو الغنيمة أو القبض على أسرى ـ اغتم المنافقون، وإذا ألّمت به مصيبة فرحوا وقالوا: أنهم كانوا يتوقعون حدوثها، ولذلك تجنبوا الوقوع فيها. ثم يقول الله:

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلاّ ما كَتَبَ اللهُ لَنا هُوَ مَوْلانا وَعلى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلاّ إِحْدى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينا فَتَرَبَّصُوا إِنّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾.[٣]

ويأمر نبيه بأن يقول لهم: إنه لن يصيب المسلمين إلا ما كتب الله لهم من خير: النصر أو الشهادة، أما هم فإما أن يُقتلوا بأيديهم أو يصيبهم الله بعذاب أليم.

---

١. المتقيّ الهندي، كنز العمال: ٢/ ٤٢٩.

٢. التوبة (٩): ٥٠.

٣. التوبة (٩): ٥١ ـ ٥٢.

يروي ابن أبي حاتم في تفسيره عن جابر بن عبدالله الأنصاري:

«جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة يخبرون عن النبيّ صلى الله عليه [وآله] وسلم أخبار السوء، يقولون إنّ محمداً وأصحابه قد جهدوا في سفرهم وهلكوا، فبلغهم تكذيب حديثهم، وعافية النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم وأصحابه، فساءهم ذلك، فأنزل الله تعالى في ذلك من أمرهم: ﴿**إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ**﴾[١]».[٢]

ويقول ابن عباس: حتى أنّ الناس كانوا إذا رأوا المنافقين مسرورين اغتموا وإذا وجدوهم مغتمين فرحوا، لأنّ ذلك معناه أنّ المسلمين حققوا انتصاراً في الحرب. لقد بلغت مجاهرة المنافقين بحقيقتهم في المدينة في غياب رسول الله ﷺ حداً جعل الذين لم يوفقوا إلى المشاركة في القتال لأي سبب كان ينتظرون الفرج من الله والفتح على يد رسول الله ﷺ.[٣]

في ظل هذه الظروف كانت المدينة في غياب رسول الله ﷺ عرضة لأذى المنافقين من جميع الجهات، في مثل تلك الحالة لم يكن هناك من يَقدر على مواجهة مؤامراتهم غير أميرالمؤمنين عليه السلام، وهذا ما جعل رسول الله ﷺ يستخلفه على المدينة قبل خروجه إلى تبوك ويقول بحقه حديث «المنزلة» المعروف، ولكن أهل السنة يحاولون دائماً إنكار أية فضيلة لأميرالمؤمنين عليه السلام في استخلاف النبيّ الأكرم ﷺ له على المدينة ودلالة حديث «المنزلة».

---

١. التوبة (٩): ٥٠.

٢. ابن أبي حاتم، **التفسير**: ٦/ ١٨١٠.

٣. المتقي الهندي، **كنز العمال**: ٢/ ٤٢٩.

تحول المدينة إلى قاعدة للنفاق

الهدف الآخر الذي كان يبتغيه المنافقون من وراء مؤامراتهم في معركة تبوك، تحويل المدينة إلى قاعدة ينطلقون منها لتحقيق غاياتهم. ولتحقيق هذا الهدف كان لزاماً أن تقع المدينة تحت سيطرتهم الكاملة في غياب رسول اللهﷺ.

ولم تكن الشواهد الكثيرة على حالات التمرد على النبيّ الأكرمﷺ وعصيان أوامره وكذلك التأليب وبث الإشاعات إلا خطوات في طريق تحقيق هذه الغاية، وسنشير في ما يلي إلى بعضها:

إقامة عبدالله بن أبي معسكراً له مقابل معسكر النبيّﷺ

كتب النبيّ الأكرمﷺ كتاباً إلى القبائل التي دخلت في الإسلام، يبلغهم فيه بعزمه على قتال الروم، ويدعوهم إلى المشاركة في الجهاد. فتدفقت جموع غفيرة من مكة والطائف والقبائل المنتشرة في شبه الجزيرة صوب المدينة، ولما لم يكن لدى النبيّﷺ مقر عسكري نظامي، فقد كان عليه أن يقيم معسكراً مؤقتاً يجمع فيه المقاتلين، فاختارﷺ «ثنية الوداع»[1] لتكون معسكراً نظامياً ومكاناً لتجمع العسكر.

---

١. «ثنية الوداع» تعني منعطف التوديع؛ ويعود وجه التسمية إلى أنّ المسافرين من المدينة إلى مكة أو الشام كان عليهم أن يجتازوا جبال المدينة. وكان ذلك الموضع المنعطف الذي يختفي فيه المسافرون عن أنظار أهل المدينة. وكان المشيعون يرافقون المسافرين إلى ذلك الموضع، حيث كانوا يشيعون القوافل حتى آخر نقطة يمكن مشاهدتها فيها. وكذلك كان الأمر عند الاستقبال، حيث كان الناس يخرجون إليها لاستقبال مسافريهم؛ لذا كان ذلك المكان هو المكان الذي خرج إليه أهل المدينة لاستقبال الرسولﷺ عند ما هاجر إليها من مكة.

يقول ابن إسحاق:

«وضرب عبدالله بن أبي معه على حدة عسكره أسفل منه، نحو ذباب، وكان فيما يزعمون ليس بأقلّ العسكرين. فلما سار رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم تخلّف عنه عبدالله بن أبي، فيمن تخلّف من المنافقين وأهل الريب».[١]

ومن الأهمية بمكان أن لا يكون عدد من كان مع عبدالله بن أبي أقل ممن كان مع رسول الله ﷺ؛ إذ يمكن استنتاج أنه مقابل الثلاثين ألف مقاتل الذين كانوا مع النبيّ ﷺ كان هناك ثلاثون ألف منافق في الوقت نفسه، وإذا أضفنا عدد المنافقين الذين كانوا في جيش النبيّ الأكرم ﷺ يتأكد أنّ المنافقين كانوا يشكلون أغلبية أهل المدينة.

حسب رواية ينقلها الواقدي فإنّ عبدالله بن أبي كان يتظاهر بأنه يريد مرافقة النبيّ ﷺ عند انطلاقه، ولكنه كشف عن نيته الحقيقية بعد تحرك النبيّ ﷺ وتمرد على أوامره. ولعل التعمق في ما ينقله الواقدي يقرّبنا أكثر إلى حقائق مسكوت عنها كامنة بين سطور التاريخ.

يقول الواقدي:

«وأقبل عبدالله بن أبي بعسكره، فضربه على ثنية الوداع بحذاء ذباب، معه حلفاؤه من اليهود والمنافقين ممن اجتمع إليه، فكان يقال: ليس عسكر ابن أبي بأقل العسكرين.

---

١. ابن هشام، **السيرة النبوية**: ٤/ ١٦٢.

وأقام ما أقام رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم... فلما سار رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم تخلف ابن أبي عن رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم فيمن تخلف من المنافقين، وقال: يغزو محمد بني الأصفر ـ مع جهد الحال والحر والبلد البعيد ـ إلى ما لا قبل له به! يحسب محمد أن قتال بني الأصفر اللعب؟ ونافق معه من هو على مثل رأيه، ثم قال ابن أبي: والله لكأني أنظر إلى أصحابه غداً مقرنين في الحبال! إرجافاً برسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم وأصحابه».[١]

ما وصلنا من تاريخ صدر الإسلام ليس إلاّ النسخة المزوقة التي تبجّل الصحابة ومواقفهم من رسول الله صلى الله عليه وآله، في حين أنّ عرض هذا التاريخ المحرف على القرآن يكشف أنّ الكثير من الاحداث كتب بعيداً عن الواقع.

من الأهمية بمكان أن يكون هناك جماعة مقابل جيش رسول الله صلى الله عليه وآله مساوية له بالعدد، وذلك ما يعطي صورة تقريبية للحالة الإيمانية لأهل المدينة. إلا أنّ الأهم من ذلك ما تعكسه هذه الصورة من أنّ الظروف التي سادت المدينة في أواخر حياة النبيّ صلى الله عليه وآله كانت تسمح بأن يجرؤ عدد كبير من الناس على مواجهة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله بشكل صريح والاصطفاف مع معارضيه، فهل يمكن أن نتوقع من مثل هذا المجتمع أن يقف موقفاً وفياً من حادثة السقيفة بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله إذا كان هذا موقفه في حياته؟

رغم ما جرى من تبييض لموقف الصحابة في السيرة النبوية، فإنّ المقطوع به أنّ

---

١. الواقدي، المغازي: ٣/ ٩٩٥ ـ ٩٩٦.

النبيّ الأكرمﷺ خرج من المدينة إلى تبوك ومعه ثلاثون ألف مقاتل، في حين بقي في المدينة من المنافقين ما يعادل هذا العدد من الرجال أو قد يزيد عليه. كان هؤلاء يظنون أنّ النبيّ الأكرمﷺ لن يعود من تلك المعركة، وكانوا يتمنون أن يقضي العطش ومشقة الطريق الطويل على النبيّ الأكرمﷺ إن هو سلم من المعركة.

وبعد كل هذا كانوا يخططون للوقوف بوجهه ومنعه من دخول المدينة إن هو نجا من كل تلك المهالك وما زرعوه في طريقه من أخطار.

وهذا ما أرادوا القيام به في غزوة بني المصطلق، وقال الله تعالى فيه:

﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْها الأَذَلَّ وَللهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾.[1]

كان المنافقون يحدثون أنفسهم بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة فسيقوم الأعزاء بإخراج الأذلة منها! فيعرّض بهم الله تعالى قائلاً: إنّ العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون.

يتضح الآن لماذا أصرّ النبيّ الأكرمﷺ على ترك أميرالمؤمنينؑ في المدينة وقال: أبقى أنا أو من هو مثلي في المدينة. ولاشك أنه لا أحد كان قادراً على حماية المدينة من مؤامرات المنافقين كعلي بن أبي طالبؑ.

تخلف قبيلتي بني غفار وأسلم

إضافة إلى المنافقين الموافقين لموقف عبدالله بن أبي، تخلفت عن جيش رسول

---

١. المنافقون (٦٣): ٨.

اللهﷺ قبائل عربية أخرى مثل بني غفار وأسلم.

هاتان القبيلتان دخلتا المدينة بالسلاح بعد حادثة السقيفة ولعبتا دوراً رئيساً في غصب الخلافة وإعطائها لأبي بكر. وبوضع هذين الخيارين إلى جانب بعضهما، يمكننا الاستنتاج أنّ تيار النفاق لم يكن ظاهرة تبلورت بعد وفاة النبيّ الأكرمﷺ، وأنّ الانحراف عن مسار الإمامة الإلهي لم يكن «فلتة»[١] كما يصفه عمر، بل إنّ المنافقين كانوا، قبل وفاة النبيّ الأكرمﷺ، يخططون لقتله والاستيلاء على السلطة.

كان «أبورهم الغفاري» من أصحاب بيعة الشجرة وكان يرافق رسول اللهﷺ إلى تبوك، وما يقوله بشأن تخلف قبيلته عن جيش رسول اللهﷺ يمثل وثيقة مهمة عن تخلف تلك القبيلة وغضب رسول الله عليها.

يقول أبورهم:

> «غزوت مع رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم غزوة تبوك... فجعل رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم يسألني عمن تخلّف من بني غفار، فأخبره به، فقال ـ وهو يسألني ـ: ما فعل النَّفَر الحُمر الطوال الثطاط؟ فحدثته بتخلفهم. قال: فما فعل النفر السود الجِعاد القصار؟ قال: قلت: والله ما أعرف هؤلاء منا. قال: بلى، الذين هم

---

١. قال [أبوعبيد]: في حديث عمر أنه خطب الناس فقال: إنّ بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرها... وأما قوله: فلتة، فإنّ معنى الفلتة الفجأة، وإنما كانت كذلك لأنه لم ينتظر بها العوام. (ابن‌سلام، **غريب الحديث**: ٣/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦؛ ابن الأثير، **النهاية**: ٣/ ٤٦٧).

وقال ابن‌منظور: يقال: كان ذلك الأمر فلتة أي: فجأة إذا لم يكن عن تدبر ولا تردد. والفلتة: الأمر يقع من غير إحكام. (انظر: ابن منظور، **لسان العرب**: ٢/ ٦٧).

نَعَم بشَبَكَة شَدَخ [من الآبار العائدة إلى عشيرة أسلم من بني غفار]، فتذكّرتهم في بني غفار، ولم أذكرهم حتى ذكرت أنهم رهط من أسلم كانوا حلفاء فينا، فقلت: يا رسول الله، أولئك رهط من أسلم، حلفاء فينا. فقال رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم: ما منع أحد أولئك حين تخلف أن يحمل على بعير من إبله امرأ نشيطاً في سبيل الله [وبعثه للجهاد]، إن أعزّ أهلي عليّ أن يتخلّف عني المهاجرون من قريش والأنصار وغفار وأسلم». [١]

تقاعس المنافقين عن الجهاد

وامتلك جماعة آخرون من المنافقين الجرأة الكافية لاستئذان النبيّ الأكرمﷺ بعدم الخروج إلى الجهاد، رغم تأكيدهﷺ على وجوب خروج الجميع، وذلك من أجل استغلال غيابه عن المدينة في فرض سيطرتهم عليها وتحويلها إلى قاعدة للنفاق، ولم يكن لهم من عذر مقبول للقعود. [٢]

فقد اتخذ بعضهم الحَرَّ ذريعة لعدم الخروج، بينما قال آخرون إنه موسم الحصاد، وما إلى ذلك من أعذار واهية. ويشير القرآن إلى هذه الأعذار وإلى نفاق أصحابها، وفيما يلي مثالان من هذه المواقف:

---

١. ابن هشام، **السيرة النبوية**: ٤/ ١٧٢ ـ ١٧٣؛ الواقدي، **المغازي**: ٣/ ١٠٠١ ـ ١٠٠٢.

٢. ابن سعد، **الطبقات الكبرى**: ٢/ ١٦٥.

يقول الطبري:

«أن رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم أمر الناس أن ينبعثوا معه، وذلك في الصيف، فقال رجال: يا رسول الله، الحر شديد ولا نستطيع الخروج، فلا تنفر في الحر، فقال الله: ﴿**قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ**﴾[1] فأمره الله بالخروج».[2]

ويقول الواقدي عن أحد المنافقين:

«وجعل الخبيث يثبط قومه، وقال لجبار بن صخر ونفر معه من بني سلمة: يا بني سلمة، لا تنفروا في الحر: يقول: لا تخرجوا في الحر زهادة في الجهاد، وشكا في الحق، وإرجافاً برسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم. فأنزل الله عز وجل فيه: ﴿**وَقالُوا لاتَنْفِرُوا فِي الحَرِّ**﴾ إلى قوله ﴿**جَزَاءاً بِمَا كانُواْ يَكْسِبُون**﴾[3]».[4]

وكان من المنافقين الذين تخلفوا في المدينة «جد بن قيس»، وكان في الجاهلية زعيم بني سلمة حتى هاجر النبيّ الأكرمﷺ إلى المدينة وجعل الإيمان والتقوى مقياساً لمنازل الرجال، فتلاشت زعامة جد بن قيس وأسباب تفاخره.[5] وكان ممن حضر صلح

---

١. التوبة (٩): ٨١.

٢. الطبري، **جامع البيان**: ١٠/ ٢٠١.

٣. التوبة (٩): ٨٢ ـ ٨١.

٤. الواقدي، **المغازي**: ٣/ ٩٩٣.

٥. اختار رسول اللهﷺ عمرو بن الجموح رئيساً لقبيلة بني سلمة بدلاً من جد بن قيس واستشهد في أحد. (ابن الأثير، **أسد الغابة**: ١/ ٢٧٤).

الحديبية ولكنه في بيعة الرضوان ربط نفسه إلى بطن ناقته لكي يختفي عن أنظار النبيّ الأكرمﷺ فلا يبايعه.[۱]

قال له رسول اللهﷺ: ألا تأتي معنا إلى تبوك لعلك تصيب من فتيات بني الأصفر؟ فقال جد بن قيس: ألا ترخصني وتخلصني من الوقوع في الفتنة؟ الجميع يعلم أنه ليس بين الرجال شغوف بالنساء مثلي، وأخشى أنني إذا رأيت الشقراوات وقعت في المعصية. فأدار رسول اللهﷺ وجهه عنه وقال: رخصتك،[۲] ثم نزلت الآية:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالكافِرِينَ﴾.[۳]

وجاء قوم من المنافقين وهم يقولون: إاذن لنا لنتخلف عن الجهاد ولا تفتنا، ولكن الله تعالى يقول: ﴿أَلا فِي الفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالكافِرِينَ﴾، كناية عن انحرافهم عن دستور النبيّﷺ، فهم الآن يخوضون في الفتنة ويتمرغون بالاثم.

وهكذا كانوا يتحججون بمختلف الحجج للتهرب من الجهاد، ولكن النبيّﷺ بمقتضى رحمته الواسعة لم يكن يفضح كذبهم ونفاقهم، بل كان يحكم عليهم بالظاهر ويأذن لهم بالبقاء في المدينة، حتى وصل الأمر إلى نزول قوله تعالى:

﴿عَفا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الكاذِبِينَ﴾.[٤]

---

١. ابن حجر، **الإصابة**: ١/ ٥٧٥ ـ ٥٧٦ ؛ ابن الأثير، **أسد الغابة**: ١/ ٢٧٤.

٢. ابن هشام، **السيرة النبوية**: ٤/ ١٥٩ ـ ١٦٠ ؛ الواقدي، **المغازي**: ٣/ ٩٩٢.

٣. التوبة (٩): ٤٩.

٤. التوبة (٩): ٤٣.

قد يبدو من النظرة الأولى لظاهر الآية أنها تعاتب النبيّ الأكرمﷺ بما يعني «أنّ الله عفى عنك فلماذا أذنت لهم؟» ولكن الحقيقة هي أنّ معنى الآية نابع من إشفاق الله على نبيه، وهو أنّ الله يخبر رسول الله بأنه لم يكن مكلفاً بهذه الدرجة من الشفقة والمداراة.

والآية بمثابة أمر للنبيّ الأكرمﷺ بأن يشدد عليهم أكثر، والآية تؤكد: ﴿حَتّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الكاذِبِينَ﴾؛ بمعنى أنه بعد أن تبين لك الصادقون والكاذبون، فما عليك إلا أن تعامل الكاذبين منهم المتهربين من الجهاد على نحوٍ لا يدع شكاً لدى الناس في كذبهم.

وهكذا يفصل القرآن في الأمر ويعلن للنبيّ الأكرمﷺ أنّ المؤمن لا يستأذنه في القعود وأنّ الذين استأذنوه في القعود منافقون لا إيمان لهم، فيصرّح:

﴿لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَالله عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ وَارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾.[١]

إنّ المؤمنين بالله واليوم الآخر لا يستأذنونك أبداً في القعود عن الجهاد، ولا يستأذنك إلا المحرومون من الإيمان وقلوبهم مرتع للشك والارتياب.

ثم يذكر تقاعسهم عن تجهيز الجيش فيقول:

﴿وَلَوْ أَرادُوا الخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ القاعِدِينَ﴾.[٢]

---

١. التوبة (٩): ٤٤ ـ ٤٥.

٢. التوبة (٩): ٤٦.

لو كانوا راغبين حقاً في الخروج معك ـ يا محمد ـ إلى الجهاد لاستعدوا لذلك، ولكن الله كره أن يرافقك أمثال هؤلاء؛ لذا تركهم ليقعدوا مع القاعدين.

ثم يشير إلى شكل آخر من أشكال فتن المنافقين:

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلاّ خَبالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُم الفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظّالِمِينَ﴾.[١]

ولو كانوا رافقوكم إلى الجهاد لما نلتم منهم غير الأذى والضرر، بل كانوا سيبثون الفتنة في صفوفكم.

الاستهزاء برسول الله ﷺ في أثناء الاستعداد للحرب

جاء بعض المنافقين إلى رسول الله ﷺ وتذرعوا بالحرّ ليقترحوا عليه العدول عن القتال أو تأجيله.[٢] وكان غرضهم من هذا أن يعرقلوا تجهيز جيش المسلمين، وكان النفاق الدافع لكل مواقفهم، حتى أنّ ابن إسحاق يرى أنّ المنافقين كانوا مدفوعين بعدم الرغبة في الجهاد، والشك والترديد في الحق، وإثارة الفتنة في صفوف المسلمين.[٣] ويتعرض القرآن لهذه الحالة بقوله:

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الحَرِّ﴾.[٤]

---

١. التوبة (٩): ٤٧.

٢. الطبري، جامع البيان: ١٠/ ٢٠١.

٣. ابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ١٦٠.

٤. التوبة (٩): ٨١.

لقد كان المتخلفون عن الجهاد مسرورين بقعودهم، كارهين للجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. ولم يكتفوا بالقعود بأنفسهم، بل حرضوا سائر المسلمين على التخلي عن مرافقة رسول الله ﷺ بحجة حرارة الجو.

«النفر» في هذه الآية تعني الحركة الجماعية. ويُفهم من الآية أنّ المنافقين كانوا يخيفون الناس من القيام بحركة جماعية. لقد كانوا يملأون الجو إثارة للرعب ويلقون في روعهم أنّ الجو شديد الحرارة والصحراء ليس فيها قطرة ماء، وأنّ خزين الماء المدخر في المنازل المنتشرة في الطريق الصحراوي، لا يكاد يكفي قافلة واحدة؛ فكيف يمكن لهذا العدد الغفير من الرجال أن يحافظ على حياته في تلك الصحراء القاحلة الشحيحة من الماء؟

كان المنافقون يبثون هذه الأفكار بين الناس من أجل إضعاف الروح المعنوي لدى المقاتلين القاصدين لتبوك، ولكن الله يردّ عليهم بالقول:

﴿...قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ﴾.[1]

ثم يقول بعد ذلك:

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزاءاً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾.[2]

«ينبغي للمنافقين أن يضحكوا أقل مما يبكون لما سيلاقونه في جهنم».

---

١. المصدر نفسه.

٢. التوبة (٩): ٨٢.

ومن تتابع هاتين الآيتين يمكن التوصل إلى استنتاج هام:

الآية الأولى تشير إلى أنّ المنافقين لم يكتفوا بالتخلف عن جيش رسول الله ﷺ في معركة تبوك، بل عملوا أيضاً على منع الناس من الالتحاق به.

والآية الثانية تذكّرهم بعذاب الآخرة وتحذرهم من أنهم لو كانوا يعلمون بما ينتظرهم من عذاب يوم القيامة لضحكوا أقل ولبكوا أكثر.

وتفيد نبرة الآية أنّ المنافقين كانوا يستهزؤون برسول الله ﷺ فضلاً عن مخالفة أوامره، وكانت غايتهم هذه المرة هتك حرمة النبيّ الأكرم ﷺ، والآية تدافع عن حرمته ﷺ بشكل من الأشكال.

ويتبين أيضاً أنّ الناس لم يكونوا يحملون الغيرة والحمية الكافية على الدين وعلى رسول الله ﷺ، بحيث أنّ المجتمع لم يكن يتصدى لمثل هذه الحركات بما يناسبها من موقف، فكان لابد من نزول آية تصون حرمة النبيّ الأكرم ﷺ وتثبت قبح المساس بها.

هذه النقطة الصريحة في القرآن غائبة تماماً عن مدونات التاريخ ولم يعرها أحد التفاتاً. وهذا ما يجعلنا نجهل تفاصيلها؛ فهل كانوا يستهزؤون بصدور أوامر تجهيز الجيش في الصيف؟ أم كانوا يستهزؤون بتجهيز الجيش عن طريق جمع الصدقات؟ أم كانوا يسخرون من شخص النبيّ الأكرم ﷺ؟

لم يبق في التاريخ أية مؤشرات عن ذلك، ولكن المؤكد المستفاد من الآية الشريفة أنّ المنافقين كانوا يسخرون من النبيّ الأكرم ﷺ وأسلوب زحفه على تبوك.

وكان المنافقون يتندرون أحياناً على موضوع جمع الصدقات ويسخرون من

المسلمين بسببه، لأنه كان تجهيز المعوزين من أمثال «أهل الصفّة» يتم عبر الصدقات المأخوذة من الناس. وكانت «الصفّة» مكاناً يجتمع فيه الفقراء ويتلقون الصدقات من النبيّ الأكرمﷺ والمسلمين، وكلما قامت غزوة، تكفّل بعض الموسرين بتجهيز عدد من المعوزين، على أمل أن يستردوها لاحقاً من الغنائم.

وفي معركة تبوك أوصى رسول اللهﷺ المسلمين بالإنفاق في سبيل الله من خلال تجهيز الجيش،[١] وكان المنافقون يتندرون على المسلمين من هذا الجانب ويسخرون منهم؛ فإذا تصدق أحد بصدقة كبيرة اتهموه بالرياء، وإذا تصدق بصدقة صغيرة قالوا هازئين: هو أحوج لما يتصدق به![٢] لقد حاولوا بهذه الطريقة التقليل قدر الإمكان من حالات الإنفاق على التجهيز عبر الصدقات وإعاقة استعدادات الجيش.

إيذاء النبيّ الأكرمﷺ، وإشارة القرآن لذلك

تزامناً مع كل تلك الأساليب التي اتبعوها، لم يكف المنافقون عن توجيه الأذى المباشر للنبيّ الأكرمﷺ. فقد اتهموهﷺ بالسذاجة وسرعة التصديق بكل ما يقال له، وما أكثر ما كانوا يسمونه «أُذُن». ويشير القرآن الكريم إلى ذلك بقوله:

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النبيّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِالله وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ الله لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾.[٣]

---

١. المتقي الهندي، كنز العمال: ٢/ ٤٢٧.

٢. المتقي الهندي، كنز العمال: ٢/ ٤٢٨.

٣. التوبة (٩): ٦١.

من المنافقين من كان ينعت النبيّ الأكرمﷺ بالسذاجة! فقل لهم يا محمد: إنه يسارع إلى تصديق ما فيه خيركم ويؤمن بالله ولا يصدّق إلا المؤمنين وهو رحمة للمؤمنين، أما الذين يؤذون رسول الله فلهم عذاب أليم.

عند ما كان المنافقون يرتكبون أفعالاً تفضح نفاقهم كان رسول اللهﷺ يعلم بذلك إما عن طريق الوحي أو إخبار المؤمنين له، وحين كان يستجوبهم عن أفعالهم كانوا يتشبثون بالخدع تهرباً مما افتضح من أمرهم. وكان النبيّ الأكرمﷺ يحكم على الظاهر ويقبل ادعاءاتهم، فكان المنافقون بالمقابل، يستغلون معاملته لهم على الظاهر فينعتونه بالسذاجة، رغم علمهم بأنّ رسول اللهﷺ يعلم بأنهم يكذبون ولكنه يتغاضى عن أفعالهم، ولكنهم يصرون على إيذائه بتسميته بـ «أُذُن» ـ وهي كناية عن السذاجة وسرعة التصديق ـ. فقد كان رسول اللهﷺ يعلم بالحقيقة عن طريق الوحي أو عن إخبار المؤمنين له، مع هذا فعند ما يقدم له المخطئ أي عذر يقبله منه.

يبيّن الله في الآية أنّ النبيّ الأكرمﷺ «أُذُن» ولكن ليس كما يتصور المنافقون، بل هو أذنٌ للأوامر الإلهية وبما يصب في مصلحة المؤمنين ومن أجلهم؛ بمعنى أنّ النبيّﷺ يصدّق كل من يدعي الإيمان بالله وبرسوله حتى وإن كان يعلم ببواطن الناس وحقيقة إيمانهم أو نفاقهم، ولا يكشف أسرارهم الكامنة للناس، بل يحكم على الظاهر، ولا شك أنه كان بين الحاضرين من ينطبق عليه مضمون الآية.

ثم يشير القرآن إلى أحد أهداف المنافقين من إيذاء النبيّ الأكرمﷺ ونعته بما لا يليق بشخصه الكريم:

﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.[1]

يتضح من مضمون الآية أنّ أحد أهداف المنافقين كان عزل المؤمنين عن النبيّ الأكرمﷺ وضمهم إلى جبهتهم. لقد كانوا يسعون إلى إرضاء الناس وإن كان الثمن إغضاب الله ورسوله؛ لذا يقول الله تعالى عنهم ﴿إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ فعليهم أن يسعوا لكسب رضا الله ورسوله بدل السعي لاستقطاب المؤمنين.

كان المنافقون يخافون شيئاً واحداً هو أن يُبتلَوْا يوماً بما كانوا يضمرون في قلوبهم. فقد كانوا يرون أنّ الأسرار التي يجتهدون في إخفائها تصل إلى أسماع رسول اللهﷺ، وكان رسول اللهﷺ يخبر الناس بها على هيئة آيات قرآنية.

على أنّ المنافقين لم يكونوا يصدقون أبداً بالوحي السماوي، بل كانوا يعزون تسرب أسرارهم إلى النبيّ الأكرمﷺ إلى جواسيسه المنبثين بينهم؛[2] لذا كانوا يخافون أن ينكشف أمر نفاقهم وحقيقة كفرهم وما ينتج عنه من فضيحة وهلاك لهم. وبهذا يحدّث القرآن:

﴿يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ﴾.[3]

---

١. التوبة (٩): ٦٢.

٢. صحيح أنّ المنافق يطلق على من يتظاهر بالالتزام بالتعاليم الإسلامية، ولكن المنافقين لم يكونوا يتورعون عن كشف نفاقهم في الأماكن التي تخلو من المؤمنين الصادقين أو التي فيها مؤمنون ضعاف أو موافقون لهم على آرائهم، ما كان يخيفهم انكشاف تصرفاتهم وأقوالهم غير المعلنة.

٣. التوبة (٩): ٦٤.

كان المنافقون في خوف دائم من أن تنزل سورة قرآنية تفضح دواخلهم، فيقول الله لنبيهﷺ: قل لهم استهزئوا فسوف يكشف الله ما تخافون انكشافه.

على أنّ ذلك الخوف، لم يمنعهم من الإيذاء والاستهزاء والتآمر، ولكنّ كل ذلك كان مصحوباً بخوف من أن تظهر حقيقتهم ويدفعوا ثمن نفاقهم، لأنّ النبيّ الأكرمﷺ كان هو الحاكم وكان بمقدوره إنزال أي حكم يأمره الله بحقهم. ويتوعدهم الله بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ﴾ يعني: أنه ينزل بكم ما كنتم تخشونه.

لقد بلغ قبح أعمالهم حداً يأبى تحمّلَ مسؤوليته الإنسانُ العادي، فضلاً عن من يدّعي الإيمان؛ لذا كانوا كلّما سُئلوا عن أفعالهم لم يجدوا مبرراً لها إلا قولهم إننا نفعل ذلك للتسلية فحسب.

وفي ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآياتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾.[١]

«الخوض» و«اللعب» تعني المزاح واللهو. يقول الله مخاطباً نبيهﷺ: إن سألتهم لماذا تأتون بهذه الأفعال السيئة؟ قالوا: كنا نمزح ونلعب. ويقول الله: فهل تسخرون بالله وآياته ورسوله؟

يتبين من الآية أنّ المنافقين كانوا يرتكبون أفعالاً تمس النبيّ الأكرمﷺ؛ كانت من نوع الأفعال التي لا تثير الشكوك فيهم ولا يجدون لتبريرها إلا ادّعاءهم بأنهم إنما

---

١. التوبة (٩): ٦٥.

كانوا يمزحون ويلعبون، ولكن الله لا يقبل اعتذارهم ويقول لهم:

﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ﴾.[1]

«... وإذا كنّا سنعفو عن فريق (فلا نعذبهم في الدنيا) فإننا سنعذب الفريق الآخر لأنهم مجرمون».

ومما يؤسف له أنّ أهل السنّة يكتفون بعدد محدود من شواهد نزول هذه الآيات ولا يتعمقون في إشاراتها الدالة على حقيقة بالغة الأهمية.

وسوف نشير هنا إلى بعض ما رواه علماء السنّة في سبب نزول هذه الآيات ثم نطرح الرؤية التي نراها صحيحة:

آراء بعض أرباب السِيَر حول سبب نزول الآيات:

ألف) كلام ابن إسحاق:

يقول ابن إسحاق:

«وقد كان رهط من المنافقين، منهم وديعة بن ثابت، أخو بني عمرو بن عوف، ومنهم رجل من أشجع، حليف لبني سلمة، يقال له: مُخَشِّن بن حُمَيِّر ـ قال ابن هشام: ويقال: مَخْشِيّ ـ يشيرون إلى رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً!

---

١. التوبة (٩): ٦٦.

والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين.

فقال مخشن بن حمير: والله لوددت أنّي أقاضي على أن يضرب كل [رجل] منا مائة جلدة، وإنا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه.

وقال رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم ـ فيما بلغني ـ لعمار بن ياسر: أدرك القوم، فإنهم قد احترقوا، فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى، قلتم كذا وكذا. فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم. فأتوا رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت، ورسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم واقف على ناقته، فجعل يقول وهو آخذ بحقبها: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾. وقال مخشن بن حمير: يا رسول الله، قعد بي اسمي واسم أبي، وكأن الذي عفي عنه في هذه الآية مخشن بن حمير، فتسمى عبدالرحمن، وسأل الله تعالى أن يقتله شهيداً لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة، فلم يوجد له أثر». [١]

---

١. ابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ١٦٨ ـ ١٦٩؛ الواقدي، المغازي: ٣/ ١٠٠٣ ـ ١٠٠٥ ولفظه: «قالوا: وكان رهط من المنافقين يسيرون مع النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم في تبوك، منهم: وديعة بن ثابت، أحد بني عمرو بن عوف والجُلاس بن سويد بن الصامت، ومخشي بن حمير من أشجع حليف لبني سلمة، وثعلبة بن حاطب، فقال: تحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم؟ والله لكأنّا بكم غداً مقرّنين في الحبال! إرجافاً برسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم».

ب) كلام الطبري:

يروي الطبري الرواية نفسها مع اختلاف بسيط:

«بينا رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم يسير في غزوته إلى تبوك، وبين يديه ناس من المنافقين فقالوا: يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشأم وحصونها! هيهات هيهات!

فأطلع الله نبيه صلى الله عليه [وآله] وسلم على ذلك، فقال نبي الله صلى الله عليه [وآله] وسلم: احبسوا عليَّ الرَّكْب! فأتاهم فقال: قلتم كذا، قلتم كذا. قالوا: يا نبي الله، إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم ما تسمعون».[1]

الملاحظة المهمة هي العبارة الواردة في بعض هذه الروايات وهي «بينما النبيّ في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه»[2]، فإنّ عبارة «ركب من المنافقين» تدل على أنّ جماعة من المنافقين كانوا دائماً يحتلون أقرب المواقع من رسول الله ﷺ، بل إنهم كانوا مكلفين بالإحاطة بالنبيّ الأكرم ﷺ. وبديهي أنّ غايتهم من تلك الإحاطة لم تكن حماية النبيّ ﷺ، بل تحيّن الفرصة لتحقيق أهدافهم.

ويورد الطبري في خبر آخر شاهداً آخر من شواهد هذه الآيات؛ فاستناداً إلى ما ينقله الطبري، فإنّ أحد المنافقين قال لعوف بن مالك في معركة تبوك: كيف لهؤلاء الذين يدّعون حفظ القرآن أن يهتموا ببطونهم أكثر من غيرهم؟ ويكذبون أكثر من

---

١. الطبري، جامع البيان: ١٠/ ١٧٢.

٢. الطبري، جامع البيان: ١٠/ ١٧٣؛ ابن أبي حاتم، التفسير: ٦/ ١٨٣٠.

غيرهم؟ وهم أجبن الناس في الحروب؟ فكذّبه عوف واتهمه بالكذب والنفاق، وانطلق إلى رسول الله ﷺ ليخبره، ولكنه وجد أنّ هذه الآية نزلت في الحادثة قبل وصوله. فجاء المنافق إلى رسول الله ﷺ وقدّم إليه المبررات والأعذار.[١]

ج) كلام الكلبي:

يرى الكلبي أنّ الآيات نزلت بعد عودة النبيّ الأكرم ﷺ من تبوك، عند ما كان ثلاثة رجال أو أربعة يسيرون أمام النبيّ الأكرم ﷺ وهم يضحكون ويستهزؤون، فهبط جبريل وأخبر النبيّ ﷺ عنهم، فقال ﷺ لعمار بن ياسر: أخبرني جبريل بأنّ هؤلاء يسخرون مني ومن القرآن وإذا سألتَهم عما يفعلون، سيقولون: كنا نتحدث عن هذا السفر وعن الأشخاص الذين شاركوا فيه. فذهب إليهم عمار بن ياسر وسألهم: ما الذي يضحككم؟ فقالوا: كنا نتحدث عن الفرسان. فقال عمار: صدق الله ورسوله! لقد أحرقتم أنفسكم، أحرقكم الله؛ فما كان من المنافقين إلا أن ذهبوا إلى النبيّ الأكرم ﷺ واعتذروا، فنزلت الآية ٦٢ وما يليها من سورة التوبة.[٢]

الحقيقة هي أنّ كل هذه الحالات التي يوردونها في سبب النزول، ليست إلا مجرد إشارة إلى بعض هذه الآيات، وهي لا توضح المراد منها بشكل قطعي. وما أكثر ما يحتوي عليه التاريخ من تطبيق لآيات القرآن على أشخاص وحوادث أخرى، بل على أشخاص وحوادث ليس لها نصيب من الواقع، من أجل محو بصمات بعض الأشخاص عن آثار جرائم كبرى ارتكبوها عبر التاريخ.

---

١. الطبري، **جامع البيان**: ١٠/ ١٧٢.

٢. انظر: الطباطبائي، **الميزان**: ٩/ ٣٤٢.

ولا شك أنّ هذه الآيات لم تنزل لفضح عدد من المنافقين، بل لكشف مجمل نشاط تيار النفاق ومؤامراتهم الجماعية وتأثيرهم على المجتمع. لقد كان المنافقون يخططون وينفذون مؤامرات مختلفة، وعند ما يفتضح أمرهم وينكشف للرأي العام، كانوا يتهربون من المسؤولية بادّعاء أنّ قصدهم كان المزاح (الخوض) والتسلية (اللهو واللعب).

القسم الثالث: فشل مؤامرة المنافقين في المدينة

كما ذكرنا، فقد سعى المنافقون بكل جهدهم لأن يحوّلوا المدينة إلى قاعدة ينطلقون منها لتحقيق أهدافهم، ولم يكفّوا عن محاولاتهم حتى عند ما فشلت خطتهم باستخلاف النبيّ الأكرمﷺ لعليﷺ على المدينة، فأخذوا ينبزون أمير المؤمنينﷺ بكلام يستهدفون من ورائه خلق ظروف من شأنها أن تجعلهﷺ عاجزاً عن أداء مهمته ـ كما يزعمون ـ. لقد غاب عنهم أنّ كلامهم الجارح سيؤدي إلى ظهور أكبر الفضائل لأمير المؤمنينﷺ، لأنّ كلامهم دفع بالإمامﷺ إلى أن يستل سيفه ويذهب إلى رسول اللهﷺ ويخبره بما كان يجري، هنالك أعاد النبيّ الأكرمﷺ حديث «المنزلة» بحق أمير المؤمنينﷺ.[1]

رد فعل النبيّ الأكرمﷺ على مؤامرة المنافقين

عاد رسول اللهﷺ إلى المدينة في ذي الحجة من العام الثامن الهجري، بعد أن أتم فتح مكة وفرغ من مؤامرة معركة حنين وما تبعها من استسلام قلعة الطائف. في تلك الفترة وقعت أحداث أدت إلى غزوة تبوك، منها ما أشاعه المنافقون من هجوم الروم.

---

١. إنّ حديث المنزلة لا يعود تاريخه إلى معركة تبوك، بل إلى السنوات الأولى للدعوة حيث قاله رسول اللهﷺ بحق أمير المؤمنينﷺ مراراً.

تعتبر المدينة والطائف المنطقتين الزراعيتين في الحجاز، وكان إنتاج الشعير والتمر ـ وهما المحصولان الرئيسان في المدينة ـ عاملاً في ازدهار سوقها، وكان الناس يجلبون منتجاتهم من القمح والبذور الزيتية لبيعها في فيها.

هذا الوضع كان جاذباً للتجار إلى المدينة حتى قبل الإسلام، وكان التجار الروم من بين التجار الذين يترددون عليها، ونتج عن هذه العلاقة أن كان أهل المدينة على معرفة دائمة بأخبار الروم،[١] وفي تلك الأثناء جاء إلى المدينة من يحمل أخباراً مقلقة لأهلها.

فقد تحدثت الأخبار عن أنّ ملك الروم هرقل جهز جيشاً كبيراً ووفر له مؤونة عام كامل واصطحب بعض القبائل لمهاجمة البلاد الإسلامية والاستيلاء عليها، بحيث أنّ طلائع جيش الروم وصلت إلى «البلقاء»[٢] وعسكرت فيها.[٣]

كانت تلك الأخبار بالغة الأهمية بالنسبة للمسلمين، لأنهم كانوا يعتبرون الروم عدواً خطيراً لهم، خاصة وأنه لم تكن قد جفت بعدُ دماءُ مؤتة ولم تنمح ذكرياتها المريرة، غافلين عن أنّ تلك الأخبار كانت مختلقة أصلاً ولا أساس لها من الصحة، وأنّ العدو الحقيقي للمسلمين المنافقون الذين كانوا ينفذون مؤامرة جديدة عليهم، بإشاعة أخبار كاذبة عن زحف الروم صوبهم.

---

١. الواقدي، المغازي: ٣/ ٩٨٩ ـ ٩٩٠.

٢. البلقاء: اسم منطقة بين الأردن والحجاز.

٣. الواقدي، المغازي: ٣/ ٩٩٠.

يقول الواقدي: «ولم يكن ذلك، إنّما ذلك شيء قيل لهم فقالوه»[١]؛ فالأخبار كانت كاذبة مختلقة ولم يتحقق منها شيء في الواقع لأنها كانت مجرد مسموعات وهمية تناقلها القرويون.

كذلك جاء في تاريخ الخميس: «ولم يكن من ذلك شيء وإنما ذلك شيء قيل لهم فأرجفوا به»[٢]؛ لم يكن أيٌّ من تلك الأخبار صحيحاً، بل مجرد إشاعات تناقلها الناس وأرجفت قلوبهم.

على أثر انتشار تلك الإشاعات أمر النبيّ الأكرمﷺ المسلمين بالاستعداد للجهاد. ونظراً للظروف الاستثنائية المحدقة بتلك الغزوة من حرارة شديدة وبُعد مسافة، فقد أخبر النبيّ الأكرمﷺ المسلمين بوجهته قبل انطلاقه إليها، خلافاً لما كان يفعله في الغزوات السابقة.[٣]

فغزوة تبوك تعتبر أطول زحف قام به رسول اللهﷺ بأكبر جيش قاده، وقد دعا أهلَ مكة وباقي القبائل إلى المشاركة فيها، وطلب من الناس أن يدفعوا صدقاتهم من أجل تجهيز الجيش لها.[٤]

استخلاف محمد بن مسلمة؛ شاهد على تحريف التاريخ

لما وجد بعض أهل السنّة أنفسهم عاجزين عن إنكار حديث «المنزلة» لتواتره،

---

١. المصدر نفسه.

٢. الدياربكري، **تاريخ الخميس**: ٢/ ١٢٢.

٣. الواقدي، **المغازي**: ٣/ ٩٩٠.

٤. الواقدي، **المغازي**: ٣/ ٩٩١.

عملوا على التقليل من أهميته، من خلال بث الترديد في استخلاف أمير المؤمنين عليه السلام على المدينة؛ فأوردوا عبر الكثير من الأخبار الملفّقة أنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله استخلف رجلاً اسمه «محمد بن مسلمة»، وورد أيضاً اسم «سباع بن عرفطة» في بعض تلك الأخبار؛ وفي تلك الأثناء ادّعوا أنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله استخلف علياً عليه السلام على أهله وعياله فحسب.

يعتقد ابن هشام أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله ترك محمد بن مسلمة والياً على المدينة، وينقل في الوقت نفسه عن عبدالعزيز بن محمد الدراوردي، عن أبيه، أنه قال: عند ما توجه رسول الله إلى تبوك، جعل سباع بن عرفطة والياً على المدينة.[١]

ويقول الواقدي كذلك: إنّ رسول الله استخلف على المدينة «سباع بن عرفطة الغفاري» وعلى رواية «محمد بن مسلمة».[٢]

يدّعي محمد بن سعد أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله استخلف «محمد بن مسلمة» ويقول: «وهو [هذا القول] أثبت عندنا ممن قال استخلف غيره...»[٣]. وفي موضع آخر يروي بسنده عن محمد بن مسلمة أنه كان يقول لأبنائه: «يا بَنِيَّ، سلوني عن مشاهد النبي عليه السلام ومواطنه؛ فإني لم أتخلف عنه في غزوة قط، إلا واحدة، في تبوك، خلفني على المدينة...»[٤].

لسنا هنا بصدد تقصي الأخبار، غير أنّ ما هو واضح من مجموع هذه الأخبار أنّ محمد بن مسلمة هو المرجح من بين الرجلين. وفي مراجعة الوثائق سنجد الكثير من

---

١. ابن هشام، **السيرة النبوية**: ٤/ ١٦٢.

٢. الواقدي، **المغازي**: ٣/ ٩٩٥.

٣. ابن سعد، **الطبقات الكبرى**: ٢/ ١٦٥.

٤. ابن سعد، **الطبقات الكبرى**: ٣/ ٤٤٤.

الشواهد الدالة على أنّ النبيّ الأكرمﷺ استخلف أميرالمؤمنين؈.

ولكن قبل الدخول في هذا الموضوع لابد من مواجهة السؤال التالي: من هو محمد بن مسلمة الذي يحاولون إيجاد فضائل له؟

هوية محمد بن مسلمة الحقيقية في التاريخ

إنّ محمد بن مسلمة، في الحقيقة، هو من المنافقين الذين خالفوا أمر رسول اللهﷺ وقعدوا في المدينة. يقول بعضهم: إنه استأذن رسول اللهﷺ في القعود[1]، ولكننا ذكرنا أنّ رسول اللهﷺ لم يكن يجبر أحداً على الخروج معه وأنّ إذنه بالبقاء لا يدلّ على صدق من يأذن له.

لقد كان بين الأنصار جماعة من أركان بيعة أبي بكر، منهم النعمان بن بشير وعبيد بن صائبة ومحمد بن مسلمة؛ وكان من بين الأشخاص الذين هاجموا بيت فاطمة الزهراء؈، وهو نفسه الذي أخذ سيف الزبير وكسره، وبعد ذلك بذل جهوداً مضنية في تثبيت خلافة أبي بكر، ويمكن القول بثقة: إنّ جهاز الخلافة مدين لأمثال محمد بن مسلمة بالكثير.

في عملية المؤاخاة، كان النبيّ الأكرمﷺ يؤاخي بين كل اثنين يجد بينهما تجانساً، لذلك ادخر علياً؈ لنفسه ليكون أخاً له. واللافت للنظر أنه اختار أباعبيدة الجراح ليكون أخاً لمحمد بن مسلمة.[2]

وهكذا لم يكن من الصعب على الذين ملأوا صفحات التاريخ بأكبر التحريفات

---

١. ابن حجر، **الإصابة**: ٦/ ٢٨.

٢. ابن سعد، **الطبقات الكبرى**: ٣/ ٤٤٣.

حتى غيّروا وجهه، أن يجعلوا من مثلبةِ قعود محمد بن مسلمة عن الجهاد فضيلةَ استخلافٍ من النبيّ الأكرمﷺ له على المدينة، وكان ذلك أصغر مكافأة له على الخدمات التي قدمها لجهاز الخلافة.

إثبات استخلاف أميرالمؤمنينﷺ على المدينة

بعد أن ثبت أنّ ادّعاء استخلاف محمد بن مسلمة على المدينة كانت الغاية منه صرف الأنظار عن فضيلة كبرى لأميرالمؤمنينﷺ وكذلك لتلميع صورة محمد بن مسلمة ومحو وصمة النفاق عنه، نتناول الآن جانباً من الأخبار الكثيرة المنبثة في مصادر العامة عن حديث المنزلة، ونورد أسماء عدد من كبار علماء أهل السنة ومحدثيهم ممن رجّحوا في كتبهم استخلاف أميرالمؤمنينﷺ.

وإنّ من بين من يعتقدون باستخلاف النبيّﷺ لعليﷺ، جماعة يرون أنه استخلفه على أهله وعياله ولم يولّه على المدينة، وهم بهذا يحاولون اختزال دلالة حديث المنزلة. وسنورد هنا أقوال العلماء الذين يقرون باستخلاف أميرالمؤمنينﷺ على المدينة علاوة على ذكر أسماء الذين يرجحون استخلاف عليﷺ على غيره.

١ـ أحمد بن محمد، أبوالعباس شهاب الدين القسطلاني الأشعري الشافعي.

٢ـ محمد بن عبدالباقي بن يوسف الزُّرقاني الأشعري المالكي.

في بداية شرحه لكتاب «المواهب اللدنية» يورد الزرقاني المالكي أقوال اثنين من كبار علماء السنّة حول استخلاف النبيّ الأكرمﷺ فيقول:

«(واستخلف على المدينة) فيما قال ابن هشام (محمد بن مسلمة) الأنصاري.

(قال الدمياطي)[١]، تبعاً للواقدي: (وهو عندنا أثبت ممن) أي: من قول من قال ـ أو قائل ـ استخلافه أثبت ممن (قال: استخلف غيره) عليّاً، أو سباعاً، أو ابن أم مكتوم».

ثم يقيم الزرقاني دليلين على رد كلام ابن هشام والواقدي:

في دليله الأول يستند إلى الأحاديث الصحيحة الواردة في استخلاف علي بن أبي طالب‌عليه السلام ويقول:

«(و) لكن (قال الحافظ زين الدين العراقي[٢] في ترجمة علي بن أبي طالب من شرح التقريب[٣]: لم يتخلف) علي [عليه السلام] (عن المشاهد) كلها، بل حضرها معه صلى الله عليه [وآله] وسلم وخيبر، وإن تخلف في ابتدائها العذرة فقد حضر معظمها، بحيث كان الفتح على يديه (إلا تبوك، فإنّ النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم خلفه على المدينة)، كما رواه عبدالرزاق في مصنفه بسند صحيح عن سعد بن أبي وقاص...».

ثم يورد الزرقاني حديث سعد بن أبي وقاص من مصنف عبدالرزاق[٤]، ومرسل عطاء بن أبي رباح وابن إسحاق ويتناوله بالتحليل:

«ان رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم لما خرج إلى تبوك

---

١. الحافظ عبدالمؤمن بن خلف، أبومحمد شرف الدين الدمياطي الأشعري الشافعي.

٢. الحافظ زين الدين العراقي عبدالرحيم بن الحسين، أبوالفضل الأشعري الشافعي.

٣. انظر: العراقي، **طرح التثريب في شرح التقريب**: ١/ ٨٥ ـ ٨٦؛ الدياربكري، **تاريخ الخميس**: ٢/ ١٢٥؛ العصامي، **سمط النجوم العوالي**: ٢/ ٢٩٢.

٤. عبدالرزاق، **المصنف**: ٥/ ٤٠٥ ـ ٤٠٦.

استخلف على المدينة علي بن أبي طالب، وخلفه أيضاً على عياله فقال: يا علي، اخلفني في أهلي، واضرب، وخذ، وعظ. ثم دعا نساءه فقال: اسمعن لعلي وأطِعنَ.

رواه الحاكم في الاكليل من مرسل عطاء بن أبي رباح».

ويشير الزرقاني إلى رواية أخرى ينقلها ابن إسحاق عن سعد بن أبي وقاص، فيقول:

«وأخرج ابن إسحاق، عن سعد بن أبي وقاص: خلف صلى الله عليه [وآله] وسلم علياً على أهله وأمره بالإقامة فيهم، فأرجف به المنافقون، وقالوا: ما خلفه إلا استثقالاً له وتخففاً، فأخذ علي سلاحه ثم أتى رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم وهو نازل بالجرف، فقال: يا نبي الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتني لأنك استثقلتني وتخففت مني. فقال: كذبوا، ولكن خلفتك لما تركت ورائي فارجع في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي. فرجع إلى المدينة، ومضى صلى الله عليه [وآله] وسلم على سفره».

ثم يشرح الزرقاني هذه الأحاديث بقوله:

«(وقال يومئذٍ) أي: زمن استخلافه، لما تراه أن قوله ذاك له لما لحقه بالجرف، فأراد باليوم القطعة من الزمن (أنت مني) وفي رواية لهما أيضاً: أما ترضي أن تكون مني (بمنزلة هارون من موسي) ... (إلا أنه لا نبي بعدي) ... (وهو) أي: كونه خلفه على المدينة وعلى عياله معاً ظاهر ما (في الصحيحين) البخاري هنا وفي المناقب ومسلم في

الفضائل والنسائي وابن ماجة، كلهم (من حديث سعد بن أبي وقاص) ولفظه: إنّ رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم خرج إلى تبوك واستخلف علياً، فقال: أتخلفني في الصبيان والنساء؟ قال: ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي. زاد أحمد فقال علي: رضيت، ثم رضيتُ. فقوله: استخلف علياً ظاهر في أنه على المدينة، وتأيد هذا الظاهر بورود هذه اللفظة في نفس حديث سعد في مصنف عبدالرزاق، والروايات يفسر بعضها بعضاً، لا سيما والمخرج متحد».

واضح أنّ هذا الحديث صرّح به رسول الله وهو في الجرف.

ثم يقيم الزرقاني الدليل الثاني على استخلاف أميرالمؤمنين عليه السلام على المدينة استناداً إلى تصريح كبار محدّثي أهل السنة، ويرجّح كلامَ المحدثين على المؤرخين أمثال الواقدي وابن هشام، ويقول:

«ومن ثم جزم الحافظ العراقي الذي (انتهى) كلامه بعزوه لهما استخلافه على المدينة. (ورجحه) الإمام الحافظ (ابن عبدالبر) وتبعه الحافظ ابن دحية وقطع به المصنف [القسطلاني] في شرح البخاري؛ لأن ما في أرفع الصحيح لا معدل عنه. وأما الدمياطي فقد مرّ عنه أنه كان لما ألّف السيرة سيرياً محضاً يتبعهم ولو خالف الأحاديث الصحيحة، فتبع هنا الواقدي في ترجيحه ... (وقيل استخلف سباع) ... (ابن عُرفُطة) ... حكى هذا القول ابن هشام، عن عبدالعزيز بن محمد الدراوردي. ويقال: إنه استخلف ابن أم مكتوم. حكى الأقوال الأربعة الواقدي، وقد علمت أنّ أرجحها «علي»

لصحة الحديث به وترجيح جهابذة الحفاظ له، فناهيك بابن عبدالبر، وابن دحية، والعراقي...».[١]

بالنظر إلى هذه الأحاديث يجزم الحافظ العراقي القبول بأنّ النبيّ الأكرمﷺ استخلف علياًؑ والياً على المدينة. ولهذا السبب يرجح الإمام الحافظ ابن عبدالبر استخلاف أميرالمؤمنينؑ على غيره. وتبعه على رأيه الحافظ ابن دحية. كذلك يرى ذلك مصنف «المواهب اللدنية» ـ أي: القسطلاني في كتاب «إرشاد الساري في شرح البخاري»[٢] ـ، لأنه لا رواية تعدل ما ورد في أعلى درجات تصحيح البخاري. أما الدمياطي، فإنه يتبع كتّاب السير وإن تعارضت أقوالهم مع الأحاديث الصحيحة، لأنه منهم؛ لذا نراه هنا يتبع الواقدي.

يرى البعض أنّ رسول اللهﷺ استخلف سباع بن عرفطة والياً على المدينة. هذا القول يحكيه ابن هشام عن عبدالعزيز بن محمد الدراوردي. وهناك من يقول: إنّ النبيّ الأكرمﷺ استخلف ابن أم مكتوم على المدينة.

هذه الأقوال الأربعة [عليؑ، ومحمد بن مسلمة، وسباع بن عرفطة، وابن أم مكتوم] نقلها الواقدي. ولكنك علمت أنّ أرجح الأقوال، هو ما نقله كبار الحفاظ، وهو استخلاف أميرالمؤمنينؑ، ويكفي أن يكون ابن عبدالبر وابن دحية والعراقي قالوا به.

٣ ـ الحافظ عمر بن الحسن، أبوالخطاب بن دحية الكلبي الأندلسي.

---

١. الزرقاني، **شرح المواهب**: ٤/ ٧٩ ـ ٨١. وانظر: القسطلاني، **المواهب اللدنية**: ١/ ٤٢١ ـ ٤٢٢.

٢. انظر: القسطلاني، **إرشاد الساري**: ٦/ ٤٥٠ ـ ٤٥١.

٤ ـ الحافظ عبدالرحيم بن الحسين، أبوالفضل زين الدين العراقي الشافعي.

٥ ـ الحافظ محمود بن أحمد، أبومحمد بدر الدين العيني الحنفي.[١]

٦ ـ الحافظ يحيى بن شرف، أبوزكريا محيي الدين النووي الأشعري الشافعي.[٢]

٧ ـ محمد بن خلفة، أبوعبدالله الوشتاني المالكي.[٣]

هؤلاء الثلاثة ضمن الذين صرّحوا في كتبهم باستخلاف أميرالمؤمنين عليه السلام في المدينة.

٨ ـ محمد بن يوسف بن عمر، أبوعبدالله السنوسي الحسني المالكي.

وله قول شبيه بقول «الأُبّي» في شرح حديث المنزلة.[٤]

٩ ـ الحافظ محمد بن عبدالله، أبوبكر بن العربي الاشبيلي المالكي.

يقول في شرح حديث المنزلة: «أراد به أنت [يا أميرالمؤمنين] خليفتي بالمدينة».[٥]

١٠ ـ الحافظ محمد عبدالرحمن بن عبدالرحيم، أبوالعلى المباركفوري.

في شرحه لحديث المنزلة يقول: إنّ الحديث صدر عن رسول الله صلى الله عليه وآله عند ما جعل أميرالمؤمنين عليه السلام خليفة له في المدينة.[٦]

---

١. العيني، عمدة القاري: ١٨/ ٤٦.

٢. النووي، شرح صحيح مسلم: ١٥/ ١٧٤.

٣. الوشتاني، إكمال إكمال المعلم: ٦/ ٢٢١.

٤. السنوسي، مكمل إكمال إكمال المعلم: ٦/ ٢٢١.

٥. الإشبيلي، عارضة الأحوذي: ١٣/ ١٧٢.

٦. المباركفوري، تحفة الأحوذي: ١٠/ ٢٢٩.

١١ ـ الحافظ يوسف بن عبدالله، أبوعمر بن عبدالبر القرطبي الأشعري المالكي.

يقول في شرح حال أميرالمؤمنين عليه السلام:

«... ولم يتخلف عن مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم مذ قدم المدينة، إلا تبوك، فإنه خلفه رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم على المدينة وعلى عياله بعده في غزوة تبوك، وقال له: أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي.

وروى قوله صلى الله عليه [وآله] وسلم: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى» جماعة من الصحابة، وهو من أثبت الآثار وأصحها، رواه عن النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم سعد بن أبي وقاص. وطرق حديث سعد فيه كثيرة جداً قد ذكرها ابن أبي خيثمة [أحمد بن زهير أبي خيثمة النسائي البغدادي] وغيره، ورواه ابن عباس، وأبوسعيد الخدري، وأم سلمة، وأسماء بنت عميس، وجابر بن عبدالله، وجماعة يطول ذكرهم».[1]

ويقول كذلك في كتاب آخر:

«وخرج رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم وضرب عسكره على باب المدينة واستعمل عليها محمد بن مسلمة، وقيل: بل سباع بن عرفطة، وقيل: بل خلف عليها علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو الأثبت أنّ رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم خلف علياً في غزوة تبوك فقال المنافقون: استثقله، فذكر ذلك علي رضوان الله

---

١. ابن عبدالبر، **الاستيعاب**: ٣/ ١٠٩٧.

عليه لرسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم في خبر سعد، فقال: كذبوا، إنما خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك فأنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي. والآثار بذلك متواترة صحاح قد ذكرت كثيراً منها في غير هذا الموضع».[١]

١٢ ـ الحافظ أحمد بن علي بن محمد، أبوالفضل شهاب الدين بن حجر العسقلاني الشافعي.

يوجز كلام ابن عبدالبر بالقول:

«وقد أجمعوا أنه [أميرالمؤمنين‎ﷺ] أول من صلى القبلتين، وهاجر، وشهد بدراً وأُحداً وسائر المشاهد، وأنه أبلى ببدر وأحد والخندق وخيبر البلاء العظيم، وكان لواء رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم بيده في مواطن كثيرة، ولم يتخلف إلا في تبوك، خلفه رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم على المدينة وقال له: أنت مني بمنزلة هارون من موسى الا أنه لا نبي بعدي...».[٢]

١٣ ـ محمد بن عبدالوهاب بن سليمان التميمي النجدي الحنبلي ـ مؤسس الفرقة الوهابية ـ، يقول:

«فلما خرج رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم ضرب عسكره على ثنية الوداع. قال ابن هشام: واستعمل على المدينة محمد بن

---

١. ابن عبدالبر، **الدرر في مختصر المغازي والسير**: ص٢٣٩.

٢. ابن حجر، **تهذيب التهذيب**: ٧/ ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

مسلمة الأنصاري. وذكر الدراوردي أنّه استعمل سباع بن عرفطة. وخلف رسول الله على أهله علي بن أبي طالب وأمره بالإقامة فيهم، فارجف به المنافقون وقالوا: ما خلفه إلا استثقالاً منه وتخففاً منه، فلما قال ذلك المنافقون أخذ سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله وهو نازل بالجرف، فقال: يا نبي الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استثقلتني وتخففت مني. قال: كذبوا، ولكني خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنّه لا نبي بعدي. فرجع إلى المدينة.

قلت [محمد بن عبدالوهاب]: وفي الصحيح عن سعد: أنّ رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم خرج إلى تبوك واستخلف علياً، فقال: أتخلفني في الصبيان والنساء؟ قال: ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي؟ انتهى. فهذا يدل على أنّه استخلف علياً على المدينة كما رجحه ابن عبدالبر، وجزم ابن القيم بأنّ خلافة علي خاصة على الأهل، وأما الاستخلاف العام فهو لمحمد بن مسلمة كما تقدم».[1]

١٤ ـ محمد بن أحمد بن أبي بكر، أبوعبدالله الأنصاري القرطبي المالكي.

يقول القرطبي في تفسيره:

---

١. محمد بن عبدالوهاب، مختصر سيرة الرسول: ص٣٩٣.

«وفي هذه الغزاة خلف [النبيّ الأكرمﷺ] علياً على المدينة، فقال المنافقون: خلفه بغضاً له، فخرج خلف النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم وأخبره، فقال عليه السلام: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى...».[١]

١٥ ـ عبدالرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي الأشعري الشافعي، يقول:

«... وشهد مع رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم بدراً وأحداً وسائر المشاهد إلا تبوك، فإنّ النبيّ صلى الله عليه [وآله] وسلم استخلفه على المدينة...».[٢]

١٦ ـ أحمد بن عبدالحليم، أبوالعباس تقي الدين ابن تيمية الحراني الدمشقي الحنبلي.[٣]

١٧ ـ محمد بن أحمد بن عثمان، أبوعبدالله شمس الدين الذهبي تلميذ ابن تيمية.[٤]

١٨ ـ أحمد بن إسحاق (أبي يعقوب) بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي.

يقول اليعقوبي كذلك:

«وخرج رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم غرة رجب سنة تسع واستخلف علياً على المدينة...».[٥]

---

١. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٢٨٠.

٢. السيوطي، تاريخ الخلفاء: ص٢٦٧.

٣. ابن تيمية، منهاج السنّة: ٤/ ٢٧٢ ـ ٢٧٤.

٤. الذهبي، المنتقى من منهاج الاعتدال: ص ٤٦٨ ـ ٤٧٠.

٥. اليعقوبي، التاريخ: ٢/ ٦٧.

١٩ ـ الحافظ القاضي عياض بن موسى، أبوالفضل اليحصبي السبتي الأشعري المالكي.

«... لأنّ النبيّ صلى الله عليه [وآله] وسلم إنّما قال هذا حين استخلفه [علياًﷺ] على المدينة في غزوة تبوك...».[١]

٢٠ ـ الشيخ محمد هاشم بن عبدالغفور الحارثي السندي الحنفي، يقول:

«... في أيام خروجه صلى الله عليه [وآله] وسلم إلى تبوك، استخلف على المدينة علي بن أبي طالب... فكره علي التخلف عن رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم وقال: أتخلفني في النساء والصبيان؟ قال: يا علي أما ترضى أن تكون أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي؟ رواه الشيخان [البخاري ومسلم] وغيرهما عن سعد بن أبي وقاص...».[٢]

٢١ ـ علي بن الحسين بن علي، أبوالحسن المسعودي.

يقول المسعودي:

«... وكان استخلف عليها [المدينة] علي بن أبي طالب [ﷺ]، وقد ذهب قوم إلى أنه استخلف عليها أبارهم الغفاريّ وعلى أهله علي بن أبي طالب، وقيل: بل استخلف عليها ابن أم مكتوم، وقيل: محمد بن مسلمة، وقيل: سباع بن عرفطة، وتخلف عبدالله بن أبي معسكراً في

---

١. ملا علي القاري، مرقاة المفاتيح في شرح المصابيح: ١١/ ٢٤٠.

٢. السندي، بذل القوة في حوادث سني النبوة: ص ٢٦٧.

الموضع المعروف بالجرف في قطعة من الجيش، وفي هذه الغزاة قال رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم لعلي بن أبي طالب لما خلفه بالمدينة ولم يخلفه قبلها، وقد رأى كراهية علي لذلك: أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي. والأشهر أنّ رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم استخلف علياً [عليه السلام] على المدينة، ليكون مع من ذكرنا من المتخلفين، وقد ذكرنا السبب الّذي له ومن أجله خلفه، وسبب تخلف عبدالله بن أبي فيما ذكرنا في كتاب (الاستذكار لما جرى في سالف الاعصار)».[١]

٢٢ ـ محمد بن أحمد بن عثمان، شمس الدين أبوعبدالله الذهبي، الحنبلي.

ذكر الذهبي:

«قال الشعبي: استخلف النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم عمرو بن أم مكتوم، يؤم الناس، وكان ضريراً، وذلك في غزوة تبوك، كذا قال. والمحفوظ: أنّ النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم إنما استعمل على المدينة عامئذ علي بن أبي طالب».[٢]

يشير الذهبي هنا إلى الحديث رقم ٤٤١٦ الذي ينقله البخاري في المغازي، باب غزوة تبوك.

٢٣ ـ أحمد بن الحسين بن علي الحافظ، أبوبكر البيهقي الأشعري الشافعي.

---

١. المسعودي، التنبيه والاشراف: ص٢٣٥ ـ ٢٣٦.

٢. الذهبي، سير أعلام النبلاء: ١/ ٣٦١.

يقول البيهقي:

«وأما حديث سعد بن أبي وقاص أنّ النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم خلف علياً [عليه السلام] في غزوة تبوك، فقال: يا رسول الله، أتخلفني في النساء والصبيان؟ فقال: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي ـ وفي رواية: معي ـ، فإنه لا يعني به استخلافه بعد وفاته، وإنما يعني به استخلافه على المدينة عند خروجه إلى غزوة تبوك كما استخلف موسى هارون عند خروجه إلى الطور...».[١]

كذلك يقول في حديثه عن تبوك:

«باب ذكر التاريخ لغزوة تبوك وتأهب رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم وأصحابه رضي الله عنهم للخروج إليه... واستخلاف النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه على المدينة وتخلف من تخلف عنه لعذر أو نفاق في تلك الغزوة...».[٢]

٢٤ ـ الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير، أبوالفداء، عماد الدين، ابن كثير الدمشقي الحنبلي.

---

١. البيهقي، **الاعتقاد**: ص ٣٥٦.

٢. البيهقي، **دلائل النبوة**: ٥/ ٢١٢.

كان ابن كثير في العقيدة حنبلياً وفي الفقه شافعياً، يقول:

«... ولما خرج رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم إلى تبوك واستخلفه [عليعليه السلام] على المدينة، قال له: يا رسول الله، أتخلفني مع النساء والصبيان؟ فقال: ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي».[١]

٢٥ ـ مسعود بن عمر بن عبدالله، سعد الدين التفتازاني، يقول:

«... بأن النبيّ صلى الله عليه [وآله] وسلم لما خرج إلى غزوة تبوك استخلف علياً على المدينة، فأكثر أهل النفاق في ذلك، فقال علي: يا رسول الله، أتتركني مع الاختلاف؟ فقال صلى الله عليه [وآله] وسلم: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي».[٢]

٢٦ ـ السيد أحمد بن زيني دحلان.

كان السيد أحمد بن زيني دحلان مفتي الشافعية في مكة المكرمة، يقول في كتابه:

«واستخلف صلى الله عليه [وآله] وسلم على المدينة علي بن أبي طالب [عليه السلام]، وخلفه أيضاً على أهله وعياله، فأرجف به المنافقون وقالوا: ما خلفه إلا استثقالاً له وتخففاً، فأخذ علي [عليه السلام] سلاحه ثم أتى رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم وهو نازل بالجرف، فقال: يا نبيّ الله، زعم المنافقون أنك انما خلفتني لأنك استثقلت

---

١. ابن كثير، **البداية والنهاية**: ٧/ ٢٥١.

٢. التفتازاني، **شرح المقاصد**: ٢/ ٢٩١.

منى وتخففت مني. فقال: كذبوا، ولكن خلفتك لما تركت ورائي فارجع في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، فرجع إلى المدينة...».[١]

ننهي هذا الفصل ويحدونا الأمل بأن يكون القارئ العزيز قد تكونت لديه صورة واضحة عن بعض الأوضاع التي كان يعيشها المجتمع الإسلامي قبيل غزوة تبوك، المجتمع الذي كان متأثراً بشكل محزن بحركة النفاق التي نشطت في السنوات الأخيرة من عمر النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

---

١. السيد أحمد بن زيني دحلان، السيرة النبوية والآثار المحمدية: ٢/ ١٢٦.

الفصل الثالث:

ما فعله المنافقون خلال الذهاب إلى تبوك والعودة منها

- ما فعله المنافقون خلال الذهاب إلى تبوك
- العودة من تبوك والوجه الحقيقي للنفاق

القسم الأول: ما فعله المنافقون خلال الذهاب إلى تبوك

رغم كل الظروف المتذبذبة التي عاشتها المدينة خلال التجهيز لغزوة تبوك، فقد تمكن النبيّ الأكرمﷺ من الانطلاق بجيشه إلى الجهاد. فبالإضافة إلى الأعداد الكبيرة من المنافقين الذين عصوا الرسولﷺ وتخلفوا عن الجهاد، كان هناك من تخلّف لا بسبب الشك والترديد، بل بسبب التخاذل وانعدام إرادة القتال.

ويقول ابن إسحاق: كان من بين أولئك «كعب بن مالك بن أبي كعب»[1] من بني سلمة، و«مرارة بن ربيع» من بني عمرو بن عوف، و«هلال بن أمية» من بني واقف، و«أبوخيثمة» من بني سالم بن عوف.[2]

فأبوخيثمة، مثلاً، كان من الأنصار ولكنه تقاعس عن الالتحاق بجيش رسول اللهﷺ كسلاً وطلباً للعافية. ففي يوم شديد الحرّ بعد انطلاق جيش رسول اللهﷺ، ذهب إلى مزرعته فعرض له مشهد ذكّره برسول اللهﷺ وبالصعوبات التي سيواجهها جيشه في الطريق إلى تبوك؛ لقد رأى نساءه وقد تزيّنّ وهيأن له موائد تحت ظلال النخل ووضعن عليها أواني الماء العذب ووقفن لخدمته.

---

١. سنذكر قريباً أنّ كعب بن مالك كان أحد الثلاثة الذين ذكر القرآن أنهم خُلِّفوا. والحقيقة أنه كان منافقاً من منافقي المدينة، أصبح فيما بعد من أنصار أبي بكر وعمر، وأنّ كلام ابن إسحاق مجرد كذب.

٢. ابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ١٦٢.

فتذكر أبوخيثمة رسول الله ﷺ في تلك اللحظة فقال لنفسه: لا طاب لي جلوسي في الظل بين نسائي ورسول الله يكابد حر الصحراء الحارقة، ثم نهض واتخذ سبيل الإنابة والتحق برسول الله ﷺ معتذراً طالباً العفو، فعفى عنه النبيّ الأكرم ﷺ ودعا له بالخير.[1]

ولكن عدد أمثال هذا من انضموا إلى جيش النبيّ الأكرم ﷺ في أثناء الطريق كان قليلاً جداً. بالمقابل، فقد ترك الكثير من المنافقين جيش المسلمين أثناء المسير إلى تبوك وعادوا إلى المدينة.

الانسحاب التدريجي من الجيش

لقد بان أول مؤشر لوجود المنافقين في صفوف جيش المسلمين، عند ما بدأ عدد المقاتلين يتناقص من منزل إلى منزل، فقد أخذ الكثير من الأشخاص باعتزال جيش النبيّ ﷺ والعودة إلى المدينة.

ويشير ابن إسحاق إلى هذه النقطة بالقول:

> «ثم مضى رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم سائراً [إلى تبوك] فجعل يتخلف عنه الرجل، فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان، فيقول: دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه...».[2]

---

١. ابن هشام، **السيرة النبوية**: ٤/ ١٦٣ ـ ١٦٤.

٢. ابن هشام، **السيرة النبوية**: ٤/ ١٦٧؛ الواقدي، **المغازي**: ٣/ ١٠٠٠؛ ابن حبان، **الثقات**: ٢/ ٩٤.

واضح أنّ قعود هؤلاء المتخلفين لم يكن كله بسبب عجزهم وإرهاقهم، ويتبين من تعليق رسول اللهﷺ على انسحاب كل واحد منهم بالقول: «فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه» أنه لم يكن يلتمس فيهم خيراً، بل إنه لم يكن يأمن شرهم على نفسه.

وهنا يبرز هذا السؤال: إذا كان المنافقون عازمين على ترك النبيّ الأكرمﷺ فما الذي جعلهم يخرجون معه من المدينة أصلاً؟ وقد سبق أن قدّم الواقدي إجابة للسؤال.

ويمكننا القول: إنّ المنافقين عند ما كانوا ييأسون من الغنائم أو يعتبرونها لا تتناسب مع ما يبذلونه من جهد من أجلها، كانوا يتركون الأمر ويعودون إلى المدينة.[1] هذه النقاط تصحح رؤيتنا للمجتمع المعاصر لرسول اللهﷺ، المجتمع الذي كان يفضّل غنيمة الحرب على غنيمة صحبة النبيّ الأكرمﷺ.

والدليل الآخر الدال على أنّ الانسحابات المتتالية من جيش النبيّ الأكرمﷺ كانت بسبب النفاق هو أنّ من بين كل المنسحبين والمتخلفين عن رسول اللهﷺ لم يعد للالتحاق به إلا رجل واحد، لأنه لو كان سبب الانسحاب الشعور بالتعب والضعف فإنه كان من الممكن للمنسحب أن يلتحق بالجيش بعد أن يستريح ويجدد قواه، ولكنّ ذلك لم يحدث إلا مع أبي ذر. كان أبوذر من الذين تأخروا عن الجيش بسبب وهن ناقته، فحمل أشياءه على عاتقه ولحق بركب رسول اللهﷺ، وكان يستريح في أحد

---

١. الواقدي، المغازي: ٣/ ١٠٠٠.

المنازل فهتف أحد الراصدين: يا رسول الله هناك رجل قادم إلينا ماشياً. فقال رسول الله ﷺ: إنه أبوذر. فنظروا جيداً، فقالوا: والله إنه هو. فقال رسول الله ﷺ: يرحم الله أباذر، يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده.[١]

عوائق في أرض «الحِجر»

يعتقد البعض أنّ عدد المنافقين الذين رافقوا رسول الله ﷺ في خروجه إلى تبوك كان أكبر من عددهم في الغزوات السابقة لها.[٢]

ولو لم تصلنا أية أخبار عن هذا الموضوع، يكفينا كثرة العوائق التي واجهها جيش رسول الله ﷺ في طريقه إلى تبوك دليلاً على كثرة عددهم. لقد فعلوا أشياء كثيرة لإعاقة مسير الجيش، فلوثوا مياه المنازل التي في الطريق، وقاموا بحركات لتخويف المقاتلين وخاصة في الليل، وبثوا الإشاعات المغرضة، وسخروا من النبيّ ﷺ، وأشياء أخرى.

---

١. البيهقي، **دلائل النبوة**: ٥/ ٢٢١ ـ ٢٢٢؛ الحاكم النيسابوري، **المستدرك**: ٣/ ٥٢.

٢. ابن سعد، **الطبقات الكبرى**: ٤/ ٣٧٦؛ اللافت للنظر أنّ كتب السيرة بعد إيراد قول النبيّ ﷺ عن أبي ذر تذكر تحقّق قوله ﷺ عليه في أواخر حياته حيث نفاه عثمان بن عفان إلى «الربذة» التي مات فيها وحيداً. يقول الحاكم في المستدرك: «فضرب الدهر من ضربته، وسير أبوذر إلى الربذة، فلما حضره الموت أوصى امرأته وغلامه إذا مت فاغسلاني وكفناني، ثم احملاني فضعاني على قارعة الطريق، فأول ركب يمرون بكم فقولوا: هذا أبوذر. فلما مات فعلوا به كذلك فاطلع ركب، فما علموا به حتى كادت ركائبهم تطأ سريره، فإذا ابن مسعود في رهط من أهل الكوفة، فقالوا: ما هذا؟ فقيل: جنازة أبي ذر. فاستهل ابن مسعود يبكي، فقال: صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يرحم الله أباذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده. فنزل فوليه بنفسه حتى أجنه. فلما قدموا المدينة ذكر لعثمان قول عبدالله وما ولي منه». يقول الحاكم النيسابوري بعد نقل هذه الرواية: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه [البخاري ومسلم]». (الحاكم النيسابوري، **المستدرك**: ٣/ ٥٢).

وكان الهدف منها جميعاً تفريق الناس وبث الذعر وإضعاف الروح المعنوي لدى المسلمين، وكلها مؤشرات على وجود المنافقين بين صفوف المسلمين في غزوة تبوك.

وجرى أحد أعمال الإعاقة تلك في منطقة «الحجر».

ألف) تسميم مياه أبار الحجر

«الحجر» هو اسم منطقة تنسب إلى النبيّ شعيب. لمّا وصلها جيش المسلمين أمر النبيّ الأكرمﷺ رجاله بعدم الشرب من ماء آبارها.

فعند ما استخرج الناس ماءاً من الآبار، قال رسول اللهﷺ: لا تشربوا من مائها شيئاً، ولا تتوضؤوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئاً.[1]

ويبدو أنّ السبب في ذلك كان تلوث تلك المياه أو نجاستها.

ولا يستبعد أن يكون المنافقون هم الذين قاموا بتلويثه أو تنجيسه، خاصة وأنّ خزين الماء لدى الجيش كان على وشك النفاد وكان الجميع ينتظرون الوصول إلى ذلك المكان للتزود بالماء.

ب) محاولة اغتيال النبيّﷺ في الحجر

أمضى رسول اللهﷺ ليلته في الحجر، وكان قد أمر جنوده بأن لا يخرج أحد من المعسكر وحده ليلاً.[2] ولا شك أنّ ذلك الأمر كان نابعاً من إحساس بخطر يتهدد المسلمين.

---

١. ابن هشام، **السيرة النبوية**: ٤/ ١٦٤ ـ ١٦٦؛ ابن حبان، **الثقات**: ٢/ ٩٣.

٢. ابن هشام، **السيرة النبوية**: ٤/ ١٦٤ ـ ١٦٥؛ البيهقي، **دلائل النبوة**: ٥/ ٢٤٠.

فالتزم جميع الرجال بأمر النبيّ الأكرمﷺ عدا اثنين من بني ساعدة خرج أحدهما لقضاء حاجته في الخلاء وخرج الآخر يبحث عن ناقته.

وعند الصباح أُخبر النبيّﷺ بأنّ الأول وُجد مخنوقاً والثاني رمت به الريح إلى جبل طيء، فدعا رسول اللهﷺ للأول فشفي، أما الثاني فجاء إلى النبيّﷺ بعد عودة الجيش من تبوك.[١]

ولا يستبعد أنّ الرجل الذي أشيع أنّ الريح قذفته إلى جبل طيء كان من المنافقين وأنه اختبأ في مكان ما، وإنّ عودته إلى المدينة بعد عودة الجيش من تبوك تقوّي احتمال وجود مؤامرة من قبل المنافقين في هذا الأمر؛ إذ كان هدف المنافقين من وراء افتعال مثل هذه الحوادث وترويج مثل تلك الإشاعات، نشر الخوف في صفوف المسلمين وإضعاف روحهم المعنوي. كانت خطتهم أن يقتلوا كل من يخرج من المعسكر ليلاً ثم يختلقوا قصة يبثونها بين الناس في الصباح ليخيفوهم.

اللافت للنظر في الأمر أنّ الراوي يطلب من عباس بن سهل ـ وكان شاهد عيان لما حدث ـ أن يخبره باسمي الرجلين، فيخبره ولكنه يطلب منه أن يُبقي الأمر سراً ولا يبوح بهما لأحد.[٢] وهكذا دفن الاسمان في صدر الراوي للأبد، على أنّ إصرار عباس بن سهل على الراوي على إخفاء الأسماء يقوّي الظن بأنّ الرجلين ـ وخاصة الرجل الثاني ـ كانا من المنافقين.

---

١. ابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ١٦٤ ـ ١٦٥.

٢. المصدر نفسه.

العصيان في قضية عين تبوك

يمثل توفير الماء أهم شيء في صحراء الجزيرة الحارقة، خاصة عند ما يكون الماء لجيش قوامه ثلاثة آلاف رجل متوجهين للحرب بكامل تجهيزاتهم العسكرية، في هذه الحالة تكون المهمة في غاية الصعوبة. ولطالما استغل المنافقون هذه النقطة في محاربة جيش رسول الله ﷺ ولكنهم باؤوا بالفشل في كل مرة.

عند ما كان رسول الله ﷺ يقترب من «وادي المشفق» أخبر أصحابه بعين ماء في تلك المنطقة وأمر من يصل إليها أولاً أن لا يأخذ منها حتى يصلوا.

فأسرع عدد من المنافقين إلى تلك العين وسحبوا منها كل ما كان فيها من ماء حتى إذا وصل إليها رسول الله ﷺ وأصحابه لم يجدوا فيها ماءاً. فسأل الرسول ﷺ: من أخذ من هذا الماء؟ فقيل له: فلان وفلان و... فقال: ألم أنه عن أخذ الماء من العين حتى أصل إليها؟ ثم لعنهم؛ ثم ترجل من دابته ووضع يده تحت صخرة، وصب على نفسه شيئاً من الماء ودعا، فانفلقت الصخرة وسُمع منها صوت كالرعد وتدفق منها الماء، فشرب الناس وحملوا منه ما يحتاجون.[١]

هذه الحادثة التي تعتبر وثيقة عن محاولات المنافقين للقضاء على رسول الله ﷺ، هي في الوقت نفسه دليل على مستوى الجرأة التي بلغوها في التمرد عليه وعصيان أوامره والتصرف بمعزل عن إرادته وتوجيهاته. والغريب أنه لم يكن بين المقاتلين من يعترض عليهم أو يحاول منعهم.

---

١. انظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**: ٤/ ١٧٠ ـ ١٧١؛ ابن حبان، **الثقات**: ٢/ ٩٨؛ وجاء مضمون هذه الحكاية في موطأ مالك كذلك. (انظر: مالك، **الموطأ**: ١/ ١٤٣ ـ ١٤٤).

وأول فرضية تخطر بالبال في عدم مبالاة المسلمين بمخالفات المنافقين هي أنهم لم يكونوا رافضين أصلاً لتلك المخالفات، ومع هذا الافتراض يكون من الصعب جداً تمييز المسلم من المنافق.

بالمقابل فإنّ الآيات التي تتهم المسلمين بالارتداد إلى الجاهلية بعد رحيل رسول الله ﷺ عنهم تبدو سهلة التبرير، ولكن عدم اتخاذ المسلمين أي موقف حيال مخالفات المنافقين، ينطوي على افتراض متفائل أيضاً، وهو أنهم لم يكونوا ينظرون إليهم بصفتهم تياراً منحرفاً عنهم، بل بصفتهم شركاء لهم. من خلال هذه الرؤية يكون الموقف من المنافقين نابعاً من عامل الربح والخسارة للطرفين لا عامل الإيمان والتقوى.

إنكار معجزة رسول الله ﷺ

ذكرنا أنّ رسول الله ﷺ حذّر المسلمين من استعمال ماء آبار «مشفق»، وفي صباح اليوم التالي اشتكى الناس للرسول ﷺ من شح الماء، فرفع يديه بالدعاء، فأرسل الله غيمة أنزلت عليهم غيثاً أرواهم ودوابهم وسد حاجتهم.[١]

يبين الواقدي تلك المعجزة بمزيد من التفصيل، فيقول:

> «قال عبدالله بن أبي حَدْرَد: فرأيت رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم استقبل القبلة فدعا ـ ولا والله ما أرى في السماء سحاباً ـ فما برح رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم يدعو حتى إني لأنظر إلى

---

١. ابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ١٦٤ ـ ١٦٦.

السحاب تأتلف من كل ناحية، فما رام مقامه حتى سحت علينا السماء بالرواء، فكأني أسمع تكبير رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم في المطر.

ثم كشف الله السماء عنا من ساعتها وإن الأرض إلا غدر تناخس، فسقي الناس وارتووا عن آخرهم، وأسمع رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم يقول: أشهد أني رسول الله! فقلت لرجل من المنافقين: ويحك، أبعد هذا شيء؟ فقال: سحابة مارة! وهو أوس بن قيظي، ويقال: زيد بن اللصيت».[1]

مثل هذه الأخبار يدل على أنّ الناس كانوا على علاقة طبيعية مع المنافقين وكانوا يعرفونهم جيداً.

والشاهد على ذلك الخبر الذي ينقله الواقدي بعد هذا مباشرة عن محمود بن لبيد إذ يسأله الراوي: هل كان الناس يعلمون أنّ فيهم منافقين؟ فيجيب: ما كانوا يعرفونهم فحسب، بل كانوا يعرفون أنسابهم وأحسابهم كذلك. ثم يشير محمود بن لبيد عن قصة إنكار معجزة النبيّ الأكرمﷺ في تبوك ويضيف قول زيد بن ثابت، إنّ الرجل قال: إنما هي سحابة مارة، ولكنك تبالغ في الدفاع عنه (عن رسول اللهﷺ) لأنه قريبك.[2]

وسنتناول بالتفصيل الشواهد الدالة على أنّ المسلمين كانوا يعرفون المنافقين بأسمائهم وعناوينهم، ولكننا نكتفي هنا ـ بعد ذكر هذه الحادثة ـ بالقول إجمالاً بأنه

---

١. الواقدي، المغازي: ٣/ ١٠٠٨ ـ ١٠٠٩.

٢. الواقدي، المغازي: ٣/ ١٠٠٩.

يتضح أنّ الناس كانوا يعرفون المنافقين جيداً، وثانياً أنّ المنافقين لم يكونوا يتورعون عن إظهار نفاقهم، لدرجة أنهم كانوا يجاهرون بتكذيب معاجز النبيّ الأكرمﷺ على رؤوس الأشهاد ولا يخشون أحداً، والمرء إذا كان يتوقع ردة فعل جماعية على أفعاله وأقواله يكون حذراً في القيام بتلك الأفعال والأقوال.

على هذا، فإنّ امتلاك المنافقين الجرأة الكافية لإنكار معاجز النبيّ الأكرمﷺ في العلن، يكشف عن حقيقة مرّة هي المعاملة الطبيعية التي كان الناس يعاملونهم بها.

والمؤسف أنه كان من الصعوبة بمكان تمييز المسلم من المنافق في حياة النبيّ الأكرمﷺ لأنّ أغلب الناس كانوا منسجمين مع المنافقين، بل كانوا يتلوّنون معهم بألوانهم.

سوء استغلال حادثة ضياع ناقة النبيّ الأكرمﷺ

من المواقف الدالة على المعاملة الطبيعية التي كان المنافقون يحظون بها من عامة الناس، حادثة ضياع ناقة النبيّ الأكرمﷺ. فقد حدث أن نزل رسول اللهﷺ في أحد الأماكن في الطريق ولكن الشخص المكلف بعقل ناقته نسي أن يعقلها فضاعت الناقة، فانتشر الأصحاب للبحث عنها. وكان لعمارة بن حزم ـ وهو من أصحاب العقبة ومن البدريين ـ مرافق اسمه زيد بن اللصيت، ولما كان عمارة ملازماً لرسول اللهﷺ قال زيد لمن حوله: أليس يدّعي محمد أنه نبي ويخبر عن السماء، فكيف لا يعلم بمكان ناقته؟

وفي الجانب الآخر أخبر النبيّ الأكرمﷺ عمارة بما قاله زيد دون أن يذكر اسمه، وقال: والله لا أعلم إلا بما يعلمني به الله، ولقد أخبرني بمكان ناقتي وهي في وادي كذا

في موضع كذا وقد علق لجامها بشجرة. فذهب الأصحاب إلى هناك وجاؤوا بالناقة. فعاد عمارة بن حزم وقال لأصحابه: والله إنه لأمر عجيب، رسول الله ﷺ ينقل كلاماً أخبره به الله عن قائله ـ ونقل كلام زيد بن اللصيت ـ، فقال رجل لم يكن حاضراً عند رسول الله ﷺ وسمع كلام زيد: والله إنّ زيداً قال ذلك قبل أن تأتي. فهجم عمارة على زيد وضربه وقال: يا عباد الله مصيبة كبيرة تقع في مكاني وأنا لا أعلم! يا عدو الله اخرج من جماعتي ولا تصاحبني.

بعد أن يعرّف ابن هشام زيداً بأنه «ابن لصيب القينقاعي المنافق» يضيف نقلاً عن ابن إسحاق: «فزعم بعض الناس أنّ زيداً تاب بعد ذلك، وقال بعض الناس: لم يزل متهماً بشر [بالنفاق] حتى هلك».[1]

يُفهم من كلام ابن إسحاق أنّ زيداً ظل على نفاقه وأنّ تلك الحادثة لم تؤثر على قناعاته حتى آخر عمره.

ولكنّ الأهم من ذلك ـ كما قدّمنا ـ هو أنّ الظروف المحيطة بالمسلمين آنئذٍ كانت تسمح للمنافقين بالجهر بنفاقهم دون خوف من رادع. فتكذيب رسول الله ﷺ وإنكار نبوته ليسا من الأمور التي يجرؤ أحد على التصريح بها أمام الناس ما لم يكن آمناً جانبهم؛ لذا فإنّ تصريح زيد بما كان يعتقد به في حضور جماعة من المسلمين دليل على

---

١. ابن هشام، **السيرة النبوية**: ٤/ ١٦٦ ـ ١٦٧؛ الواقدي، **المغازي**: ٣/ ١٠٠٩ ـ ١٠١٠، وفيه: «...فقال رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم: إنّ منافقاً يقول: إنّ محمداً يزعم أنه نبي، وأنه يخبركم بأمر السماء ولا يدري أين ناقته؟!...» وفي آخره: «فقال زيد بن اللصيت: لكأني لم أسلم إلا اليوم! قد كنت شاكاً في محمد، وقد أصبحت وأنا فيه ذو بصيرة، وأشهد أنّه رسول الله! فزعم الناس أنه تاب، وكان خارجة بن زيد بن ثابت ينكر توبته ويقول : لم يزل فسلاً حتى مات».

أنه كان يشعر بالاطمئنان التام من العواقب، بل يحتمل أنّ عمارة نفسه كان على علم بنفاق زيد.

إنّ جرأة زيد تعود إلى اطمئنانه بالجو العام الذي أبدل غيرته الدينية بالعصبية الجاهلية، بحيث كان واثقاً من أن لا يشي به أحد عند رسول الله ﷺ أو عمارة، أو أنّ ردة فعل عمارة لن تكون شديدة إذا علم بالأمر.

وفي هذه الحادثة، لو لم يعترض رسول الله ﷺ على عمارة لما حدث شيء خاص، ولما أثبتت الحادثة في التاريخ؛ أما وقد اعترض رسول الله ﷺ على عمارة وأصبحت سمعة عمارة مهددة، فإنّ من الطبيعي أن يقوم بردة فعل شديدة.

القسم الثاني: العودة من تبوك والوجه الحقيقي للنفاق

ذكرنا أنّ خطة المنافقين كانت تقوم على أساس السيطرة على المدينة في غياب النبيّ الأكرمﷺ، وأنّ استخلاف النبيّﷺ لأميرالمؤمنينعليه السلام على المدينة أفشل تلك الخطة؛ لذا لم يبق أمام المنافقين للنيل من النبيّﷺ إلا تبوك نفسها بالقضاء على النبيّﷺ ـ بمساعدة أعوانهم المندسين في جيش المسلمين ـ قبل أن يعود إلى المدينة.

وبعد أن نجّى الله رسولهﷺ من جميع المخاطر التي أحدقت به وأصبح جيش المسلمين على أبواب المدينة عائداً من تبوك، لجأ المنافقون إلى فكرة اغتيال النبيّ الأكرمﷺ.

من المؤسف أنّ هذه الصفحة من تاريخ تبوك اكتنفها الكثير من الإبهام وتعرضت للكثير من التلاعب والتحريف، حتى أنهم عملوا على حرف شأن نزول آياتها إلى مناسبات أخرى من أجل إخفاء الحقيقة. من ذلك أنّ رسول اللهﷺ خطب يوماً في تبوك وتعرض للمنافقين فوبخهم ونعتهم بالأراذل. فقال رجل اسمه «جلاس بن سويد بن صامت»: إن صدق محمد في ما يقول وفي أنه رسول الله فنحن إذن أرذل من الحمير؛ فهو يوبخ كبارنا. فسمعه ابن زوجته «عمير» فأخبر رسول اللهﷺ بما قاله، فاستدعاه النبيّﷺ ولكنه أقسم أنه لم يقل ذلك، فنزل قوله تعالى:

﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ ما قالُوا وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِـهِمْ

وَهَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا وَما نَقَمُوا إِلاّ أَنْ أَغْناهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ وَما لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾.[١]

«... وخططوا لعمل خطير ولكنهم فشلوا، ولم ينكروا إلا بعد أن أغناهم الله ورسوله...».[٢]

لحكاية جلاس روايات عديدة في كتب التاريخ، وقد أورد الواقدي تفاصيلها ولا يتسع البحث لإعادتها.[٣]

ولكن يبدو أنّ حوادث أخرى أهم من حادثة جلاس وقعت لابد أنها مصداق لهذه الآية؛ مثل محاولة اغتيال النبيّ الأكرمﷺ في العقبة التي ينطبق عليها مضمون الآية انطباقاً كاملاً.

والمؤسف أنّ حكاية جلاس سلط عليها الضوء أكثر مما سلط على حادثة العقبة ومحاولة الاغتيال الفاشلة لرسول اللهﷺ، من أجل صرف الأنظار عنها، رغم أنها مصداق حقيقي للآية.

وبالتدبر في مضمون الآية يمكن بسهولة إدراك أنّ الآية لم تنزل على رسول اللهﷺ لفضح شخص تافه حقير مثل جلاس، ولكن لتحكي عن حادثة وقعت في المجتمع، حادثة خطيرة أبطالها كفار يسوقون الآخرين إلى الكفر والارتداد.

---

١. التوبة (٩): ٧٤.

٢. عبدالرزاق، **المصنف**: ١٠/ ٤٦.

٣. للاطلاع على تفاصيل حكاية جلاس، انظر: الواقدي، **المغازي**: ٣/ ١٠٠٣.

قراءة تحليلية للآيات ٧٣ و٧٤ من سورة التوبة

لابد لنا من التدبر في حيثيات الآية الشريفة من أجل التوصل إلى شأن نزولها. قال الله تعالى في الآية السابقة لها:

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.[١]

«جاهد» لا تعني هنا الحرب والجهاد، لأنّ الآية نزلت في أواخر حياة النبيّ الأكرمﷺ بعد أن أنهى جميع حروبه مع الكفار، بل إنّ الآية تمثل تعزيزاً لموقف النبيّﷺ ودعماً له أمام الرأي العام في مواجهة المنافقين. فقبل نزول الآية كان الخلق الكريم الذي يتمتع به النبيّﷺ يجعله يتحمّل المنافقين، والآية تبين أنّ نزول الأمر بمجاهدة الكفار والمنافقين لا يعني أنّ النبيّﷺ كان مخطئاً في التعامل معهم على النحو الذي عاملهم به، بل إنه تعامل معهم حسب مقتضى المصلحة قبل نزول الآية وقد تغيرت المصلحة الآن؛ الآية، في الحقيقة، تعزيز لموقف النبيّ الأكرمﷺ ورد على أي اعتراض عليه.

الملاحظة الثانية هي أنّ الله في هذه الآية يقسّم الكفار إلى قسمين: قسم يجاهر بالكفر ويسميه المسلمون الكفار، وقسم يظهر الإسلام ولكنه لا يلتزم بتعاليمه. أفراد القسم الثاني ـ وهو المسمى «المنافقين» ـ هم في الحقيقة كفار؛ والشاهد على هذا، الآية التي ترد على المنافقين بصراحة وفيها يأمر الله نبيهﷺ بقوله:

---

١. التوبة (٩): ٧٣.

﴿إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ﴾.[١]

ثم يبين سبب كفر المنافقين بقوله:

﴿... وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا وَما نَقَمُوا إِلاّ أَنْ أَغْناهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ...﴾.[٢]

يفهم من ﴿وَهَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا﴾ أنهم لم يكتفوا بالنطق بالكفر، بل تعدوه إلى القيام بفعل صريح موجه ضد النبيّ الأكرمﷺ. فقول: «همّ بشيء»، يعني: المرحلة قبل الإتيان بالشيء[٣]؛ فهم قد أقدموا على المحاولة ولكنهم لم يحققوا النتيجة.

وبعد التأكيد على أنهم ﴿قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ تعود الآية للتأكيد مرة أخرى على أنهم ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾ لكي لا يقال: إنّ الله قد بالغ بقوله، بل إنّ صريح الآية ينبئ بأنهم بعد أن دخلوا في الإسلام ظاهرياً، أدينوا بالكفر القطعي، هذا الكفر ناجم عن فعلٍ غير الكفر بالقول؛ لذا فإنّ قصة جلاس لا يمكن أن تكون مصداقاً كاملاً لمضمون الآية.

﴿وَما نَقَمُوا إِلاّ أَنْ أَغْناهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾

«ذلك كان ردّهم على ألطاف الله ورسوله».

---

١. المنافقون (٦٣): ١.

٢. التوبة (٩): ٧٤.

٣. نظير قوله تعالى في سورة يوسف ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ ...﴾ (يوسف (١٢): ٢٤).

أي: انّ الذين همّوا بما لم ينالوا كانوا من المغمورين بفضل الله ورسوله، فقد جعلهم الله أقوياء مقتدرين بفضل دينه وببركة رسوله، ورزقهم من الغنائم وآمنهم ومنحهم الاستقرار، ولكنهم ردّوا على تلك الأفضال بالعداوة والبغضاء.

والسؤال المطروح هنا: من هم الذين صاروا أقوياء ببركة الإسلام؟ يدّعي أهل السنة أنّ مصداق هذا المقطع من الآية هو «جلاس» مرة أخرى، ويروون حكاية لإثبات مدّعاهم مفادها أنّ غلام جلاس قتل في الجاهلية ولم يستلم ديته، فأخذ النبيّ الأكرمﷺ ديته وأعطاه إياها فتحسنت أحواله بفضلها بعد أن كان يعيش معيشة صعبة.[1]

فيتخذون من هذه الحكاية سبباً لنزول ﴿**أَغْناهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ**﴾، في حين أنّ ذلك كان من الأمور الاعتيادية الشائعة في الجاهلية، وأنّ أخذ الدية لم يكن مرهوناً بالإسلام صرفاً، بل كان متبعاً في الجاهلية أيضاً. وعلى أساس هذا المعنى لم يحقق جلاس الغنى بفضل الله ورسوله، بل بحق كان له وحصل عليه.

إنّ مصداق ﴿**أَغْناهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ**﴾ لابد أن يكون شخصاً اغتنى بما لا حق له فيه، وشمله الفضل الإلهي والرحمة الإلهية.

يقول التاريخ: إنّ المنافقين في العقبة كانوا اثني عشر شخصاً، ولكنه لم يصرح بأسمائهم وأوصافهم، فلابد إذن من الرجوع إلى القرآن للتعرف عليهم.

إنّ التاريخ الذي لم يتعرض للتلاعب بسبب النفاق يقول: إنّ المهاجرين والذين

---

١. الواقدي، المغازي: ٣/ ١٠٠٤.

أغناهم الله من فضله هم مصداق هذه الآية. فالمهاجرون هم الذين قوّاهم الإسلام، أما الأنصار فلم يعان الفقر منهم إلا رجلان أخذا نقوداً هما: سهل بن حنيف وأبودجانة السماك بن خرشة،[١] ولم ينتفع الأنصار بالإسلام مادياً، على خلاف المهاجرين الذين لم يعرفوا الغنى إلا بعد الإسلام، بعد أن كانوا لا يملكون شيئاً عند مجيئهم إلى المدينة.

وتحمل الأخبار أدلة كثيرة على وجود المهاجرين في قضية العقبة وسنتطرق إليها لاحقاً. فتبين إذن أنّ مجال شمول مضمون الآية أوسع بكثير مما يقصره أهل السنة عليه.

محاولة اغتيال النبيّ الأكرمﷺ الفاشلة:

يروي البيهقي، بسنده عن ابن إسحاق: انّ رسول اللهﷺ كان عائداً إلى المدينة، ولما وصل الجبال الوعرة صعبة العبور القريبة منها، أمر رسول الله جيشه بالالتفاف حول الجبل واجتيازه من جهة الصحراء، وسار هو في الطريق الجبلي نفسه لأنه كان أقصر، وأخذ معه حذيفة وعماراً ومنع الآخرين من مرافقته.

يقول ابن إسحاق: كره النبيّ أن يضايقه أحد في طريقه،[٢] ولكن هذا القول إساءة لشخص النبيّﷺ واستنتاج خاطئ، بل إنّ النبيّﷺ لم يكن يريد أن يفضل أحداً على أحد بمرافقته.

دخل النبيّ المنطقة الجبلية ومعه حذيفة وعمار، وفي منتصف الطريق سمعوا فجأة

---

١. لا نعني هنا الغنائم التي كانت توزع على الجميع، بل العائدات التي كانت تعود على الأفراد إضافة إلى الغنائم.

٢. البيهقي، السنن الكبرى: ٩/ ٥٦.

صوتاً من خلفهم، فقد كان عدد من المنافقين يلاحقون النبيّ ﷺ خفية ووصلوا إليه في وسط الطريق الجبلي، فقال النبيّ ﷺ لحذيفة: اضربهم. ولما سمع المنافقون ما أمر به الرسول حذيفة ورأوا حذيفة قادماً نحوهم، هبطوا منحدر الجبل هاربين، فأخذ حذيفة يرمي رواحلهم وهم يصيحون: نحن أصحاب النبيّ! وكانوا ملثمين لا يبدو منهم إلا عيونهم. وعاد حذيفة إلى النبيّ ﷺ بعد أن هربوا، فسأله النبيّ ﷺ: هل عرفتهم؟ فقال حذيفة: لا والله، ولكني عرفت رواحلهم. اجتاز النبيّ ﷺ منعطف «الثنية»، وهو يقول لرفيقيه، حذيفة وعمار: هل تعلمان ماذا كان يريد هؤلاء؟ كانوا يريدون أن يمروا إلى جانبي عند منعطف الجبل ويرموني من فوق الجبل.[١]

التعرف على المنافقين الذين كانوا في العقبة

بالرغم من التحريف الكبير الذي قام به بعض أهل السنة في قضية محاولة المنافقين اغتيال النبيّ الأكرم ﷺ، تتوفر أخبار مختلفة عن تعرف حذيفة على منافقي العقبة. فتارة يقال: إنه لم يتعرف عليهم لأنهم كانوا ملثمين ولكنه ميز جِمالهم وخيولهم، فكان بمقدوره أن يتعرف على أصحابها في النهار.

وتفيد أخبار أخرى بأنّ حذيفة كان يعلم بالمؤامرة قبل وقوعها، لذا كان يسير

---

١. المصدر نفسه. جدير بالذكر أنّ هذه العقبة تختلف عن عقبة صدر الإسلام، حيث يقول ابن حزم: «ليست هذه العقبة الفاضلة المحمودة قبل الهجرة، تلك كانت للأنصار خالصة شهدها منهم ـ رضي الله عنهم ـ سبعون رجلاً وثلاث نسوة، ولم يشهدها أحد من غيرهم إلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحده، والعباس عمه، وهو غير مسلم يومئذ، لكنه شفقة على ابن أخيه [أي: وقد رافق ابن أخيه حرصاً عليه]». (ابن حزم، المحلى: ١٢/ ١٥٦).
ويذكر أنّ الجملة الأخيرة أضيفت من قبل العباسيين لتفضيل أنفسهم.

خلف النبيّ الأكرمﷺ ليحميه، وعند ما بدأ التنفيذ واجه المتآمرين وأفشل خطتهم ثم أخبر النبيّﷺ بأسمائهم.

وتدل جميع هذه الأخبار على أنّ حذيفة وعماراً كانا يعرفان منافقي العقبة، ونستعرض فيما يلي أمثلة منها:

روايات السيرة في حادثة العقبة

ألف) رواية البيهقي

روى البيهقي حادثة العقبة بطرق مختلفة:

١ ـ رواية البيهقي عن حذيفة

روى البيهقي بسنده عن حذيفة قوله:

«كنت آخذ بخطام ناقة رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم أقود به وعمار يسوقه ـ أو أنا أسوقه وعمار يقوده ـ، حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثني عشر راكباً قد اعترضوه فيها، قال: فأنبهت رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم بهم، فصرخ بهم، فولوا مدبرين. فقال لنا رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم: هل عرفتم القوم؟ قلنا: لا يا رسول الله، كانوا متلثمين ولكنا قد عرفنا الركاب. قال: هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة».[١]

---

١. البيهقي، دلائل النبوة: ٥/ ٢٦٠ ـ ٢٦١.

٢ ـ رواية البيهقي عن عروة بن الزبير

روى البيهقي في خبر آخر عن عروة بن الزبير:

«... فقال النبيّ صلى الله عليه [وآله] وسلم لحذيفة: هل عرفت يا حذيفة من هؤلاء الرهط أو الركب أو أحداً منهم؟ قال حذيفة: عرفت راحلة فلان وفلان، وقال: كانت ظلمة الليل وغشيتهم وهم متلثمون. فقال: هل علمتم ما كان شأن الركب وما أرادوا؟ قالوا: لا والله يا رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم. قال: فإنهم مكروا ليسيروا معي، حتى إذا أظلمت في العقبة طرحوني منها. قالوا: أفلا تأمر بهم به يا رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم إذا جاءك الناس فتضرب أعناقهم؟ قال: أكره أن يتحدث الناس ويقولوا: إنّ محمداً قد وضع يده في أصحابه. فسماهم لهما [حذيفة وعمار]، وقال: اكتماهم».[1]

ب) رواية الواقدي

روى الواقدي في المغازي، عن أبي سعيد الخدري: أنّ أهل العقبة كانوا ثلاثة عشر، وقد أخبر النبيّ الأكرمﷺ حذيفة وعماراً بأسمائهم.[2] ثم يروي في موضع آخر عن نافع بن جبير: أنهم كانوا اثني عشرة وأنّ حذيفة كان يعرفهم.[3]

---

١. البيهقي، دلائل النبوة: ٥/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

٢. الواقدي، المغازي: ٣/ ١٠٤٤.

٣. الواقدي، المغازي: ٣/ ١٠٤٥.

ج) رواية اليعقوبي

روى اليعقوبي، عن حذيفة: أنّ رسول اللهﷺ عاد من تبوك فكمن له أصحاب العقبة ليفزعوا ناقته ويجفلوها، فقال النبيّﷺ لحذيفة: أبعدهم وقل لهم: تنحوا وإلا أخبرت بأسمائكم وأسماء آبائكم وقبائلكم. فصاح بهم حذيفة وأبعدهم... وكان حذيفة يقول: أعرف أسماءهم وأسماء آبائهم وقبائلهم.[1]

د) رواية الطبراني

ينقل الطبراني الحديث الذي جرى بين «صلة بن زفر» وحذيفة الذي يتضح منه أنّ حذيفة أخبر النبيّﷺ بأسماء منافقي العقبة، ويقول:

> «قلنا لحذيفة: كيف عرفت أمر المنافقين، ولم يعرفه أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم أبوبكر ولا عمر؟ قال: إني كنت أسير خلف رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم، فنام على راحلته، فسمعت ناساً منهم [المنافقين] يقولون: لو طرحناه عن راحلته فاندقت عنقه، فاسترحنا منه. فسرت بينهم وبينه، وجعلت أقرأ وأرفع صوتي، فانتبه النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم، فقال: من هذا؟ فقلت: حذيفة. قال: من هؤلاء؟ قلت: فلان وفلان، حتى عددتهم. قال: أو سمعت ما قالوا؟ قلت: نعم؛ ولذلك سرت بينك وبينهم. قال: فإن هؤلاء فلاناً وفلاناً ـ حتى عد أسماءهم ـ منافقون، لا تخبرن أحداً».[2]

---

١. اليعقوبي، التاريخ: ٢/ ٦٨.

٢. الطبراني، المعجم الكبير: ٣/ ١٦٥؛ الهيثمي، مجمع الزوائد: ١/ ١٠٩؛ المتقي الهندي، كنز العمال: ١/ ٣٦٩.

الفصل الرابع:

أصحاب العقبة وموقف النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم

- التعرف على المسؤولين عن حادثة العقبة
- المنافقون شخصيات معروفة

القسم الأول: التعرف على المسؤولين عن حادثة العقبة

الإصرار المريب لكتب السيرة على تبرئة قريش من حادثة العقبة

هناك محاولات كثيرة في بعض كتب أهل السنة للحفاظ على سمعة منافقي العقبة، فتارة تنزه قريشاً من أن تكون ضمن منافقي العقبة من أجل أن لا يقع كبار صحابة النبيّ ﷺ في دائرة الاتهام، وتارة تتلاعب بالأخبار التي تتضمن أسماء منافقي العقبة عن طريق إنقاص الروايات أو التحريف والتصحيف في الأخبار الواردة. ونشير هنا إلى أمثلة على ذلك:

روى الواقدي عن نافع بن جبير[١] أنه قال:

> «لم يخبر رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم أحداً إلا حذيفة، وهم اثنا عشر رجلاً ليس فيهم قرشي. وهذا الأمر المجتمع عليه عندنا».[٢]

ويروي ابن سعد خبراً مشابهاً لهذا الخبر عن نافع بن جبير باختلاف أنه أكد فيه على

---

١. نافع بن جبير بن مطعم القرشي؛ وناقل الخبر من قريش أيضاً!

٢. الواقدي، المغازي: ٣/ ١٠٤٥.

أنه «ليس فيهم قرشي وكلهم من الأنصار أو من حلفائهم».[١]

ويروي الواقدي خبراً آخر عن أسيد يحكي عن حديث جرى بينه وبين رسول الله ﷺ في اليوم التالي لحادثة العقبة:

«... فلما أصبح قال له أسيد بن الحضير: يا رسول الله، ما منعك البارحة من سلوك الوادي، فقد كان أسهل من العقبة؟ قال: يا أبايحيى، أتدري ما أراد البارحة المنافقون وما اهتموا به؟ قالوا: نتبعه في العقبة، فإذا أظلم الليل عليه قطعوا أنساع راحلتي ونخسوها حتى يطرحوني من راحلتي. فقال أسيد: يا رسول الله، فقد اجتمع الناس ونزلوا، فمر كل بطن[٢] أن يقتل الرجل الذي هم بهذا، فيكون الرجل من عشيرته هو الذي يقتله، وإن أحببت ـ والذي بعثك بالحق ـ فنبئني بهم، فلا تبرح حتى آتيكم برؤوسهم، وإن كانوا في النبيت فكفيتكهم، وأمرت سيد الخزرج فكفاك من في ناحيته، فإنّ مثل هؤلاء يتركون يا رسول الله؟...».[٣]

في هذا الخبر تُنسب بذكاء حاد حادثة العقبة إلى الأنصار الذين ينتمي إليهم أسيد نفسه، فأسيد يقول ـ وهو لا يعرف الذين حاولوا اغتيال النبيّ ﷺ ـ: سنأتي برؤوسهم إن كانوا من الأوس أو الخزرج (قبيلتي الأنصار)!

---

١. المزي، تهذيب الكمال: ٥/ ٥٠٤ ـ ٥٠٥؛ السيوطي، الدر المنثور: ٤/ ٢٤٤.

٢. وحدة اجتماعية أصغر من القبيلة.

٣. الواقدي، المغازي: ٣/ ١٠٤٢ ـ ١٠٤٣.

لقد تم دفع الدخل المقدر في جميع هذه الحالات لكي يتم إخراج المهاجرين تماماً عن دائرة الاحتمال في حادثة العقبة، وما هذا إلا لأن المخططين والمنفذين لهذه المؤامرة كانوا من المهاجرين أنفسهم الذين استولوا على الحكم فيما بعد واستغلوا مناصبهم لإتلاف الوثائق الدالة على جريمتهم، بل إنهم زوروا أسماءاً لمنافقين في بعض الحالات، واللافت للنظر أنهم أدرجوا أسماء بعض الأنصار في قوائم المنافقين.

ولعل من المفيد هنا أن نشير إلى المواضيع المهمة التي أثارها ابن حزم في «المحلّى» في مبحث «من المنافقون والمرتدون»:

«وأما الموقوفة على حذيفة فلا تصح، ولو صحت لكانت بلا شك على ما بينّا من أنهم صح نفاقهم وعاذوا بالتوبة، ولم يقطع حذيفة ولا غيره على باطن أمرهم، فتورع عن الصلاة عليهم. وفي بعضها أنّ عمر سأله أنا منهم؟ فقال له: لا، ولا أخبر أحداً غيرك بعدك. وهذا باطل ـ كما ترى ـ لأنّ من الكذب المحض أن يكون عمر يشك في معتقد نفسه حتى لا يدري أمنافق هو أم لا. وكذلك أيضاً لم يختلف اثنان من أهل الإسلام في أنّ جميع المهاجرين قبل فتح مكة لم يكن فيهم منافق، إنما كان النفاق في قوم من الأوس والخزرج فقط! فظهر بطلان هذا الخبر».[1]

هنا يردّ ابن حزم حديثاً عن أنّ حذيفة كان يرفض الصلاة على المنافقين، ودليله على ذلك أنّ حذيفة لم يكن مطلعاً على باطن أمر المنافقين فربما كانوا قد تابوا، وهو ينسب عدم صلاة حذيفة على المنافقين إلى تقواه وورعه.

---

١. ابن حزم، المحلى: ١٢/ ١٦١.

ثم يقول: وفي بعضها أنّ عمر سأل حذيفة إن كان هو من أولئك الذين لا يصلي عليهم. ويرد ابن حزم الخبر مدعياً أنّ عمر من المهاجرين وأنه لم يكن بين المهاجرين منافقون أبداً وأنّ النفاق اقتصر على الأوس والخزرج، ويقول: إنّ من الكذب المحض أن يشك عمر في عقيدة نفسه حتى لا يدري إن كان منافقاً أم لا.

نظراً لما تقدم، نترك الحكم على أقوال ابن حزم للقارئ اللبيب.

حذف أسماء المسؤولين عن العقبة من الأخبار

لقد تعرضت الأخبار التي تضمنت ولو اسماً واحداً من أسماء أصحاب العقبة إلى التلاعب، وفي الكثير من الحالات إلى الحذف، بحيث يروى عن أبي الطفيل في الخلاف الذي وقع بين حذيفة وأحد أصحاب العقبة، أنه أقسم على حذيفة بأن يقول كم كان عدد أصحاب العقبة؟ فقال الحاضرون: أما وقد سألك فأخبره. فقال حذيفة:

> «كنا نخبر أنهم أربعة عشر، فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر، وأشهد بالله أنّ اثني عشر منهم حربٌ لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وعذر ثلاثة [أي: اشتركوا من حيث لا يريدون]».[١]

ونقل شبيه هذا الخبر عن عمار أيضاً حيث قال:

> «...أشهد أنّ الاثني عشر الباقين [من أصحاب العقبة] حربٌ لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد».[٢]

---

١. مسلم، **الصحيح**: ٤/ ٢١٤٤؛ البيهقي، السنن الكبرى: ٩/ ٥٧؛ ابن البطريق، **العمدة**: ص٣٣٣.

٢. أحمد بن حنبل، المسند: ٥/ ٤٥٣ ـ ٤٥٤.

تصحيف «حربٌ لله» إلى «حزب الله» في رواية أبي الطفيل

في إحدى رواياته، لا يكتفي أبوالطفيل بإخفاء اسم الرجل الذي خاصم عماراً، ما يبين مدى سعي جهاز الخلافة في محو آثار الجريمة، بل يعمد إلى تحريف عبارة «حربٌ لله» إلى «حزب الله».

وعن أبي الطفيل قال:

«... فلما كان بعد ذلك نزع بين عمار وبين رجل منهم شيء ما يكون بين الناس، فقال: أنشدك بالله كم أصحاب العقبة الذين أرادوا أن يمكروا برسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلّم؟ قال: نرى أنهم أربعة عشر. قال: فإن كنت فيهم فكانوا خمسة عشر، ويشهد عمار أنّ اثني عشر حزباً لله ورسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد».[١]

انتحال أسماء لأصحاب العقبة

إلى جانب كل عمليات التحريف والإنقاص والتزوير وحذف الأخبار من أجل إخفاء الأسماء الحقيقية لأهل العقبة، تشتمل كتب أهل السنة على أخبار تتضمن أسماءاً مزورة لأصحاب العقبة، وهناك ملاحظتان تؤكدان كون تلك الأخبار مزورة:

١ـ هذه الأخبار مروية عن طريقين: أحدهما «الزبير بن بكار» الوارد في «تهذيب الكمال» و«المعجم الكبير» و«مجمع الزوائد» و«تفسير ابن كثير» و«المنار»[٢]، ولكن هذه

---

١. الهيثمي، **مجمع الزوائد**: ١/ ١١٠؛ وقال: رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات.

٢. من الجدير بالاهتمام أن نعلم أنّ صاحب تفسير المنار، بعد أن ينقل الأسماء عن ابن كثير، يبين غايته الأساسية من النقل ويعزف على وتر بغضه للشيعة، فيقول: «وإنما ذكرت عددهم وأسماءهم حتى لا يكون

الأخبار جميعها مرسلة خلافاً لما ذكرنا من المسانيد. فالزبير بن بكار كان من المتعصبين الذين لم يدركوا عصر الرسالة، وعكف على وضع الأحاديث لصالح العباسيين وآل أبي بكر وآل الزبير، وقد قيل في نسبه: «الزبير بن بكار بن عبدالله بن مصعب بن ثابت بن عبدالله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي الزبيري (أبوعبدالله) (١٧٢ ـ ٢٥٦هـ)»[١]. وسلسلة النسب هذه تبين المسافة التي تبعده عن عصر الرسالة.

الخبر الآخر هو ما يرويه البيهقي عن ابن إسحاق المذكور في «السنن الكبرى» و«زاد المعاد» و«الدر المنثور» و«تاريخ ابن كثير»، وهو أيضاً مرسل.

٢ ـ الجانب الآخر هو تعارض الروايتين في ذكر الأسماء؛ وفيما يلي الأسماء الواردة في الروايتين نعرضها بقائمتين متقابلتين لنبين الفرق الكبير بينهما:

مقارنة بين أسماء المنافقين في روايتي الزبير وابن إسحاق

	رواية الزبير[٢]		رواية ابن إسحاق[٣]
١	معتب بن قشير	١	عبدالله بن أبي
٢	وديعة بن ثابت	٢	سعد بن أبي سرح
٣	الحارث بن يزيد	٣	أبوحاضر الأعرابي

لخلفائهم من منافقي الروافض سبيل إلى تضليل عوام المسلمين، بما اعتادوا من الطعن في خير أصحاب النبيين والمرسلين»؟!. (المنار: ١٠/ ٤٧٩).

١. عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**: ٤/ ١٨٠.

٢. المزي، **تهذيب الكمال**: ٥/ ٥٠٣ ـ ٥٠٤.

٣. البيهقي، **دلائل النبوة**: ٥/ ٢٥٧ ـ ٢٥٩.

٤	أوس بن قيظي	٤	عامر
٥	**جلاس بن سويد**	٥	أبوعامر
٦	سعد بن زرارة	٦	**جلاس بن سويد**
٧	قيس بن قهد	٧	مجمع بن جارية
٨	سويد	٨	فليح التيمي
٩	داعس	٩	حصين بن نمير
١٠	قيس بن عمرو	١٠	طعمة بن أبيرق
١١	زيد بن اللصيت	١١	عبدالله بن عيينة
١٢	سلالة بن الحمام	١٢	مرة بن ربيع

اسم «جلاس» شاهد على بطلان روايتي الزبير وابن إسحاق

الاسم الوحيد المشترك بين القائمتين هو «جلاس»، ويكفي هذا الاسم لفضح واضعي هذين الخبرين، لأنّ من المؤكد أنّ هذا الرجل كان من الذين خالفوا النبيّ الأكرمﷺ وقعدوا في المدينة.[١]

وقد صرح الواقدي بهذا قائلاً: «ويقال في الجلاس بن سويد: إنه كان ممن تخلف

---

١. ابن عبدالبر، **الاستيعاب**: ١/ ٢٦٥؛ ابن الأثير، **أسد الغابة**: ١/ ٢٩٢؛ الصفدي، **الوافي بالوفيات**: ١١/ ١٣٧.

من المنافقين في غزوة تبوك، فكان يثبط الناس عن الخروج»[١]، يعني: يقال في جلاس بن سويد: إنه كان أيضاً من أصحاب العقبة والحال أنه كان من المنافقين الذين تخلفوا عن معركة تبوك، وكان يمنع الناس من الخروج مع النبيّ ﷺ.

ويروي ابن هشام نقلاً عن ابن إسحاق: «وجلاس... كان ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلّم في غزوة تبوك».[٢]

ومن الذين قالوا بتخلف جلاس عن النبيّ ﷺ ابن أبي حاتم[٣]، وابن كثير[٤]، وابن حجر[٥]، والسيوطي[٦]، وابن عبدالبر[٧]، وغيرهم.

ولقد سبق أن أشرنا في معرض بحثنا في الآية ٧٤ من سورة التوبة[٨] إلى أنّ المراد من ذكر اسم جلاس في ذيل هذه الآية كان صرف الأنظار عن أسماء المنافقين المشاركين في حادثة العقبة الذين تنطبق عليهم الآية.

على أنّ البلاذري يروي في «أنساب الأشراف» خبراً عن الكلبي يفيد بأنّ جلاس قتل قبل غزوة تبوك.

---

١. الواقدي، المغازي: ٣/ ١٠٠٥.

٢. ابن هشام، السيرة النبوية: ٢/ ١٦٦.

٣. ابن أبي حاتم، التفسير: ٦/ ١٨٤٣.

٤. ابن كثير، التفسير: ٣/ ٤٢٤.

٥. ابن حجر، الإصابة: ١/ ٥٥٩.

٦. السيوطي، الدر المنثور: ٤/ ٢٤٠.

٧. ابن عبدالبر، الاستيعاب: ١/ ٢٦٥.

٨. ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ ما قالُوا وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا وَما نَقَمُوا إِلاّ أَنْ أَغْناهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ وَما لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾.

ويقول البلاذري: إنّ والد جلاس قتل في الجاهلية، وقام جلاس بقتل قاتل أبيه في غزوة أحد؛ فأخبر جبريل رسول اللهﷺ بالخبر، فأمر النبيّﷺ بضرب عنق جلاس.[١] فإن صح الخبر سقطت جميع تلك الفرضيات من أساسها.

مهما يكن من أمر، فسواء كان جلاس قتل في أحد أو أدرك غزوة تبوك، فإنه لم يكن من المنافقين الذين كانوا في جيش تبوك، ولا يمكن إدراجه مع زمرة الذين حاولوا اغتيال رسول اللهﷺ في العقبة، وإنّ إدراج اسمه ضمن المتآمرين في رواية ابن إسحاق والزبير يثبت وضع تلك الأخبار.

خبر ابن إسحاق ورأي البيهقي

عند ما وصل النبيّ الأكرمﷺ إلى «الثنية» نادى مناديه بالجنود بأن يسلكوا طريق الصحراء وسلك النبيّﷺ الطريق الجبلي، ثم يروي ابن إسحاق قصة حيلة المنافقين ومؤامرتهم بما يشبه رواية عروة بن الزبير إلى أن يقول:

> «[قال رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم لحذيفة]: هل عرفت من القوم أحداً؟ فقال: لا، ولكني أعرف رواحلهم، فقال له رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم: إنّ الله قد أخبرني بأسمائهم وأسماء آبائهم، وسأخبرك بهم إن شاء الله عند وجه الصبح، فانطلق إذا أصبحت فاجمعهم، فلما أصبح، قال: ادع عبدالله».[٢]

وهنا يعرّض البيهقي باسم «عبدالله» فيقول:

---

١. البلاذري، أنساب الأشراف: ١/ ٢٧٥.

٢. البيهقي، دلائل النبوة: ٥/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨.

«أظنه [عبدالله] ابن سعد بن أبي سرح، وفي الأصل عبدالله بن أبي، وسعد بن أبي سرح إلا أنّ ابن إسحاق ذكر قبل هذا أنّ ابن أبي تخلف في غزوة تبوك ولا أدري كيف هذا».[1]

ثم يكمل البيهقي كلام ابن إسحاق فيعدد أسماء باقي أصحاب العقبة على النحو الآتي:

«وأباحاضر[2] الأعرابي، وعامراً وأبي عامر، والجلاس بن سويد بن الصامت، وهو الذي قال: لا ننتهي حتى نرمي محمداً من العقبة الليلة، ولئن كان محمد وأصحابه خيراً منا إنا إذا لغنم وهو الراعي، ولا عقل لنا، وهو العاقل. وأمره أن يدعو مجمع بن جارية، وفليح التيمي، وهو الذي سرق طيب الكعبة، وارتد عن الإسلام، فانطلق هارباً في الأرض، فلا يدرى أين ذهب. وأمره أن يدعو حصين بن نمير الذي أغار على تمر الصدقة، فسرقه فقال له رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم: ويحك ما حملك على هذا؟ قال: حملني عليه أني ظننت أنّ الله لم يطلعك عليه، فأما إذ أطلعك الله عليه وعلمته فإني أشهد اليوم أنك رسول الله، وإني لم أؤمن بك قط قبل الساعة يقيناً، فأقاله رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم عثرته، وعفا عنه بقوله الذي قال.

وأمره أن يدعو طعمة بن أبيرق، وعبدالله بن عيينة، وهو الذي قال لأصحابه: اشهدوا هذه الليلة تسلموا الدهر كله، فو الله ما لكم أمر

---

١. البيهقي، دلائل النبوة: ٥/ ٢٥٨.

٢. أي: ادع عبدالله، وأباحاضر... .

دون أن تقتلوا هذا الرجل، فدعاه رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم، فقال: ويحك ما كان ينفعك من قتلي لو أني قتلت، فقال عدو الله: يا نبي الله! والله لا تزال بخير ما أعطاك الله النصر على عدوك، إنما نحن بالله وبك، فتركه رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم.

وقال لحذيفة: ادع مرة بن ربيع، وهو الذي ضرب بيده على عاتق عبدالله بن أبي، ثم قال: تمطى، والنعيم لنا من بعده كائن نقتل الواحد المفرد، فيكون الناس عامة بقتله مطمئنين، فدعاه رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم، فقال له: ويحك ما حملك على أن تقول الذي قلت؟ فقال: يا رسول الله إن كنت قلت شيئاً من ذلك إنك لعالم به، وما قلت شيئاً من ذلك.

فجمعهم رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم وهم اثنا عشر رجلاً... فأخبرهم رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم بقولهم ومنطقهم وسرهم وعلانيتهم، وأطلع الله عز وجل نبيه على ذلك بعلمه، ومات الاثنا عشر منافقين محاربين لله [تعالى] ورسوله وذلك قول الله عز وجل: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾.

وكان أبوعامر رأسهم وله بنوا مسجد الضرار... فأرسلوا إليه، فقدم عليهم».[1]

خبر ابن إسحاق ورأي ابن القيم

ينتقد ابن القيم الجوزية في «زاد المعاد» خبرَ ابن إسحاق ويقول: إنه «بيان وهم».

---

١. البيهقي، دلائل النبوة: ٢/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

وفي ما يلي أهم النقاط التي استند إليها ابن القيم في نقد خبر ابن إسحاق:

١ـ أنّ النبيّﷺ أسرّ بأسماء المنافقين لحذيفة وأودعها سراً عنده حتى عرف حذيفة بأنه «صاحب السر الذي لا يعلمه غيره». وحتى عمر والآخرون لم يعلموا بالأسماء، فكان عمر يراقب حذيفة للتعرف على المنافقين، فإذا امتنع عن الصلاة على أحد مات منهم اعتبره منافقاً وإلا لم يكن عنده منافقاً.

٢ـ اعتبر ابن إسحاق عبدَالله بن أبي من منافقي العقبة، وابن إسحاق نفسه يقول: إنّ عبدالله بن أبي كان ممن تخلف عن رسول اللهﷺ في غزوة تبوك.

٣ ـ ولا يمكن أن يكون سعد بن أبي سرح من ضمن هؤلاء، لأنه لم يسلم أبداً أصلاً، وأسلم ابنه عبدالله وهاجر إلى المدينة ولكنه ارتد بعد ذلك وعاد إلى مكة حتى أخذ له عثمان الأمان في عام فتح مكة وأسلم.[١]

٤ ـ من أخطاء ابن إسحاق الفاحشة الأخرى إيراد اسم «أبي عامر»، وهو بنفسه روى قصته عن عاصم بن عمرو بن قتادة بالقول بأنه لما هاجر النبيّﷺ إلى المدينة ذهب أبوعامر إلى مكة ومعه جماعة، وعند ما فتح النبيّﷺ مكة ذهب هو إلى الطائف، وحين أسلم أهل الطائف هرب هو إلى الشام ومات فيها وحيداً غريباً؛ فكيف يمكن اعتبار هذا الفاسق مع من رافق النبيّ الأكرمﷺ إلى تبوك؟[٢]

وهكذا فهناك ما يكفي من الأدلة على وضع رواية ابن إسحاق والزبير، ونكتفي بهذا القدر منها.

---

١. جدير بالذكر أنّ ابن القيم يقول: إنه حسن إسلامه و...، ونذكّر بأنه ارتكب الكثير من الجرائم في عهد عثمان.

٢. انظر: ابن القيم، زاد المعاد: ٣/ ٤٧٩ ـ ٤٨٠.

والسؤال المطروح الآن هو: لصالح من يجري كل هذا التحريف والتزوير؟ ومن أجل من يتحمل التاريخ عارهما؟

بالرغم من كل المحاولات للتستر على أسماء المتآمرين على حياة رسول اللهﷺ فإنّ هناك أسماءاً تظهر بين الحين والآخر بين سطور التاريخ وقد نجت من آلة التحريف، ونتناول في ما يلي تلك الحالات:

التعرّف على بعض أصحاب العقبة بلسان الروايات:

ألف) ما روي عن أبي الطفيل

هذا الاسم من الأسماء التي وردت في إحدى الروايات التي نقلت حديث أبي الطفيل ولم يطلها التحريف، اسم أبي موسى الأشعري.

عن أبي الطفيل، قال:

> «كان بين حذيفة وبين رجل منهم من أهل العقبة بعض ما يكون بين الناس، فقال: أنشدك بالله كم كان أصحاب العقبة؟ فقال القوم: فأخبره فقد سألك. فقال أبوموسى الأشعري: قد كنا نخبر أنهم أربعة عشر. فقال حذيفة: وإن كنت فيهم فقد كانوا خمسة عشر، أشهد بالله أنّ اثني عشر منهم حزب الله [!] ورسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وعذر ثلاثة، قالوا: ما سمعنا منادي رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم، ولا علمنا ما يريد القوم.»[1]

---

١. ابن أبي شيبة، المصنف: ٨/ ٥٨٨؛ المتقي الهندي، كنز العمال: ١٤/ ٨٦ـ ٨٧.

... «ما سمعنا منادي رسول الله» يعني: أنهم لم يسمعوا منادي رسول الله ﷺ حين أمرهم بعدم المسير عن طريق العقبة... .

لم يتعرض اسم أبي موسى الأشعري ـ الوارد في هذا الخبر على أنه خصم حذيفة ـ للتحريف والحذف من قبل الكتّاب.

وواضح أنّ حذيفة كان يعتبره من المنافقين، لأنه يقول له: إذا كنتَ تعتقد أنّ المنافقين [الذين حاولوا اغتيال النبيّ ﷺ] كانوا أربعة عشر فإنهم سيكونون خمسة عشر وأنت معهم.

وقد وقع تحريف في الرواية وهي إبدال «حرب الله» بـ «حزب الله»، وهذا التحريف الجريء صار سبباً في أن تتحول وثيقة إدانة أهل العقبة إلى فضيلة لهم وكرامة في كتب أهل السنة، لأنّ كتب التاريخ تذكر أسماء الثلاثة الذين صحبوا المنافقين دون قصد؛ فقد جاء في الخبر أنّ هؤلاء الثلاثة لم يسمعوا نداء منادي رسول الله ﷺ، ولم يكونوا يعرفون ما في نية أولئك الاثني عشر، وأنهم لو كانوا يعرفون قصدهم لما رافقوهم، وأنهم معذورون لجهلهم بحقيقة الأمر.

والسؤال هو: إذا كان الاثنا عشر رجلاً الباقون من حزب الله، فلماذا تبرّأ الثلاثة من فعلهم، واعتذروا بجهلهم بنيتهم وأنهم ما كانوا ليصحبوهم لو كانوا يعلمون بما يخططون له؟ كيف يمكن الجمع بين هذا التبري وبين كون أولئك الاثني عشر حزباً لله؟

ب) ما روي عن حذيفة

حسب ما يرويه الطبري عن قتادة فإنّ رسول اللهﷺ أخبر حذيفة بأسماء الاثني عشر منافقاً وائتمنه على السر، ثم يقول: كان عمر إذا مات رجل وكان يشك في نفاقه نظر إلى حذيفة، فإن صلى عليه صلى هو عليه أيضاً وإلا تركه. ويضيف: قال عمر لحذيفة: ناشدتك الله هل أنا منهم؟ فقال: «لا والله ولا أؤمن منها أحداً بعدك».[1]

كما يروي ابن كثير حادثة سؤال عمر لحذيفة نقلاً عن ابن إسحاق، باختلاف أنّ جواب حذيفة له كان: «لا ولا أبرئ بعدك أحداً».[2]

أما خبر زيد بن وهب ففيه تعبير مختلف، يقول: مات أحد المنافقين فلم يصل عليه حذيفة. فقال له عمر: هل كان من تلك الجماعة؟ قال: نعم. فقال عمر: ناشدتك الله هل أنا معهم؟ فقال: «لا، ولن أخبر به بعدك أحداً».[3]

على هذا الأساس فإنّ حذيفة ردّ على سؤال عمر «هل أنا منهم؟» بالنفي ثم أضاف أنه إن سأله أحد بعد ذلك فلن يكون في أمان، أو أنه لن يبرئه، أو أنه إذا سئل مثل هذا السؤال فلن يسمع السائل منه الجواب الذي سمعه منه عمر.

ومهما يكن الجواب الذي رد به حذيفة على السؤال فإنّ النتيجة واحدة وهي أنّ السائل كان في زمرة المنافقين. أولاً: لأنّ طرح هذا السؤال يعطي احتمالاً لأن يكون اسم السائل ضمن الأسماء التي أسرّ بها النبيّﷺ لحذيفة. وثانياً: إنّ حذيفة في جوابه

---

١. الطبري، **جامع البيان**: ١١/ ١١.

٢. ابن كثير، **البداية والنهاية**: ٥/ ٢٥؛ **السيرة النبوية**: ٤/ ٣٥.

٣. ابن أبي شيبة، **المصنف**: ٨/ ٦٣٧؛ المتقي الهندي، **كنز العمال**: ١٣/ ٣٤٤.

يبدو كأنه يقول: هذا جوابي لك لأنك صاحب سلطة، ولو سألني غيرك لما آمنته من أن أصارحه بحقيقته وما أجبته بما أجبتك به وما برّأته.

إنّ دلالة هذه الأخبار على نفاق السائل واضحة تماماً، لأنّ ذلك ما يؤيده ابن حزم حيث يعترف في «المحلّى» بأنّ هذه الأخبار مشعرة بذلك، ولكنه يقول: إنها أخبار كاذبة.[١]

ثم يحاول ابن حزم الطعن بالأخبار فيسميها موقوفة حذيفة ويقول: إنّ مضمونها غير مسند.

ولكن الحقيقة هي أنه لا إشكال في سند هذه الأخبار، بحيث أنّ ابن حجر يؤكد ذلك أيضاً؛ فابن حجر ينقل خبر زيد بن وهب باختلاف قليل فيقول:

> «عن زيد بن وهب، قال: سمعت حذيفة يقول: مات رجل من المنافقين، فلم أصل عليه، فقال عمر: ما منعك أن تصلي عليه؟ قلت: إنه منهم، فقال: أبالله منهم أنا؟ قلت: لا، قال: فبكى [عمر!]».[٢]

ثم يضيف ابن حجر: «إسناده صحيح، وقد استنكره يعقوب بن سفيان من حديث زيد بن وهب».[٣]

يرى ابن حزم أنّ أخبار حذيفة مخدوشة، غير أنّ هذه الأخبار لا تقتصر على

---

١. ابن حزم، **المحلّى**: ١٢/ ١٦١.

٢. ابن حجر، **المطالب العالية**: ١٤/ ٧٠٢.

٣. المصدر نفسه.

حذيفة، بل إنّ هناك طائفة أخرى من الأخبار المسندة تبين أنّ قصة شبيهة لهذه القصة وقعت بين عمر وأم سلمة.

روي عن مسروق: أنّ عبدالرحمن دخل على أم سلمة، فقالت له: سمعت رسول الله يقول: بعض أصحابي لن يروني بعد موتي أبداً. فخرج عبدالرحمن منها مذعوراً وذهب إلى عمر، وقال له: اسمع ما تقول أمك! فنهض عمر وذهب إلى أم سلمة وسألها، ثم قال لها: ناشدتك الله هل أنا منهم؟ فقالت أم سلمة: لا، ولن أبرئ أحداً بعدك.[١]

وينقل شقيق أيضاً خبراً بهذا المضمون: أنّ عبدالرحمن بن عوف قال لأم سلمة يوماً: أخشى أني هلكت لأني من أغنى قريش وبعت أرضاً بأربعين ألف دينار. فقالت أم سلمة: أنفق يا بني، فإني سمعت رسول الله يقول: إنّ من أصحابي من لن يراني أبداً بعد موتي. فذهب عبدالرحمن إلى عمر وأخبره بما قالت أم سلمة. فقال عمر لأم سلمة: ناشدتك الله هل أنا منهم؟ فقالت أم سلمة: لا، ولن أبرئ بعدك أحداً.[٢]

وهناك رواية أخرى قريبة من هذا المضمون في المسند عن شقيق، تقول: إنه لما سمع عمر بما قالته أم سلمة ذهب إليها متثاقلاً أو مسرعاً[٣] وقال لها: ناشدتك الله هل أنا منهم؟ فقالت أم سلمة: لا، ولن أبرئ بعدك أحداً.[٤]

---

١. أحمد بن حنبل، المسند: ٦/ ٣١٢.

٢. أحمد بن حنبل، المسند: ٦/ ٢٩٠ و٣١٧.

٣. الترديد من الراوي.

٤ . أحمد بن حنبل، المسند: ٦/ ٢٩٨.

يتبين من جواب أم سلمة أنّ عمر كان من المنافقين، لأنها قالت: إن سألني أحد بعدك فلن أبرئه؛ بمعنى أنه بما أنك جبّار فإليك الجواب الذي يرضيك، أما إذا سألني غيرك فلن يحصل مني إلا على الجواب الصريح وسأكشف عن أسمائهم.

وثانياً: فإنّ هذا الجواب يحسم أمر عبدالرحمن بن عوف أيضاً، خاصة وقد رأينا كيف أنّ عبدالرحمن ارتبك بشدة لدى سماعه كلام أم سلمة وأسرع إلى عمر ليخبره به، لكي ينهي القضية قبل أن تتحول إلى مشكلة.

على أنّ باقي تفاصيل الخبر لم تصلنا، لأنّ الخبر تعرض إلى الكثير من التلاعب قبل وصوله إلينا.

وجاء في بعض الأخبار في تفسير ﴿وَهَـمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا﴾[١]: حاول رجل اسمه «أسود» اغتيال رسول الله.[٢]

أما أولاً: فإنّ هذا الاسم لم يرد في أي من القائمتين. وأما ثانياً: فنظراً لتوفر أدلة على وجود بعض ما ذكر مع هذه الزمرة، يمكن اعتباره هو المقصود بالأسود.

ج) أخبار ابن حزم:

يحمل ابن حزم ـ الذي عاش في القرن الخامس ـ أخباراً تثبت أنه علاوة على ما ذكر، كانت مجموعة أخرى مع أصحاب العقبة. لقد حاول في كتابه أن يثبت أنّ النبيّ الأكرمﷺ كان يعرف المنافقين بأوصافهم ولا يعرف أسماءهم، وأنّ الذين كشفت

---

١. التوبة (٩): ٧٤؛ حاولوا القيام بشيء ولكنهم فشلوا.

٢. الطبراني، **المعجم الأوسط**: ٢/ ٢١١.

أسماؤهم ممن تنطبق عليهم الأوصاف تابوا وماتوا؛ يقول:

«قال قوم: إنّ رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم قد عرف المنافقين، وعرف أنهم مرتدون كفروا بعد إسلامهم وواجهه رجل بالتجوير، وأنه يقسم قسمة لا يراد بها وجه الله وهذه ردة صحيحة فلم يقتله.

قالوا: فصح أن لا قتل على مرتد، ولو كان عليه قتل لأنفذ ذلك رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم على المنافقين المرتدين...».[١]

ثم يقول:

«هذا كل ما احتجوا به، ونحن ـ إن شاء الله تعالى ـ ذاكرون كل آية تعلق بها متعلق في أن رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم عرف المنافقين بأعيانهم، ومبينون ـ بعون الله تعالى وتأييده ـ أنهم قسمان: قسم لم يعرفهم قط عليه السلام.

وقسم آخر افتضحوا، فعرفهم فلاذوا بالتوبة، ولم يعرفهم عليه السلام أنهم كاذبون أو صادقون في توبتهم فقط...».[٢]

استكمالاً لهذا البحث يورد ابن حزم الآيات التي استُدل بها ويبين رأيه فيها، منها أنه يقول:

«وأما حديث حذيفة [المروي عن طريق مسلم] فساقط، لأنه من طريق الوليد بن جميع ـ وهو هالك ـ ولا نراه يعلم من وضع

---

١. ابن حزم، المحلّى: ١٢/ ١٢٧.

٢. المصدر نفسه.

الحديث، فإنه قد روى أخباراً فيها أنّ أبابكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، وسعد بن أبي وقاص أرادوا قتل النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم وإلقاءه من العقبة في تبوك».[1]

ثم يقول:

«وهذا هو الكذب الموضوع الذي يطعن الله تعالى واضعه، فسقط التعلق به».[2]

ابن حزم ورواة حادثة العقبة

ألف) الوليد بن جميع

من أجل أن يردّ ابن حزم الأخبار الواردة من هذا الطريق يتهم الوليد بن جميع ـ وهو من رواة هذه الأحاديث ـ بوضع الحديث، غير أنّ طعنه بالوليد بن جميع قائم على رواية هذه الأحاديث بعد أن يقطع بأنها موضوعة. ومن أجل الوقوف على صحة سند هذه الأحاديث ووثاقتها علينا التعرف على موقع الوليد بن جميع في كتب الرجال؛ فكما سيأتي فهو من الثقات، بحيث لم يعترضوا إلا على أنه مقلّ في الرواية، وهذا لا يقدح بوثاقته. ويحتمل البعض أنه شيعي.

روى الوليد بن عبدالله بن جميع المكي الكوفي، عن أبي الطفيل، وعكرمة، ومجاهد، وأبي سلمة بن عبدالرحمن بن خلاد، وإبراهيم النخعي، وعن جده، وآخرين. ويروي عنه ابنه ثابت، وحفص بن غياث، ووكيع، ويحيى بن سعيد القطان، وأبوأحمد

---

١. ابن حزم، المحلّى: ١٢/ ١٦٠.

٢. المصدر نفسه.

الزبيري، ومحمد بن فضيل، وأبوأسامة، ويزيد بن هارون، وعبيدالله، وموسى، وأبونعيم، وآخرون.[١]

ويقول عنه محمد بن سعد: الوليد بن عبدالله بن جميع الخزاعي من بني خزاعة وكان ثقة.[٢]

ويرى العجلي أنه مكي وثقة.[٣]

وقال العقيلي: إنّ في حديثه اضطراباً وتشتتاً.[٤]

يروي الرازي، عن عبدالرحمن، عن محمد بن إبراهيم بن شعيب، عن عمرو بن علي الصيرفي أنه قال: «كان يحيى بن سعيد لا يحدثنا عن الوليد بن جميع، فلما كان قبل موته بقليل حدثنا عنه».[٥]

ويقول الذهبي عنه: «وثقه ابن معين، والعجلي. وقال أحمد وأبوزرعة: ليس به بأس. وقال أبوحاتم: صالح الحديث».[٦]

ويقول أيضاً: «وقال الفلاس: الوليد بن عبدالله بن جميع الزهري من أنفسهم [من بني زهرة]، كوفي، كان يحيى لا يحدثنا عنه، فلما كان قبل موته بقليل أخذتها من علي

---

١. المزي، تهذيب الكمال: ٣١/ ٣٦.

٢. ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٦/ ٣٥٤.

٣. العجلي، معرفة الثقات: ٢/ ٣٤٢.

٤. العقيلي، الضعفاء الكبير: ٤/ ٣١٧.

٥. الرازي، الجرح والتعديل: ٩/ ٨.

٦. الذهبي، ميزان الاعتدال: ٤/ ٣٣٧.

الصائغ، فحدثني بها، وكانت ستة أحاديث». [1] ويقول في كتاب آخر: لقد وثقوه. [2]

وذكره ابن حبان في كتابيه، فقال في «الثقات»: «الوليد بن عبدالله بن جميع الزهري، يروي عن أبي الطفيل، روى عنه وكيع، وابنه ثابت بن الوليد». [3]

ويقول أيضاً في «الضعفاء والمجروحين»: «الوليد بن جميع، شيخ من أهل الكوفة، يروي عن عبدالرحمن بن خلاد والكوفيين، روى عنه عبدالله بن داود الخريني وأهل العراق، كان ممن ينفرد عن الأثبات بما لا يشبه حديث الثقات، فلما فحش ذلك منه بطل الاحتجاج به.

أخبرنا الهمداني، قال: حدثنا عمرو بن علي، قال: كان يحيى بن سعيد لا يحدث عن الوليد بن جميع». [4]

ويقول عنه ابن حجر: «وقال البزار: احتملوا حديثه وكان فيه تشيع... وقال الحاكم: لو لم يخرج له مسلم لكان أولى»!. [5]

كما جاء في كتاب «التقريب»: «الوليد بن عبدالله بن جميع الزهري المكي، نزيل الكوفة، صدوق يهم، ورمي بالتشيع، من [الطبقة] الخامسة». [6]

كما هو واضح من جميع ما قيل في الوليد بن جميع، أنه لا مانع من الأخذ بأحاديثه.

---

١. المصدر نفسه.

٢. الذهبي، **الكاشف**: ٢/ ٣٥٢.

٣. ابن حبان، **الثقات**: ٥/ ٤٩٢.

٤. ابن حبان، **كتاب المجروحين**: ٣/ ٧٨ ـ ٧٩.

٥. ابن حجر، **تهذيب التهذيب**: ١١/ ١٣٢.

٦. ابن حجر، **تقريب التهذيب**: ١/ ٥٨٢.

أما تضعيف ابن حزم له فباطلٌ بالدور؛ فهو يضعفه بسبب نقله لروايات أصحاب العقبة، وهذا اجتهاد لا قيمة له ولا يصمد أمام توثيق كبار الرجاليين، بل على أمثال ابن حزم أن يأخذوا برواياته ـ وقد وثقه الرجاليون ـ ويتخلصوا من الأوهام الباطلة الخاصة بغاصبي الخلافة.

ب) حذيفة

يسمي ابن حزم هذه الأخبار بموقوفة حذيفة، وعلى هذا فهو يخدش كل الأخبار المروية عن حذيفة رغم أنه صاحب سرّ رسول اللهﷺ وموضع ثقته، ولا أحد بمقدوره أن ينكر هذا الامتياز الذي يتمتع به حذيفة.

يروي البخاري في باب مناقب حذيفة وعمار، عن علقمة: أنه لما التقى «أبا الدرداء» في الشام، سأله: من أي البلاد أنت؟ فقال علقمة: الكوفة. فألمح أبوالدرداء إلى حذيفة وعمار، وقال:

> «وفيكم الذي أجاره الله من الشيطان على لسان نبيه صلى الله عليه [وآله] وسلّم؟ أو ليس فيكم صاحب سرّ النبيّ صلى الله عليه [وآله] وسلّم الذي لا [يعلمه] أحد غيره».[1]

وثاقة حذيفة

لقد وردت الإشارة إلى حذيفة وعمار في هذا الخبر بالكناية، وهناك أخبار يرد فيها الاسمان بالتصريح، بمعنى أنّ المقصود بالذي أجاره الله من الشيطان عمار وصاحب

---

١. البخاري، **الصحيح**: ٥/ ٢٥.

سر رسول الله ﷺ حذيفة.[١]

ويروي الترمذي خبراً مشابهاً لهذا الخبر من طريق آخر، وفيه: أنّ «خيثمة بن أبي سبرة» دخل المدينة وقابل «أباهريرة»، فسأله أبوهريرة: من أي البلاد أنت؟ فقال: من الكوفة. فتذكر أبوهريرة حذيفة وقال: أليس فيكم حذيفة صاحب سر النبيّ؟[٢]

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.[٣]

ويقول الحاكم النيسابوري: سئل علي بن أبي طالب عن عمار، فقال: «مؤمن نسي، وإذا ذكر ذكر». وسئل عن حذيفة، فقال: «كان أعلم الناس بالمنافقين».[٤]

من خصائص حذيفة أنّ النبيّ الأكرم ﷺ آخى بينه وبين عمار بن ياسر،[٥] كما آخى بين أبي بكر وعمر.[٦] أما في سبقه للإسلام فقد ورد بأنه من السابقين إلى الإسلام رغم عدم مشاركته في بدر.[٧]

وحذيفة هو الذي حين حضرته المنية أوصى من حوله بالتمسك بأمير المؤمنين ؑ.[٨]

---

١. المصدر نفسه.

٢. الترمذي، **السنن**: ٦/ ١٥٣؛ لقد اكتفينا هنا من هذا الحديث بالشاهد عن لسان أبي هريرة، وإلا فيه موارد أخرى قابلة للمناقشة. فمثلاً يذكر أبوهريرة أسماء شخصيات معروفة من الكوفة مثل «سعد بن أبي وقاص» ويصفه بأنه مستجاب الدعوة؟!

٣. المصدر نفسه.

٤. الحاكم النيسابوري، **المستدرك**: ٣/ ٤٢٩.

٥. ابن سعد، **الطبقات الكبرى**: ٣/ ٢٥٠.

٦. ابن سعد، **الطبقات الكبرى**: ٣/ ١٧٤.

٧. ابن سعد، **الطبقات الكبرى**: ٣/ ٢٥٠.

٨. الحاكم النيسابوري، **المستدرك**: ٣/ ٤٢٨.

وربما كان أحد الأسباب التي جعلت أمثال ابن حزم يردّون أخبار حذيفة هو هذا الحب الكبير الذي كان يحمله لأمير المؤمنينعليه السلام، ولكن وجود الأدلة الكثيرة على معرفة حذيفة بالمنافقين لا يُبقي مجالاً لردّ هذه الأخبار.

مؤشرات على معرفة حذيفة بأصحاب العقبة

تتحدث بعض أخبار أهل السنة عن حادثة وقعت بين سلمان وحذيفة؛ ونصوص هذه الأخبار مفضوحة من حيث الأكاذيب والنوايا المغرضة، ولكنها تشترك جميعاً في أنّ حذيفة كان يعرف المنافقين حق المعرفة.

والحادثة تتلخص في أنه عند ما كان سلمان والياً على المدائن كان حذيفة يحدّث عن رسول اللهﷺ بأحاديث تتهم الكثير من المسؤولين في دولة الخلافة، وحين كان سلمان يسمع بذلك كان يقول: حذيفة يعلم ما يقول ويعرف جيداً ما يقول.

يروي أبوداود هذا الخبر في سننه على هذا النحو:

«كان حذيفة بالمدائن فكان يذكر أشياء قالها رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم لأناس من أصحابه في الغضب، فينطلق ناس ممن سمع ذلك من حذيفة فيأتون سلمان فيذكرون له قول حذيفة، فيقول سلمان: حذيفة أعلم بما يقول، فيرجعون إلى حذيفة فيقولون له: قد ذكرنا قولك لسلمان فما صدقك ولا كذبك.

فأتى حذيفة سلمان ـ وهو في مبقلة ـ فقال: يا سلمان، ما يمنعك أن تصدقني بما سمعت من رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم؟ فقال سلمان: إنّ رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم كان يغضب

فيقول في الغضب لناس من أصحابه، ويرضى فيقول في الرضا لناس من أصحابه، أما تنتهي حتى تورث رجالاً حب رجال ورجالاً بغض رجال، وحتى توقع اختلافاً وفرقة؟ ولقد علمت أنّ رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم خطب، فقال: أيما رجل من أمتي سببته سبة، أو لعنته لعنة في غضبي، فإنما أنا من ولد آدم أغضب كما يغضبون، وإنما بعثني رحمة للعالمين، فاجعلها عليهم صلاة يوم القيامة، والله لتنتهين أو لأكتبن إلى عمر»![1]

في هذا الخبر ما يكشف عن تحريفه؛ فنظراً إلى أنّ من المؤكد أنّ النبيّ الأكرمﷺ لعن بعض الناس، فقد سعى الخبر إلى الإيحاء بأنّ اللعن لم يكن يصدر عن النبيّﷺ إلا عند الغضب، وأنه لم يلعن وهو في حالة هدوء.

الغاية من هذا الإيحاء، التمهيد لإفراغ اللعن والسب الصادرين من النبيّﷺ من قيمتهما. وعند ما يعاتب حذيفة سلماناً على عدم تأييده لحديثه، يجيبه سلمان بما يطعن بكلام النبيّﷺ، فيقول: إنّ النبيّﷺ يغضب كما يغضب أي واحد منّا فيقول كلاماً في أصحابه.

والمعنى الآخر لهذا الكلام هو أنّ لعن النبيّﷺ لأمثال أبي سفيان ومعاوية[2] وفلان

---

١. أبوداود، السنن: ٤/ ٢١٥.

٢. الطبري، **التاريخ**: ٨/ ١٨٥؛ ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**: ٦/ ٢٨٩؛ ابن مزاحم المنقري، **وقعة صفين**: ص٢٢٠.

وفلان[١] إنما هو نابع من غضبه، وكذلك فإنّ مدحه لأميرالمؤمنينؑ وأهل البيتؑ نابع من رضاه؛ لذا فلا أساس إلهياً لكلامه في الغضب وفي الرضا، ولا يمكن أن يكون معياراً للحكم على الأفراد.

ثم يعمدون من أجل تبييض بعض الوجوه، إلى تعداد مضار نقل أخبار سبّ النبيّ الأكرمﷺ لبعض الصحابة ولعنه إياهم، مدّعين أنّ نقل هذه الأخبار مدعاة لانتشار العداوة والخلاف بين أفراد المجتمع ولابد من اجتنابه.

وينقلون حديثاً عن سلمان يزعمون فيه أنه قال: إنّ رسول اللهﷺ خطب يوماً فقال: «ما من أحدٍ من أمتي شتمته وأنا غضبان، فإني من ولد آدم أغضب كما يغضبون وقد بعثني الله رحمة للعالمين؛ لذا فإنّ هذا اللعن والسب سيكون عليهم تحية وسلاماً يوم القيامة». بناءاً على هذا فليس فقط لا يكون من يلعنهم النبيّﷺ مطرودين من رحمة الله، بل إنهم فوق ذلك سينالون درجة رفيعة في الدنيا والآخرة!

ثم يقول سلمان: إن لم تكف رفعتُ أمرك إلى عمر؛ وعلى فرض صحة هذا الكلام، فإنه يكشف عن جو الإرهاب الحاكم على البلاد وإرهاب الدولة المنتشر بين العباد في ذلك الوقت.

وتسبق رواية «أحمد بن حنبل» للخبر مقدمة قصصية لا علاقة لها بأصل الموضوع ولكنها توهم بأنّ الناقل يستحضر مكان الخبر وزمانه بدقة وأنه يحتفظ بأدق تفاصيله، إذن فالخبر صحيح! وهذا الأسلوب متبع في رواية الكثير من الأحاديث الموضوعة،

---

١. الشهرستاني، الملل والنحل: ١/ ٢٣؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٦/ ٥٢؛ الجوهري، السقيفة وفدك: ص٧٧.

وسنترك رواية الخبر ونتناول أصله.

يروي «عمرو بن أبي قرة الكندي» الحوار الذي جرى بين أبيه وبين سلمان حول كلام حذيفة، فيقول نقلاً عن أبيه:

«قال [سلمان]: إنّ حذيفة كان يحدث بأشياء يقولها رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم في غضبه لأقوام، فأسأل عنها؟ فأقول: حذيفة أعلم بما يقول، وأكره أن يكون ضغائن بين أقوام. فأتي حذيفة فقيل له: إنّ سلمان لا يصدقك ولا يكذبك بما تقول، فجاءني حذيفة فقال: يا سلمان ابن أم سلمان [!] قلت: يا حذيفة ابن أم حذيفة [!] لتنتهين أو لأكتبن إلى عمر، فلما خوفته بعمر تركني [!]، وقد قال رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم: من ولد آدم أنا، فأيما عبد مؤمن لعنته لعنة، أو سببته سبة في غير كنهه، فاجعلها عليه صلاة»![1]

أما أولاً فإنهم يطرحون اسم سلمان هنا للثأر منه وتشويه صورته لدى الشيعة، وكذلك جعل الخبر قابلاً للتصديق لدى الشيعة؛ فلو أنهم رووا مثل هذا الكلام عن عمر أو معاوية وأمثالهما لما تردد الشيعة في رفضه، أما أن ينسب لسلمان قوله إنّ النبيّ ﷺ قال: لا قيمة لما أسب أو ألعن، فقد يكون ذلك مؤثراً.

ولعل الغاية من وضع مثل هذه الأحاديث الإيحاء بعدم وجود مصدر إلهي لفضائل أميرالمؤمنين عليه السلام على لسان النبيّ الأكرم ﷺ وأنّ الله لم يقرر شيئاً لمستقبل

---

١. أحمد بن حنبل، المسند: ٥/ ٤٣٩.

المسلمين، وكذلك الأمر فيما صدر عنه وهو غاضب بحق المنافقين.

ومن جانب آخر فإنّ وقوع الخلاف بين سلمان وحذيفة يقلل من قيمة كلام حذيفة، فإذا كان قد روى شيئاً عن المنافقين فلا يُعبأ به.

على أنّ المهم هو أنّ هذه الأخبار تنبئ عن قوة حذيفة في الكشف عن المنافقين وأنه لم يكن لأحد أن يكذّب أقواله، حتى سلمان فهو لم يردّها.

الأمر الآخر هو مدلول الكلام المروي عن رسول اللهﷺ، وهو مردود ومضاد لنص القرآن وتتوفر أخبار كثيرة معارضة له؛ فالنبيّﷺ معصوم في القول والفعل ولا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى، وإنّ التركيز على هذا الجانب يقودنا إلى نقاط عالية القيمة.

ولعل الغاية من نشر هذا الحديث أن يكون سلاحاً بوجه نشر أسماء المنافقين أو صفاتهم، حيث أنه لما طلب «عبدالله بن عثمان بن خثيم» من أبي الطفيل أن يذكر له أسماء المنافقين الذين لعنهم النبيّﷺ منعته زوجته من ذلك قائلة: «مه يا أبا الطفيل، أما بلغك أنّ رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم قال: اللهم إنما أنا بشر، فأيما عبد من المؤمنين دعوت عليه بدعوة، فاجعلها له زكاة ورحمة؟»[١].

قلق بعض الصحابة من علم حذيفة

ذكرنا أنّ بعض الصحابة طلبوا من حذيفة أن يبرئهم من النفاق، أو أن لا يحدّث عن المنافقين.

---

١. أحمد بن حنبل، المسند: ٥/ ٤٥٤.

ويذكر أبونعيم في «حلية الأولياء» ما يبين أنّ حذيفة كان يتكلم عن المنافقين ويخبر الناس عنهم كلما سنحت الفرصة، وكان بعضهم قلقاً مما كان محتملاً أن يكشفه من المنافقين.

فيروي عن «نزال بن سبرة»: أنّ عثمان سأل حذيفة عن أشياء كان يبلغه أنه حدّث الناس بها، فأنكر حذيفة ذلك. فاكتفى عثمان بإنكاره وقال: حسبي ما اعترفت به لأنك أصدق الناقلين ولا أصدق غيرك. يقول ابن سبرة: لما خرج عثمان قلت لحذيفة: ألم تقل ما قلت؟ فقال: «بلى، ولكن اشتري ديني بعضه ببعض مخافة أن يذهب كله».[1] وهكذا كان حذيفة يتقي عثمان.

لقد كانت الظروف السائدة والإرهاب الذي تنشره أجهزة الخلافة قد وضعت جميع الصحابة في هذا الوضع المحفوف بالفتنة، حتى أنّ حذيفة نفسه كان يقول: لم يدرك صحابي هذا الزمن إلا واشترى بعض دينه ببعضه الآخر. ولما سئل: حتى أنت؟ قال: نعم. ثم تكلم عن موقف معين من مواقف التقية التي اضطر إليها: إذا دخلت على أحدهم ـ يعني: الأمراء والمسؤولين ـ ولم أجد أحداً عنده، وفيه حسنات وسيئات لا يحب أن يسمعها فأكتفي بذكر حسناته، وما أكثر ما دُعيت إلى موائدهم فقلت: أنا صائم ولم أكن صائماً[2] [خشية أن تكون أمواله مغصوبة]!

يتبين من هذا الكلام أنّ أجهزة الخلافة كانت تواجه بأشد الدرجات كلَّ من يتعرض بأبسط تعرض للمنافقين الذين استولوا على الحكم بعد رسول اللهﷺ، الأمر

---

١. أبونعيم الاصفهاني، حلية الأولياء: ١/ ٢٧٩.

٢. الذهبي، سير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٦٨.

الذي كان يجبر الناس على التزام التقية.

تأكيد حذيفة على وجود النفاق المكشوف بعد وفاة النبيّ الأكرمﷺ

أكد حذيفة أنّ المنافقين كانوا يمارسون نفاقهم بشكل مكشوف بعد وفاة النبيّﷺ؛ كان يقول:

«إنّ المنافقين اليوم شر منهم على عهد رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم، كانوا يومئذ يكتمونه، وهم اليوم يجهرونه».[١]

ومن الواضح أنه كان يعني فترة حكم أبي بكر وعمر وعثمان، وخاصة عهد الخليفتين الأول والثاني، لأنه توفي بعد تولي عثمان الخلافة بأربعين يوماً.

يقول الخطيب البغدادي: إنّ حذيفة قال:

«المنافقون الذين قبلكم اليوم شر من المنافقين الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم. قال: قلنا: وكيف ذاك؟ قال: إنّ أولئك أسروه وهؤلاء أعلنوه».[٢]

بعبارة أخرى: كان المنافقون في حياة رسول اللهﷺ يحاولون التستر على نفاقهم، ولكنهم اليوم يخالفون الشرع ويعصونه جهاراً؛ إنهم لم يدّعوا الكفر ولكنهم عادوا إلى الجاهلية تحت غطاء الإسلام، وأصبحوا يجهرون بغاياتهم وينشرونها بين الناس، بعد أن كانوا يخفونها في حياة رسول اللهﷺ.

---

١. البيهقي، السنن الكبرى: ٨/ ٣٤٨ـ٣٤٩.

٢. الخطيب البغدادي، موضح أوهام الجمع والتفريق: ١/ ٥١٣.

وينقل البخاري أيضاً مضموناً مشابهاً لهذا في خبر يرويه عن حذيفة.[١] وفي رواية أخرى عن حذيفة يقول:

«إنما كان النفاق على عهد النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم، فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان».[٢]

ويروي نظير ذلك البيهقي عن «آدم بن أبي إياس»، عن «شعبة»، أي: أنهم كانوا يكتمون نفاقهم في حياة رسول الله وباتوا يظهرونه اليوم.[٣]

هذه الأخبار تصحح رأينا فيما يخص أوضاع المجتمع المدني قبل وفاة النبيّ الأكرمﷺ وبعدها.

---

١. البخاري، **الصحيح**: ٩/ ٥٨.

٢. المصدر نفسه.

٣. البيهقي، **السنن الكبرى**: ٨/ ٣٤٨ـ٣٤٩.

القسم الثاني: المنافقون وجوه معروفة

معرفة النبيّ الأكرمﷺ بالمنافقين

كما مر علينا، فإنّ أشخاصاً مثل ابن حزم كانوا يعتقدون بأنّ رسول اللهﷺ لم يكن يعرف المنافقين أساساً فيخبر أحداً بأسمائهم.

يقول أنصار هذا الرأي: المنافق هو من يخفي كفره ويظهر للناس إيماناً.

على هذا، فكيف كان يمكن للنبيّ الأكرمﷺ أن يكشف بواطن هؤلاء لبعض أصحابه مثل حذيفة؟ إضافة إلى ذلك هناك آيات قرآنية تدل على عدم معرفة النبيّ الأكرمﷺ بالمنافقين، كقوله تعالى:

﴿وَلَوْ نَشاءُ لأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ﴾.[1]

«لو أراد الله لأراك المنافقين يا محمد، ولعرفتهم بوجوههم، ولكنك تعرفهم من طريقتهم في الكلام والله يعلم أعمالكم».

وقوله أيضاً:

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرابِ مُنافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ مَرَدُوا عَلى

---

١. محمد (٤٧): ٣٠.

النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ﴾.[١]

«وإنّ من العرب البدو الذين في أطرافكم منافقين، وكذلك من أهل المدينة أناس تطبعوا على النفاق، أنت يا محمد، لا تعرفهم والله يعرفهم، وقريباً سنعذبهم مرتين ثم يردّون إلى عذاب عظيم».

وللرد على هذه الشبهات يمكننا القول إجمالاً بأنّ الآية الأولى هي بنفسها تعريف للمنافقين، لأنّ الإيمان يقابل الكفر، وكما أنّ الإيمان غير قابل للمشاهدة، بل يعرف من آثاره ونتائجه، فكذلك النفاق. إنّ النفاق يمكن التعرف عليه في الشخص من خلال أقواله وأفعاله تماماً، كما في الحب والبغض والتعلق والكره وما شابهها من أمور لا تعرف إلا بآثارها.

وإنّ مدلول أمثال هذه الآيات ليس عدم معرفه النبيّ الأكرمﷺ بالمنافقين، بل هو بيان بأن النفاق لا يظهر على وجوه المنافقين؛ فانّ بمقدور الله تعالى أن يميز المنافقين بوجوههم كما يميز الأعراق والأجناس في البشر، بحيث يتاح التعرف عليهم للجميع.

أو كما يقول تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ ...﴾[٢]؛ أي: أنّ المجرمين يمتازون يوم القيامة من غيرهم بوجوههم، فبإمكان الله أن يفعل ذلك بالمنافقين في الدنيا فيفضحهم؛ لذا يقول: ﴿وَلَوْ نَشاءُ لأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ ...﴾، ومع أنّ الله

---

١. التوبة (٩): ١٠١ .

٢. الرحمن (٥٥): ٤١.

تعالى من لطفه ورحمته لم يفعل ذلك، إلا أنّ ذلك لا يعني أنّ النبيّ الأكرمﷺ لم يكن يعرف المنافقين وهو يؤكد: ﴿...وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ...﴾؛ على أنّ وجود لام التوكيد في الجملة ونون التوكيد الثقيلة في آخرها يعطي توكيداً مضاعفاً على أنّ النبيّﷺ سيعرفهم من طريقتهم في الكلام.

وكذلك الآية الثانية:

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرابِ مُنافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ﴾

لا تدل على عدم معرفة النبيّﷺ بالمنافقين، فهي في مقام بيان واحد من الأمور الطبيعية وهو أنّ الأشخاص البعيدين في سكنهم عن النبيّ الأكرمﷺ، والضعيفين الاتصال به، يصعب تمييز كونهم منافقين أو مؤمنين صادقين حتى يخبر الله نبيه به؛ وهذا لا يتعارض مع معرفة النبيّﷺ بنفاق المنافقين الذين يترددون عليه ويجالسونه، بل إنه لا يتعارض مع معرفتهﷺ بنفاق المنافقين من البدو الذين لم يكونوا على اتصال به. فالآية لا تقول إنّ النبيّﷺ لا يعرفهم، بل تقول إنّ نفاق الأشخاص لا يظهر إلا من تصرفاتهم أو بإخبار الله نبيه به، ولاشك أنّ رسول اللهﷺ كان يعرف جميع المؤمنين والمنافقين بالعلم الإلهي.

إضافة إلى ذلك، يوجد الكثير من الآيات والروايات الدالة على معرفة النبيّﷺ والمؤمنين بالمنافقين، سنتناولها لاحقاً.

دلالة الآيات القرآنية على معرفة النبيّ الأكرمﷺ بالمنافقين

الآيات التي اخترناها لهذا الموضوع هنا هي من سورتي آل عمران والنساء، فسورة النساء ـ كما سورة آل عمران ـ نزلت بين العامين الثالث والرابع للهجرة، قبل فتح مكة.

وبملاحظة زمن نزول الآيات، نتبين أنّ النبيّ الأكرمﷺ كان يواجه فتنة المنافقين منذ سنوات الهجرة الأولى، كما أنّ في سورة التوبة آيات تفيد بمعرفة النبيّﷺ بالمنافقين.

إنّ آيات النساء والتوبة تنبئ بأنّ النبيّﷺ كان يواجه فتنة النفاق طول فترة رسالته حتى نهاية عمره الشريف وليس في بداية الهجرة فحسب.

ألف) منع المؤمنين من مصادقة المنافقين

في ثلاث آيات من سورة آل عمران ينهى الله المؤمنين من مصادقة المنافقين، فيقول:

﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَـتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ البَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ وَما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّـنَّا لَـكُمُ الآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾. [١]

«البطانة» ما بطن من الثوب، خلاف ظهارته، [٢] وهي كناية عن الصداقة الحميمة الوثيقة التي يكون فيها المرء موضع سر صديقه ونجواه. والله ينهى المؤمنين عن مصادقة غيرهم واستيداعهم أسرارهم، لأنهم لا يريدون لهم الخير ولا يترددون في

---

١. آل عمران (٣): ١١٨.

٢. ابن منظور، **لسان العرب**: ١٣/ ٥٦.

إلحاق الضرر بهم؛ والضرر هنا لا يراد به الضرر الشخصي، لأنّ الآية تخاطب جماعة المؤمنين لا أفرادهم، بل هو ضرر يصيب إيمان المؤمنين.

بعبارة أخرى: المنافقون يستهدفون إيمان المؤمنين بالضرر.

ثم يقول: ﴿قَدْ بَدَتِ البَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ وَما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾، يعني: أنّ الكره الذي يحملونه للمؤمنين يبدو من أقوالهم، وأنّ ما يخفونه في صدورهم من غلٍ تجاه المؤمنين أكبر مما يظهر على ألسنتهم. ثم يؤكد ﴿قَدْ بَيَّـنّا لَـكُمُ الآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وتكشف الآية التالية حقيقة أخرى كان المؤمنون يعانون منها:

﴿هـا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالكِتابِ كُلِّهِ وَإِذا لَقُوكُمْ قالُوا آمَنّا وَإِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنامِلَ مِنَ الغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِـيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾.[1]

وهذه حقيقة لا تنكر وهي أنّ المؤمنين في عهد النبيّ الأكرمﷺ كانوا أصدقاء للمنافقين، والآية تقول بصراحة: ﴿تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالكِتابِ كُلِّهِ﴾ وهم لا يؤمنون به، ﴿وَإِذا لَقُوكُمْ قالُوا آمَنّا وَإِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنامِلَ مِنَ الغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِـيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾، والمخاطب في هذه الآية المؤمنون. وهنا نقطتان:

الأولى: أنه عند نزول الآية كان بعض المؤمنين على علاقة قرابة أو جوار أو تضامن أو غيره مع المنافقين وكانوا يتخذونهم أصدقاء.

---

١. آل عمران (٣): ١١٩.

والثانية: أنه ليس النبيّ الأكرمﷺ وحده، بل حتى باقي المؤمنين كانوا يعرفون المنافقين ويصادقونهم، رغم معرفتهم بنفاقهم؛ فلو أنهم لم يكونوا يعرفونهم، فلماذا يقول الله تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ البَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ﴾؟ ولماذا يؤكد على أنّ المؤمنين يعرفونهم من حقدهم الذي يبين من كلامهم؟ بل لو لم يكن المؤمنون في المدينة يعرفون المنافقين، فإنّ الأمر بعدم مصادقتهم سيكون «أمراً بما لا يطاق».

والله يبين علامات المنافقين لكي لا تبقى حجة لمعتذر بالجهل، حيث يقول:

﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِها وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.[1]

ثم يخبر الله المؤمنين بأنهم إن لم يصادقوهم واستقاموا واتقوا فلن يصيبهم من كيدهم شيء وبأن الله بما يعمل المنافقون محيط، لأنّ المؤمنين السذّج كانوا يظنون أنهم بمصادقتهم للمنافقين فإنهم لا يأمنون جانبهم فحسب، بل ينتفعون منهم أيضاً، ولكن الله يأمرهم بالتزام الصبر واجتناب مصادقتهم وذلك هو السبيل الوحيد لتوقي شرورهم.

ب) تفضيل حكم الطاغوت؛ علامة من علامات النفاق

يبين الله علامة أخرى من علامات الإيمان وهي الاحتكام إلى الله ورسوله، يقول:

﴿... فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ...﴾.[2]

---

١. آل‌عمران (٣): ١٢٠.

٢. النساء (٤): ٥٩.

ثم يشير إلى مؤشر النفاق وهو الاحتكام إلى الطاغوت فيقول:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلى الطّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً﴾.[١]

ثم يقول في الآية التي تليها:

﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللهُ وَإِلى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً﴾.[٢]

«وإذا قيل للمنافقين احتكموا في منازعاتكم إلى الله ورسوله، رأيتهم يا محمد، يعرضون عنك إعراضاً».

كان المنافقون إذا اضطروا للتحكيم يحكّمون اليهود ويتذرعون بأنّ اليهود كانوا يحكمون بينهم من قبل وهم على علم بالأصول القبلية السائدة فيهم، ولكن إذا لحقهم ضرر من حكم اليهود جاؤوا إلى رسول اللهﷺ معتذرين ليحكم بينهم، والله يعتبر تلك التصرفات من علامات النفاق:

﴿فَكَيْفَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنا إِلاّ إِحْساناً وَتَوْفِيقاً﴾.[٣]

«فكيف سيكونون إذا أصابتهم مصيبة بسبب تصرفاتهم هذه

---

١. النساء (٤): ٦٠.

٢. النساء (٤): ٦١.

٣. النساء (٤): ٦٢.

فجاؤوك يحلفون عندك بالله على أنّ غايتهم لم تكن إلا الإصلاح والتوفيق بين الأطراف».

ثم يصرح:

﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾.[١]

أي: أنهم لا يعتبرون مؤمنين إلا إذا اتخذوك حكماً لهم في مشاجراتهم ورضوا بحكمك ولم ينزعجوا وسلّموا تسليماً.

الملاحظ في هذه الآيات أنّ الله يأمر نبيه بالإعراض عن الذين يحتكمون إلى الطاغوت ويؤكد أمره: **﴿...فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾**[٢]؛ وهذا يستلزم أن يكون النبيّ الأكرمﷺ عارفاً بهم، بل إنّ المؤمنين أصبحوا قادرين على تمييز المنافقين بعد نزول هذه الآيات، لأن المنافقين وإن كانوا لا يصرحون بنفاقهم قولاً، فإنهم كانوا يكشفونه فعلاً. ثم يعطي الله المسلمين معياراً لتمييز الإيمان والكفر.

ج) الفرار من القتال؛ من خصائص المنافقين

جاء في كتب التفسير: أنّ عبدالرحمن بن عوف ذهب إلى مكة مع جماعة من أصدقائه وشكوا إلى النبيّﷺ أنهم حين كانوا على الشرك كانوا محترمين ولكنهم فقدوا

---

١. النساء (٤): ٦٥.

٢. النساء (٤): ٦٣.

ذلك الاحترام بعد أن آمنوا، ثم طلبوا الإذن من رسول اللهﷺ في أن يقاتلوا المشركين، غير أنّ الأمر الإلهي نزل بأن يلتزموا الصلاة والزكاة.[١]

يشير الله إلى هذه الحادثة في الآية ٧٧ من سورة النساء بقوله:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ فَلَمّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقالُوا رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتالَ لَوْلا أَخَّرْتَنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾.[٢]

«ألم تر ـ يا محمد ـ الذين قيل لهم في مكة: كفوا عن الجهاد والتزموا إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ولكن حين نزل عليهم الأمر في المدينة بالجهاد خافوا الناس كخوفهم من الله، بل أكثر من ذلك؟».

أي: انهم لما أمروا بالقتال في المدينة خافوا الناس خوفاً حقيقياً، أما الله فلم يكونوا يخشونه أبداً، وأنّ ما فعلوه كان ناجماً من خشية الناس وليس من خشية الله.

ولم يعترضوا على إعلان الحرب، بل قالوا: ربنا لم أوجبت علينا المشاركة في القتال؟ ولم لم تجعل الجهاد اختيارياً؟ وأما وقد أوجبت القتال فلم لم تؤخر موعده؟ فيقول الله مخاطباً رسوله: قل لهم: إنّ متاع الدنيا قليل وإنّ الآخرة أفضل للمتقين، وإنكم لن تُظلموا بمقدار شق نواة تمرة.

---

١. ابن أبي حاتم، التفسير: ٣/ ١٠٠٥؛ الطبري، جامع البيان: ٥/ ١٧٠ ـ ١٧١.

٢. النساء (٤): ٧٧.

الملاحظ في هذه الآية الشريفة: أنّ النبيّ الأكرمﷺ كان يعرف أولئك الذين أصروا في مكة على القتال، وهذه خصيصة أخرى من خصائص المنافقين، وهي أنهم يطيعون أوامر الله ورسوله حين يكونون في جمع المؤمنين، أما حين يكونون وحدهم فيتصرفون خلاف أوامر رسول اللهﷺ، حيث يقول الله:

﴿وَيَقُولُونَ طاعَةٌ فَإِذا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللهُ يَكْتُبُ ما يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفى بِاللهِ وَكِيلاً﴾.[١]

«يقول المنافقون: نحن مطيعون لك يا رسول الله، ولكن بمجرد أن يخرجوا من عندك، تبدأ مؤامراتهم وتدبيراتهم الليلية ضدك، والله يعلم بما يدبرون ليلاً، فأعرض عنهم وتوكل على الله وهو حسبك».

إنّ من لوازم الإعراض عن المشركين أن يعرفهم النبيّ الأكرمﷺ، فلو أنه لم يكن يعرفهم فما يكون معنى قوله تعالى مخاطباً نبيه: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾؟

د) منع المؤمنين من إقامة علاقات مع المنافقين

كان المؤمنون يقسمون المنافقين إلى فئتين: منافقين قابلين للهداية ومنافقين غير قابلين للهداية، وكانوا يقيمون علاقات مع منافقي الفئة الأولى. ويبدو أنّ القابلية على الهداية كانت مجرد حجة لإقامة العلاقة معهم؛ على هذا كانت الفئة الأخرى، التي لم تكن على علاقة مع المؤمنين، تصنف على أنها غير قابلة للهداية، ولكن الله يرفض هذه التصنيفات ويقول:

---

١. النساء (٤): ٨١.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾.[١]

«ليس المنافقون، أيها المؤمنون، فئتين وقد أركسهم الله في الوحل وسمّرهم في الأرض وهم غير قابلين للهداية بسبب أفعالهم، وأنتم تريدون أن تهدوا من أضله الله، في حين أنّ أعمالهم القبيحة تمنع عنهم كل هداية».

وفي الآيات التي بعدها يتطرق إلى بعض الحقائق الخفية في المجتمع:

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءاً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً﴾.[٢]

يتضح من هذه الآية أنّ بعض المنافقين كانوا على علاقة ودية مع بعض المؤمنين، فيما كانت علاقة الآخرين بهم ضعيفة، فيقول الله في الآية: أيها المؤمنون، إنّ صداقة المنافقين لكم ليست من باب المحبة لكم، ولكنهم يريدون أن يجروكم إلى كفرهم لتتساووا معهم؛ لذا يحذّر الله المؤمنين من أن يتخذوا من المنافقين أولياء ما لم يهاجروا في سبيل الله، أما إذا رفضوا ذلك فعليهم أن يقتلوهم حيثما وجدوهم ولا يتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً؛ فلو لم يكن المؤمنون يعرفون المنافقين فكيف يأمرهم الله بمثل هذا الأمر؟

---

١. النساء (٤): ٨٨.

٢. النساء (٤): ٨٩.

هـ) منع المؤمنين من حماية المنافقين

لقد كانت العلاقة بين المؤمنين والمنافقين من القوة والجدية بحيث كان المؤمنون يدافعون عنهم. يقول الله في إحدى الآيات:

﴿إِنّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الكِتابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ بِما أَراكَ اللهُ وَلا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً﴾.[1]

«يا رسول الله، احكم بين الناس بما أنزل الله إليك ولا تكن عوناً للخائنين في خصوماتهم».

خطاب الآية موجه إلى النبيّ الأكرمﷺ، وإذا كان موضوع الآية شديداً جاء خطابها شديد اللهجة ليبين أنّ بعض المؤمنين كانوا متضامنين مع المنافقين لدرجة أن يجبروا النبيّﷺ على التغاضي عنهم شيئاً ما؛ على أنّ قول الله لرسولهﷺ: لا تأخذ جانب الخائنين في خصوماتهم، إنما هو تعريض بالمؤمنين الذين كانوا يدافعون عن المنافقين ويبررون علاقتهم بهم.

ثم يقول:

﴿وَلا تُجادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ خَوّاناً أَثِيماً﴾.[2]

«لا تدافع عن الذين خانوا أنفسهم والله لا يحب من كان كثير الخيانة والإثم».

---

١. النساء (٤): ١٠٥.

٢. النساء (٤): ١٠٧.

«خوّان» صيغة مبالغة و«أثيم» صفة مشبهة، والفرق بين «الآثم» و«الأثيم» أنّ الأول يرتكب الإثم مرة واحدة، أما الثاني فيكثر من ارتكاب الآثام؛ أما لماذا اختار الله «خوّاناً» و«أثيماً» فهذا ما توضحه الآية التي تليها، حيث يبين الله أنّ نفاق هؤلاء دليل على عدم إيمانهم، فيقول:

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذ يُبَيِّتُونَ ما لا يَرْضى مِنَ القَوْلِ وَكانَ اللهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطاً﴾.[1]

«إنهم يتظاهرون [بالإيمان] ولا يجهرون بكفرهم، ولكنهم عند ما يجتمعون في الليل لا يتورعون عن أي كلام كافر، وإذا كان بمقدورهم أن يخفوا ذلك على الناس فإنهم لا يخفونه عن الله، وهذا ناجم عن كفرهم».

ثم يقول الله:

﴿ها أَنْتُمْ هـؤُلاءِ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الحَياةِ الدُّنْيا فَمَنْ يُجادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾.[2]

«إنكم تجادلون عنهم وتدافعون عنهم في الأمور الدنيوية، فمن الذي يدافع عنهم يوم القيامة ومن الذي يخلصهم من عذاب الله؟».

تبين هذه الآيات أنّ بعض المؤمنين كانوا يدافعون عن المنافقين ويسعون في خدمة مصالحهم إلى الحد الذي يجادلون فيه رسول اللهﷺ من أجلهم؛ إذن، فالمؤمنون كانوا يعرفون المنافقين ويصرون على إدامة علاقات وثيقة معهم، حتى استحقوا هذا التوبيخ

---

١. النساء (٤): ١٠٨.

٢. النساء (٤): ١٠٩.

من الله، ولا شك أنّ هذا النمط من المؤمنين كان محباً للدنيا ضعيف الإيمان.

و) منع المؤمنين من مجالسة المنافقين

كان المنافقون، في اجتماعاتهم الخاصة، يسخرون من آيات القرآن ويهزؤون بها، وكان يجلس معهم بعض المؤمنين ويستمعون إليهم، فيقول الله في هذا:

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللهِ يُكْفَرُ بِها وَيُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جامِعُ المُنافِقِينَ وَالكافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً﴾.[١]

فكيف يمكن أن لا يعرف المؤمنون المنافقين وهم يجالسونهم؟ وكيف لا يعلمون أنّ الذين يسخرون من آيات القرآن لا إيمان لهم؟

معرفة الناس بالمنافقين على أساس الأخبار

لقد دأبنا من بداية أبحاثنا هذه ـ وسنستمر أيضاً ـ على متابعة تاريخ النفاق لا تاريخ الفسق؛ الفسق مقابل العدالة والنفاق مقابل الإيمان؛ الفاسق هو الذي لا يتقيد بأحكام الشرع، والفسق كالإيمان، على مراتب ودرجات، وهذا لا يعني أنّ الفاسق يرتكب أي شكل من أشكال الفسق.

وقد يقول قائل: إنّ الفسق درجات فقد يترك أحد الفاسقين الصلاة، وآخر يكذب، وثالث يزني، ورابع قد يغصب الخلافة، وآخر يعتدي على بنت النبيّ الأكرم ﷺ.

---

١. النساء (٤): ١٤٠.

إنّ من يعتبر كل هذه الحالات من مصاديق الفسق، لا يعرف الفرق بين الفسق والنفاق. فالمنافق هو من يلطم وجه بنت رسول اللهﷺ، لأنه لا يعتبر رسول اللهﷺ نبياً ولا يعتبر حكمه حكم الله. النفاق هو معاداة أصل الدين وإسرار بغض رسول اللهﷺ؛ المنافق يوجه فأسه إلى جذر الإسلام.

الحقيقة إنّ المنافقين لا يقلون كفراً عن كفر أبي لهب وأبي جهل، أما المؤمن الفاسق الفاجر فلا يصل به فسقه إلى هذا الحد.

إذا ولي المنافق أمور المسلمين فإنه يستهدف أصل الدين، وإذا رأى انحرافاً في المجتمع عن مسار الهداية فلا يتصدى له، أما المؤمن الفاسق فلا يطيق الانحراف عن مسار الإمامة وقيادة المجتمع، ولا يقبل بزوال الدعوة النبوية في أصلها.

يروي البخاري في ذيل الآية ١٢ من سورة التوبة[١] حديثاً عن حذيفة، يشير فيه إلى هذا الفرق بين النفاق والفسق.

يقول زيد بن وهب:

> «كنا عند حذيفة، فقال: ما بقي من أصحاب هذه الآية إلا ثلاثة، ولا من المنافقين إلا أربعة، فقال أعرابي: إنكم أصحاب محمد صلى الله عليه [وآله] وسلم، تخبرونا فلا ندري، فما بال هؤلاء الذين يبقرون بيوتنا ويسرقون أعلاقنا؟ قال: أولئك الفساق، أجل لم يبق منهم [من المنافقين ورؤوس الكفر] إلا أربعة، أحدهم شيخ كبير، لو شرب الماء البارد لما وجد برده».[٢]

---

١. ﴿... فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾.

٢. البخاري، **الصحيح**: ٦/ ٦٥.

لقد أعلن حذيفة مراراً بعد وفاة رسول الله ﷺ أنّ ما أصبح معلناً في زماننا، كان خافياً في عهد رسول الله ﷺ، وهو النفاق؛[١] بل إنّ حذيفة يسمي النفاق في موضع آخر من كلامه بالكفر، ويقول:

«إنما كان النفاق على عهد النبيّ صلى الله عليه [وآله] وسلّم، فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان».[٢]

لذا لابد من الالتفات إلى أنّ ما فعله بعض الصحابة لم يكن من فسقهم، بل كان ـ بشهادة القرآن ـ من نفاقهم، وهذه المقدمة إشارة إلى أنّ المنافقين كانوا وجوهاً معروفة في المجتمع.

ألف) خبر ابن إسحاق

ينقل ابن إسحاق:

«حدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن رجال من بني عبدالأشهل، قال: قلت لمحمود: هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم؟ قال: نعم والله، إن كان الرجل ليعرفه من أخيه ومن أبيه ومن عمه وفي عشيرته، ثم يلبس بعضهم بعضاً على ذلك».[٣]

على هذا فإنّ الناس كانوا يعرفون أهل النفاق منهم، والغريب أنهم كانوا يعرفون المنافقين القريبين منهم ولكنهم يخفونه عن الناس.

---

١. البخاري، **الصحيح**: ٩/ ٥٨.

٢. المصدر نفسه.

٣. ابن هشام، **السيرة النبوية**: ٤/ ١٦٦.

ب) شعر أبي خيثمة

ذكرنا أنّ أباخيثمة كان من الذين تخلفوا عن رسول اللهﷺ في بداية الأمر ولكنه ندم فالتحق به، وبعد التحاقه بالنبيّ الأكرمﷺ أنشد شعراً أثبته التاريخ يكشف عن أنّ الناس كانوا يعرفون المنافقين:

لما رأيت الناس في الدين نافقوا	أتيت التي كانت أعف وأكرما
وبايعت باليمنى يدي لمحمد	فلم أكتسب إثماً ولم أغش محرما
تركت خضيباً في العريش وصرمة	صفايا كراماً بسرها قد تحمما
وكنت إذا شك المنافق أسمحت	إلى الدين نفسي شطره حيث يَمَّما[١]

يقول: عند ما رأيت الناس نافقوا في الدين اخترت لنفسي أعف المواقف وأكرمها. وبايعت بيدي اليمنى محمداً ولم ارتكب إثماً ولم أقارب زوجتي. وتركت المرأة المتزينة تحت العريش وتركت تمراً حديث النضج لذيذاً. وكنت إذا تسرب الشك إلى قلب المنافق هوى قلبي إلى الدين حيثما كان.

ترسم هذه الأبيات لوحة واضحة لشكل المجتمع في عهد النبيّ الأكرمﷺ وكيف كان يعاني من ضغط النفاق، وهي شاهد قطعي على معرفة الناس بالمنافقين.

ج) التخلف عن جيش تبوك

ومن الأدلة على معرفة الناس بالمنافقين تخلفهم عن جيش النبيّ الأكرمﷺ في مسيره إلى تبوك، ولئن كانوا يتنصلون عن المشاركة في جميع حروب النبيّﷺ طلباً

---

١. ابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ١٦٤.

للعافية بحجج مختلفة، فإنّ تخلفهم عن غزوة تبوك كان علنياً. إنّ الذين قعدوا في المدينة كانوا يتآمرون على النبيّ ﷺ، ولم يكن ذلك خافياً على المؤمنين؛ لقد كانوا يبثون الذعر في صفوف المؤمنين بنشر الأخبار السيئة، وحين كانوا يسمعون بأنّ المسلمين أصيبوا بأذى أو ضرر كانوا يفرحون ويبشر بعضهم بعضاً، ويقولون: كنا نعلم ذلك من قبل ونحذر منه، أما اذا سمعوا بأخبار طيبة عن المسلمين من نصر أو سلامة كانوا يحزنون، وكان كل أهل المدينة يعرفون ذلك عليهم؛[١] لذا فلم يكن في المدينة من لا يعرف المنافقين.

وفي جيش تبوك أيضاً، اكتسب المنافقون شهرةً بين الناس من خلال العراقيل التي كانوا يضعونها في طريق المسلمين، حتى أنّ التاريخ يحدثنا بأنّ المنافقين تحركوا في غزوة تبوك بحجم لم يصلوا إليه في أية غزوة سبقتها، وجهروا بنفاقهم وصاروا يتكلمون به صراحة.[٢]

كراهة النبيّ الأكرم ﷺ لقتل منافقي العقبة

يتضح من الأخبار الواردة عن منافقي العقبة أنّ رسول الله ﷺ كان يكره أن ينزل بهم القصاص قبل الجرم، والحقيقة أنه كان يحكم على الناس بظواهرهم؛ وهذا الأسلوب واضح من الخبر الذي ينقله الواقدي من أسيد بن حضير، يقول الواقدي:

> «...فقال أسيد: يا رسول الله، فقد اجتمع الناس ونزلوا، فمر كل بطن أن يقتل الرجل الذي هم بهذا، فيكون الرجل من عشيرته هو

---

١. ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**: ٢/ ٢٩؛ المتقي الهندي، **كنز العمال**: ٢/ ٤٢٩.

٢. ابن سعد، **الطبقات الكبرى**: ٤/ ٣٧٦.

الذي يقتله، وإن أحببت ـ والذي بعثك بالحق ـ فنبئني بهم، فلا تبرح حتى آتيكم برءوسهم... قال رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم لأسيد: إني أكره أن يقول الناس إنّ محمداً لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه! فقال: يا رسول الله، فهؤلاء ليسوا بأصحاب! قال رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم: أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله؟ قال: بلى، ولا شهادة لهم! قال: أليس يظهرون أني رسول الله؟ قال: بلى، ولا شهادة لهم! قال: فقد نهيت عن قتل أولئك».[1]

وهناك روايات أخرى تحمل المضمون نفسه، حيث يروي ابن إسحاق، عن حذيفة وعمار ـ بعد الحديث عن واقعة العقبة ـ أنهما طلبا من رسول اللهﷺ أن يقتلوا المنافقين عند اجتماع الناس، فقال رسول اللهﷺ: «أكره أن يتحدث الناس أنّ محمداً قد وضع يده في أصحابه يقتلهم».[2]

---

١. الواقدي، المغازي: ٣/ ١٠٤٣ ـ ١٠٤٤.

٢. البيهقي، السنن الكبرى: ٩/ ٥٧.

الفصل الخامس

العودة إلى المدينة

- **موقف النبيّ ﷺ وحكم القرآن تجاه المنافقين المتخلفين**
- **حكاية الثلاثة الذين تخلفوا**

القسم الأول: موقف النبيّ الأكرمﷺ وحكم القرآن تجاه المنافقين المتخلفين

موقف النبيّﷺ في مواجهة المتخلفين

لقد تخلف الكثيرون عن جيش تبوك رغم تأكيد النبيّ الأكرمﷺ على مشاركة الجميع في الجهاد في غزوة تبوك، فبعضهم، كعبدالله بن أبي، خالف رسول اللهﷺ صراحة ولم يجب دعوته، وأقام معسكراً مقابل معسكره وانفصل هو ومن تبعه عن جيش المسلمين منذ البداية.

وتخلف آخرون متذرعين بأسباب واهية وقعدوا في المدينة. واستأذن جماعةٌ النبيّﷺ ولم يخرجوا معه، حتى الذين ساروا معه في جيشه فقد تسلل منهم جماعة في أثناء المسير وتركوا الجيش وعادوا إلى المدينة؛ وخلال ذلك كانت هناك هجمة إشاعات واسعة تثير الرعب في نفوس المسلمين، وكان كل ذلك مخططاً له من قِبل المنافقين لتحقيق غايتين:

الأولى: أن يترك الناس النبيّ الأكرمﷺ ولا ينضموا لجيشه، من أجل إضعاف جيش المسلمين عن القتال عند المواجهة، الأمر الذي من شأنه أن يقوّي احتمال مقتل النبيّﷺ في المعركة.

أما الثانية: فكانت استغلال غياب النبيّ الأكرمﷺ عن المدينة وبسط السيطرة عليها واتخاذها مقراً لتحقيق أهدافهم.

ولما كان الوصول إلى تلك الأهداف يستلزم القضاء على شخص النبيّ الأكرمﷺ فقد بث المنافقون عملاء لهم في جيشه، ليقوموا باغتياله في الطريق فيما لو انتهت معركة تبوك خلاف ما يتمنون، ولكن خططهم باءت بالفشل بعد أن أخبر الله تعالى نبيه بمحاولتهم اغتياله، وبعد أن ترك النبيّﷺ أميرالمؤمنين؈ خليفة له على المدينة في غيابه.

لم يمكث رسول الله في تبوك إلا أقل من عشرين يوماً،[١] ومع أنّ الواقدي يرى أنه مكث هناك عشرين ليلة،[٢] فقد عاد إلى المدينة بعد أن لم ير أثراً لجيش الروم وحلفائه من العرب النصارى.[٣] وكان النبيّ الأكرمﷺ قد غادر المدينة إلى تبوك في شهر رجب وعاد إليها في شهر رمضان.[٤]

كان أكثر المنافقين الذين تخلفوا عن جيش النبيّﷺ يظنون أنّ رسول اللهﷺ لن يعلم بتخلفهم عن الجهاد معه؛[٥] فقد كان عددهم من الكثرة بحيث كان كل واحد منهم يظن أنه يتوارى بينهم، علاوة على أنهم لم ينسوا سيرة النبيّ الأكرمﷺ في الناس القائمة على المرونة والإغضاء عن الأخطاء. كانوا يتوقعون أن يعفو عنهم النبيّ

---

١. ابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ١٧٠.

٢. الواقدي، المغازي: ٣/ ١٠١٥.

٣. ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢/ ١٤٩ ـ ١٥٠.

٤. اليعقوبي، التاريخ: ٢/ ٦٨.

٥. ابن‌هشام، السيرة النبوية: ٤/ ١٧٦ .

الأكرمﷺ هذه المرة أيضاً، وربما لو لم ينزل عليه الوحي لتعامل معهم بطريقته المعهودة بالعفو والتجاوز، إلا أنّ نزول الوحي أربك حسابات المنافقين.

بنزول سورة براءة نزلت آيات كثيرة في فضح خفايا المنافقين وبثت القلق في نفوس الكثير منهم، وخاصة الذين تخلفوا عن الجيش وقعدوا في المدينة، فعمدوا إلى تقديم الأعذار والمبررات لقعودهم.

ألف) الإعراض عن المنافقين المتخلفين

لما نزل رسول اللهﷺ ـ وهو عائد إلى المدينة ـ في موضع «ذي أوان»، خرج إليه الكثير من المنافقين المتخلفين في المدينة ليعتذروا إليه، فأمر رسول اللهﷺ أصحابه بعدم التكلم مع أيٍ منهم إلا بعد أن يأذن لهم، فكان الرجل منهم يدير وجهه عن أبيه وأخيه وعمه.[١]

ولا ننس أنّ أهل المدينة لم يسبق لهم أن أُمروا بمثل هذا الأمر من النبيّ الأكرمﷺ، ففوجئوا بموقف لم يكن في حسبانهم. وهذا ما أربكهم وأسقط في أيديهم، وإلا فإنّ الكثير من الناس ـ بما فيهم الحاضرون في الجيش ـ كانوا في قرارة أنفسهم يؤيدون المنافقين وقد سبق لهم أن عصوا أوامر النبيّ الأكرمﷺ؛ ولكنهم، من جانب، بوغتوا بأوامر النبيّﷺ، ومن جانب آخر اقتضت مصالحهم أن يتجنبوا المنافقين.

استمر هذا الحال بضعة أيام حتى ضاق المنافقون ذرعاً.[٢] وربما كانوا لا يدركون

---

١. الواقدي، المغازي: ٣/ ١٠٤٩ ـ ١٠٥٠.

٢. البيهقي، دلائل النبوة: ٥/ ٢٨٠.

جدية الأمر في الأيام الأولى، أو ظنوا أنّ الحالة لن تستمر طويلاً، ولكنهم حين رأوا قوة إصرار النبيّ ﷺ على الموقف، أخذوا يقدمون الأعذار والحجج لموقفهم.

من بين أوائل الذين جاؤوا إلى النبيّ الأكرم ﷺ معتذرين من بداية وصول النبيّ ﷺ، جماعة من بني غفار[١]، وقد مر علينا خبر تخلفهم، ولكن الله لم يقبل اعتذارهم.[٢]

ب) تغاضي النبيّ ﷺ عن ذنب المنافقين

بعد أن راجع المتخلفون النبيّ الأكرم ﷺ أكثر من مرة للاعتذار، قرر النبيّ ﷺ أن يتغاضى عن ذنبهم. كانوا يأتون إليه متذرعين بالحمى والمرض،[٣] ولكن كان ﷺ يشفق عليهم ويعاملهم على الظاهر، ويقبل أيْمانهم، مع علمه بأنهم يحلفون على الكذب، وكان يستغفر لهم ويحتسب ما في سرائرهم إلى الله.[٤]

ولا ننس أنّ تغاضي النبيّ ﷺ عن ذنب المنافقين ليس دليلاً على صدق توبتهم، بل إنّ النبيّ ﷺ سعى من خلال ذلك أن يعيد الهدوء إلى المدينة ويزيل أسباب التوتر، وذلك بالحكم على ظاهر الأمور ـ كما هي عادته ـ، والاكتفاء بإظهارهم الندم أمام الناس، أما القرآن فيقول: إنهم لم يكفوا عن نفاقهم.

---

١. ابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ١٦٢.

٢. المصدر نفسه.

٣. الواقدي، المغازي: ٣/ ١٠٤٩ ـ ١٠٥٠.

٤. المصدر نفسه.

رؤية القرآن عن المنافقين

ألف) التأكيد على نفاق المتخلفين

لقد رخص القرآن المعذورين من الجهاد، وقال:

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلهِ وَرَسُولِهِ ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.[1]

«ليس عليهم حرج إذا أحسنوا النوايا تجاه الله ورسوله».

كما يعتبر الله تخلف طائفة أخرى جائزاً، ويقول:

﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاّ يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ﴾.[2]

«ولا حرج على الذين إذا جاؤوك يسألونك أن تعطيهم دابة يركبونها للجهاد معكم، قلت: ما عندي ما أعطيكم من الدواب. يختلف هؤلاء عن سواهم بأنهم يتألمون لأنهم لا يملكون ما يساهمون به من أجل الغزوة ويخرجون وهم يبكون».

ولكن هناك أيضاً ممن تخلف عن الجهاد وهو يبدي السرور لمخالفته رسول الله ﷺ، وهناك من الأغنياء في المدينة ممن لم يكتف بعدم الخروج مع النبيّ الأكرم ﷺ، بل امتنع عن تجهيز غيره كذلك؛ فالله يعتبر هؤلاء من المنافقين ويقول:

---

١. التوبة (٩): ٩١.

٢. التوبة (٩): ٩٢.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الحَرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ﴾.[١]

يتضح من هذه الآية الشريفة أنّ المخلفين كانوا من المنافقين، لأنهم في البداية أظهروا الفرح من عدم مشاركتهم في الجهاد، وحين رأوا إعراض النبيّ ﷺ والناس عنهم، أخذوا يلفقون لأنفسهم الأعذار؛ فلو لم يكونوا منافقين لما فرحوا بتخلفهم عن جيش رسول الله ﷺ من البداية، وإذا لم يكونوا قادرين على بذل أرواحهم في سبيل الله فلماذا لم يبذلوا من أموالهم؟

وهنا لا بد من استذكار عتاب النبيّ ﷺ لبني غفار على تخلفهم، إذ قال: إن كانوا لا يأتون فلماذا لم يجهزوا غيرهم للمشاركة معنا؟[٢] إنّ القرآن يعتبر رضا المتخلفين بتخلفهم عن رسول الله ﷺ علامة من علامات النفاق؛ إنهم الجهلة الذين ختم الله على قلوبهم الذين يفرحون بالبقاء مع النساء والصبيان، وقد اشارت الآيات التالية إلى هذه الحقيقة:

﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَعِدِينَ * رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.[٣]

«وإذا أنزلت سورة تأمر بالإيمان بالله والجهاد مع رسوله استأذن

---

١. التوبة (٩): ٨١.

٢. ابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ١٧٢ ـ ١٧٣؛ الواقدي، المغازي: ٣/ ١٠٠١ ـ ١٠٠٢.

٣. التوبة (٩): ٨٦ ـ ٨٧.

الأغنياء النبيّ ﷺ بالبقاء مع القاعدين والمتخلفين. إنهم فرحون بالبقاء مع النساء والصبيان وقد طُبع على قلوبهم بأنهم لا يفهمون [الحقيقة]».

ب) تكذيب المنافقين

يعتبر القرآن جميع أعذار المنافقين ومبرراتهم كاذبة ويعزوها إلى النفاق، بل إنّ الله ينبئ عما سيقولونه بعد عودة النبيّ ﷺ ويخبره بأنهم كاذبون:

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الخالِفِينَ﴾.[1]

«فإن أعادك الله إلى فريق منهم واستأذنوك للخروج معك للجهاد، فقل لهم: لن تخرجوا معي أبداً ولن تعينوني على عدو أبداً، فقد فرحتم بالقعود من بداية الأمر فاقعدوا مع القاعدين».

الآية تشير إلى كلام بعض المنافقين الذين كانوا يذهبون إلى النبيّ ﷺ للاعتذار عن القعود والتعهد بمرافقته في حروبه القادمة، والله يقول بصراحة: إنهم كاذبون في ما يقولون وقد طبع عليهم بالنفاق إلى الأبد.

وتعود آيات أخرى للحديث عن الأعذار الواهية التي كان يقدمها المخلفون وتحذير المؤمنين من تصديقها والانخداع بها:

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ

---

١. التوبة (٩): ٨٣.

نَبَّأَنا اللهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ وَسَيَرى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.[١]

ثم تستمر الآيات:

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾.[٢]

«عند ما ترجعون إليهم سيحلفون لكم بالله أن تكفوا عنهم، فأعرضوا عنهم لأنهم فاسدون ومأواهم النار جزاءً بما كانوا يعملون».

وتقول الآية التالية:

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَرْضى عَنِ القَوْمِ الفاسِقِينَ﴾.[٣]

واضح من هذه الآيات أنّ رحمة الله منزوعة عن المنافقين، إنهم في المنظور القرآني غير قابلين للهداية؛ لذا فإنّ مأواهم النار مهما حلفوا، والله ينبّه المؤمنين إلى أنّ المنافقين يحلفون لهم ليرضوا عنهم وليخلصوا أنفسهم من الورطة التي وضعوها فيها، ويأمرهم بأن يعرضوا عنهم إعراضاً ظاهرياً احتراماً لقدسية القسم الذي يقسمون به، ويحذّرهم من الميل إليهم في الباطن، لأنهم فاسقون فاسدون.

---

١. التوبة (٩): ٩٤.

٢. التوبة (٩): ٩٥.

٣. التوبة (٩): ٩٦.

ج) الشاهد على كذب المنافقين

لإثبات كذب أيمان المنافقين وبطلان أعذارهم، يقول الله تعالى:

﴿وَلَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلـكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعاثَـهُمْ فَثَبَّـطَهُمْ وَقِـيلَ اقْعُـدُوا مَعَ القاعِدِينَ﴾.[١]

«لو كانوا صادقين في ادعائهم بأنهم كانوا راغبين في الخروج لكانوا أخذوا استعداداتهم له، ولكنّ الله علم بما في صدورهم وكره خروجهم، فصرفهم عنه وقال لهم: اقعدوا مع القاعدين».

لا شك في أنّ من يعزم على فعل شيء يستعد له، أما المنافقون فلم يقوموا بأية تحضيرات للخروج مع النبيّ ﷺ، فيتبين أنهم كانوا منذ البداية عازمين على عدم الخروج معه ﷺ وأنّ الإصابة بالحمّى والمرض لم تكن إلا أعذاراً.

د) حب الدنيا من عوامل النفاق

يقول الله تعالى: إنّ حب الدنيا مسيطر على المنافقين في قراراتهم، بحيث أنه كان العامل الحاسم في قرارهم مرافقة النبيّ ﷺ إلى الجهاد أو عدم مرافقته:

﴿لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قاصِداً لاَتَّـبَعُوكَ وَلـكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّـقَّـةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ يُـهْلِكُونَ أَنْفُـسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّـهُمْ لَكاذِبُونَ﴾.[٢]

«لو كان سفراً قريباً ومنفعة دنيوية سهلة لخرجوا معك، ولكنهم

---

١. التوبة (٩): ٤٦.

٢. التوبة (٩): ٤٢.

وجدوها رحلة شاقة فتخلفوا، وسيحلفون لك ـ يا محمد ـ على أنهم كانوا سيرافقونك لو كانوا يستطيعون، هؤلاء يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون».

إنّ الذين امتنعوا عن مرافقة النبيّ الأكرمﷺ كانوا يذهبون إليه ويقدمون أعذاراً واهية، وكان رسول اللهﷺ يرد عليهم رداً لطيفاً ولا يتشدد معهم.

هنا يقول الله: إنّ هؤلاء إنما يراعون مصالحهم المادية ولا يراعون الله ورسوله، ولو كان السفر يحقق لهم منافع مادية وكان سهلاً قريباً لا يواجهون فيه الصعوبات والمشاق لخرجوا مع النبيّ، ولكن النبيّ الأكرمﷺ في هذه المرة صارح المسلمين بهدفه من الخروج لقتال الروم ـ خلافاً لما جرت عليه عادته ـ، واتضح لهم من البداية أنهم مقبلون على سفر شاق محفوف بالمخاطر والمتاعب، وهذا ما جعل بعض الأشخاص يتخلفون عن جيشه من البداية أو يتسللون منه في أثناء الطريق عائدين إلى المدينة.

كان الكثير منهم قد جاء إلى رسول اللهﷺ قبل خروجه وأقسموا أنهم لو كانوا يستطيعون مرافقته لما ترددوا عن ذلك، ولكنهم يواجهون بعض المعوقات التي يلزم التخلص منها أولاً وإلا فإنهم عازمون على الخروج معه.

ولكنّ القرآن يفضح كذبهم وعدم صدقهم في دعواهم:

﴿لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُـؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[١].

---

١. التوبة (٩): ٤٤ ـ ٤٥.

«إنّ الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر لا يستأذنونك يا محمد في الجهاد بأموالهم وأنفسهم دفاعاً عن الدين، وإنّ الذين يستأذنون ليسوا مؤمنين بالله واليوم الآخر أصلاً وقلوبهم مسرح للشك والترديد».

هـ) بث الإشاعات من علامات النفاق

في الآية التالية يبين الله تعالى نمطاً آخر من فتن المنافقين:

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلاّ خَبالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُم الفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظّالِمِينَ﴾.[1]

«السمّاع» تعني الإنسان البسيط سريع التصديق وتعني كذلك الجاسوس. يقول القرآن: إنّ هؤلاء لو رافقوا جيش النبيّ لما حصل منهم إلا على الفساد والضرر، لأنهم كانوا سيعملون على بث الإشاعات والفتنة بين المسلمين، خاصةً وأنّ بين المسلمين من كانوا «سمّاعين» لهم.

ويمكن التعرف من هذه الآية على حقيقة أنّ المنافقين كان لهم جواسيس بين المسلمين يعملون لصالح المشركين، كما يمكن حمل «سمّاعون» على المعنى الآخر وهو البسطاء سريعو التصديق وهم الذين يمكن أن يتأثروا بكلام المنافقين؛ وفي الحالتين كان وجود المنافقين في جيش النبيّ ﷺ المتوجه إلى تبوك في غير صالح المسلمين.

ثم يشير القرآن إلى أنّ المنافقين ذوو سابقة في إثارة الفتن، فيقول:

---

١. التوبة (٩): ٤٧.

﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتّى جاءَ الحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كارِهُونَ﴾.[١]

«لقد سبق للمنافقين أن أثاروا الفتنة في صفوف رجالك يا محمد، وسعوا إلى قلب الأوضاع رأساً على عقب، وحرضوا المسلمين على ترك الجهاد معك، ونشروا الجواسيس بينهم من أجل التخريب، حتى كتب الله لك النصر المبين».

سبق أن ذكرنا أنّ المنافقين كانوا يستغلون غياب رسول الله ﷺ عن المدينة لينشروا فيها الفوضى، وكانوا يتلاعبون بأوضاع المدينة كما يشتهون عن طريق بث الإشاعات، يقول الله تعالى:

﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾.[٢]

«كلما أصابتك حسنة اغتموا وإذا أصابتك مصيبة فرحوا وقالوا: لقد توقعنا حدوثها من قبل وأخذنا احتياطاتنا فنجونا».

فيقول الله رداً عليهم:

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلاّ إِحْدى الحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينا فَتَرَبَّصُوا إِنّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾.[٣]

---

١. التوبة (٩): ٤٨.

٢. التوبة (٩): ٥٠.

٣. التوبة (٩): ٥٢.

«قل يا محمد: هل تتوقعون لنا غير واحدة من حسنيين [النصر أو الشهادة]؟ أما نحن فنتوقع لكم عذاباً شديداً من الله أو بأيدينا؛ إذن فانتظروا ونحن من المنتظرين معكم. فالنتيجة لصالح المسلمين في حالتي النصر أو الشهادة، أما المنافقون فلا ينتظرهم إلا العذاب الأليم من الله».

و) مصير النفاق العذاب الإلهي

مرة أخرى يتوعد الله المنافقين بالعذاب الأليم:

﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِما أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِما لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفازَةٍ مِنَ العَذابِ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾.[١]

«لا تظنن يا محمد، أنّ الذين يفرحون بأفعالهم (القبيحة الآثمة) ويحبون أن يُمتدحوا على أفعال لم يفعلوها، ناجون من عذاب الله، كلا وإن لهم عذاباً أليماً».

هناك أخبار في ذيل هذه الآية تشير إلى أنّ المنافقين كان هذا ديدنهم في جميع الحروب التي خاضها النبيّ الأكرمﷺ، ويتلخص موقفهم بالتخلف عن جيشه ثم بث الإشاعات المغرضة بين المسلمين في غيابه ويفرحون بما يفعلون، وحين يعود النبيّﷺ من غزوته يقدّمون له الأعذار ويدّعون أنهم كانوا راغبين بشدة في مرافقته ولم يمنعهم إلا المرض وأشياء أُخر.[٢]

وروي أيضاً أنّ «أباسعيد» و«رافع بن خديج» و«زيد بن ثابت» كانوا عند مروان

---

١. آل عمران (٣): ١٨٨.

٢. ابن أبي حاتم، **التفسير**: ٣/ ٨٣٩؛ البخاري، **الصحيح**: ٦/ ٤٠.

فسأل مروان أباسعيد عن الآية مقراً بـ «أننا نفرح بما نفعل ونحب أن نحمد بما لم نفعل» ويعني: هل تشملنا الآية ويشملنا عذاب الله؟

فأجاب أبوسعيد: هذه نزلت بحق المنافقين الذين كانوا يتخلفون عن جيش رسول الله ﷺ كلما دعاهم إلى الجهاد، وإذا خسر جيش النبيّ ﷺ المعركة فرحوا بتخلفهم عنه، وإذا كسب المسلمون المعركة أقسموا للمؤمنين ليرضوهم وتظاهروا بالسرور لنصرهم.[١]

وينقل أبوجعفر الطحاوي قول رافع رداً على سؤال مروان بصيغة أخرى:

قال رافع:

«نزلت في ناس من المنافقين، كانوا إذا خرج رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم إلى سفر تخلفوا عنه [عمداً]، فإذا قدم رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم وأصحابه اعتذروا وقالوا : ما حبسنا عنكم إلا السقم والشغل، ولوددنا أنا كنا معكم، فأنزل الله عز وجل هذه الآية فيهم...».[٢]

---

١. ابن كثير، **التفسير**: ٢/ ١٧٣.

٢. الطحاوي، **مشكل الآثار**: ٢/ ٣٤٤_٣٤٥.

القسم الثاني: حكاية الثلاثة الذين خُلّفوا

قدم رسول اللهﷺ المدينة، وقد كان تخلف عنه رهط من المنافقين؛ ويزعم المؤرخون أنّ الثلاثة وهم: «كعب بن مالك» و«مرارة بن ربيع» و«هلال بن أمية» لم يتخلفوا عن جيش رسول اللهﷺ بدافع النفاق والشك؛ وقال رسول اللهﷺ لأصحابه: «لا تكلموا أحداً من هؤلاء الثلاثة أبداً».[1]

يروي ابن إسحاق عن ابن «كعب بن مالك» أنه قال: سمعت من أبي كعب بن مالك وصفَه لحادثة تخلفه هو واثنين من رفاقه عن رسول الله في غزوة تبوك بقوله:

> «ما تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم في غزوة غزاها قط، غير أني كنت قد تخلفت عنه في غزوة بدر، وكانت غزوة لم يعاتب الله ولا رسوله أحداً تخلف عنها... ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم العقبة، وحين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت غزوة بدر هي أذكر في الناس منها».

---

١. الواقدي، **المغازي**: ٣/ ١٠٤٩ ـ ١٠٥٦؛ ابن هشام، **السيرة النبوية**: ٤/ ١٧٥؛ الطبري، **التاريخ**: ٢/ ٣٧٤.

ويكمل:

«كان من خبري حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، ووالله ما اجتمعت لي راحلتان قط حتى اجتمعتا في تلك الغزوة، وكان رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً، واستقبل غزو عدو كثير، فجلى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبته وأخبرهم خبره بوجهه الذي يريد، والمسلمون من تبع رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ.... .

قال كعب: فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفى له ذلك...».

ثم قال:

«وغزا رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار وأحبت الظلال، فالناس إليها صعر. فتجهز رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم، وتجهز المسلمون معه، وجعلت أغدو لأتجهز معهم، فأرجع ولم أقض حاجة، فأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى شمر الناس بالجد، فأصبح رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم غادياً، والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً. فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين،

ثم ألحق بهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئاً. ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا، وتفرط الغزو، فهممت أن أرتحل، فأدركهم، وليتني فعلت، فلم أفعل.... .

ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه برداه، والنظر في عطفيه، فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا منه إلا خيراً، فسكت رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم.

فلما بلغني أنّ رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم قد توجه قافلاً من تبوك، حضرني بثي، فجعلت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخطة رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم غداً وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي. فلما قيل: إنّ رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم قد أظل قادماً، زاح عني الباطل، وعرفت أني لا أنجو منه إلا بالصدق، فأجمعت أن أصدقه.

وصبح رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم المدينة، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس. فلما فعل ذلك، جاءه المخلفون، فجعلوا يحلفون له ويعتذرون، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فيقبل منهم رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم علانيتهم وأيمانهم، ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت فسلمت عليه، فتبسم تبسم المغضب، ثم قال لي: تعاله، فجئت أمشي، حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلفك؟ ألم تكن ابتعت

ظهرك؟ قال: قلت: إني يا رسول الله، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً، ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثاً كذباً لترضين عني، وليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديثاً صدقاً تجد علي فيه، إني لأرجو عقباي من الله فيه، ولا والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. فقال رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم: أما هذا فقد صدقت فيه، فقم حتى يقضي الله فيك.

فقمت، وثار معي رجال من بني سلمة، فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم بما اعتذر به إليه المخلفون؟ قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم لك، فو الله ما زالوا بي حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم، فأكذب نفسي. ثم قلت لهم: هل لقى هذا أحد غيري؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل مقالتك، وقيل لهما مثل ما قيل لك. قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري، من بني عمرو بن عوف، وهلال بن أبي أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين، فيهما أسوة، فصمت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم عن كلامنا أيها الثلاثة، من بين من تخلف عنه. فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي نفسي والأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا، وقعدا في بيوتهما، وأما أنا فكنت أشب

القوم وأجلدهم، فكنت أخرج، وأشهد الصلوات مع المسلمين، وأطوف بالأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم، فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي، هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني.

حتى إذا طال ذلك علي من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة ـ وهو ابن عمي، وأحب الناس إلي ـ فسلمت عليه، فو الله ما رد علي السلام، فقلت: يا أباقتادة، أنشدك بالله، هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ فسكت. فعدت فناشدته، فسكت عني، فعدت فناشدته، فسكت عني، فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، ووثبت فتسورت الحائط. ثم غدوت إلى السوق، فبينا أنا أمشي بالسوق، إذا نبطي يسأل عني من نبط الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل علي كعب بن مالك؟ قال: فجعل الناس يشيرون له إلي، حتى جاءني، فدفع إلي كتاباً من ملك غسان، وكتب كتاباً في سرقة من حرير، فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغنا أنّ صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك.

قال: قلت حين قرأتها: وهذا من البلاء أيضاً، قد بلغ بي ما وقعت فيه أن طمع في رجل من أهل الشرك. قال: فعمدت بها إلى تنور، فسجرته بها. فأقمنا على ذلك حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله يأتيني، فقال: إنّ رسول الله صلى الله

عليه [وآله] وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك، قال: قلت: أطلقها أم ماذا؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها. وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك. فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما هو قاض.

قال: وجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم، فقالت: يا رسول الله، إنّ هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له، أفتكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربنك، قالت: والله يا رسول الله ما به من حركة إلي، والله ما زال يبكي منذ كان مَن أمره ما كان إلى يومه هذا، ولقد تخوفت على بصره.

قال [كعب]: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله لامرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. قال: فقلت: والله لا استأذنه فيها، ما أدري ما يقول رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم لي في ذلك إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب.

قال: فلبثنا بعد ذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة، من حين نهى رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم المسلمين عن كلامنا، ثم صليت الصبح، صبح خمسين ليلة، على ظهر بيت من بيوتنا، على الحال التي ذكر الله منا، قد ضاقت علينا الأرض بما رحبت، وضاقت علي نفسي، وقد كنت ابتنيت خيمة في ظهر سلع، فكنت أكون فيها إذ سمعت صوت صارخ أوفى على ظهر سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر. قال: فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء الفرج.

قال: وآذن رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم الناس بتوبة الله

علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب نحو صاحبي مبشرون. وركض رجل إلي فرساً، وسعى ساع من أسلم، حتى أوفى على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس. فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت ثوبي، فكسوتهما إياه بشارة، والله ما أملك يومئذ غيرهما، واستعرت ثوبين فلبستهما، ثم انطلقت أتيمم رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم، وتلقاني الناس يبشرونني بالتوبة، يقولون: ليهنك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، ورسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم جالس حوله الناس، فقام إلي طلحة بن عبيدالله، فحياني وهنأني، ووالله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره. قال [الراوي]: فكان كعب بن مالك لا ينساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم، قال لي، ووجهه يبرق من السرور: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك. قال: قلت: أمن عندك يا رسول أم من عند الله؟ قال: بل من عند الله».

ويكمل كعب:

«وكان رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم إذا استبشر كأن وجهه قطعة قمر. قال: وكنا نعرف ذلك منه.

قال: فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي إلى الله عز وجل أن أنخلع من مالي، صدقة إلى الله وإلى رسوله. قال رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم: أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك. قال: قلت: إني ممسك سهمي الذي بخيبر، وقلت: يا

رسول الله، إنّ الله قد نجاني بالصدق، وإنّ من توبتي إلى الله أن لا أحدث إلا صدقاً ما حييت، والله ما أعلم أحداً من الناس أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت لرسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم ذلك أفضل مما أبلاني الله، والله ما تعمدت من كذبة منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي...» .

قال كعب: فو الله ما أنعم الله علي نعمة قط بعد أن هداني للإسلام كانت أعظم في نفسي من صدقي رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم يومئذ، أن لا أكون كذبته، فأهلك كما هلك الذين كذبوا. فإنّ الله تبارك وتعالى قال في الذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، قال: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِالله لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنهُمْ إِنهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَئهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ * يحَلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِين﴾.

قال: وكنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر هؤلاء الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم، حين حلفوا له فعذرهم، واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم أمرنا، حتى قضى الله فيه ما قضى، فبذلك قال الله تعالى:

[﴿لَقَدْ تابَ اللهُ عَلى النبيّ وَالْمُهاجِرينَ وَالأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ العُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيق مِنْهُمْ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *] وَعَلى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا [حَتّى إِذا ضاقَت عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ

وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاّ إِلَيْهِ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ * يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصّادِقِينَ﴾.[١]

لقد أنزل الله رحمته على رسولهﷺ وعلى المهاجرين والأنصار الذين اتبعوه بعد أن أوشكت قلوب بعضهم على الزيغ ثم تاب عليهم وهو بهم رؤوف رحيم. وكذلك على الثلاثة الذين تخلفوا (أو خالفوا) فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم فظنوا أن لا مهرب من الله إلا إليه فتاب عليهم وهو التواب الرحيم. فيا أيها المؤمنون اتقوا الله ولازموا الصادقين]».

ثم قال كعب:

«وليس الذي ذكر الله من تخليفنا لتخلفنا عن الغزوة ولكن لتخليفه إيانا، وإرجائه أمرنا عمن حلف له، واعتذر إليه، فقبل منه».[٢]

تحليل مضامين الآيات ١١٧ ـ ١١٩ من سورة التوبة

لقد بدأ الله تعالى الآيات بالإشارة إلى زيغ قلوب المهاجرين والأنصار:

﴿لَقَدْ تابَ اللهُ عَلى النبيّ وَالْمُهاجِرِينَ وَالأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ العُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيق مِنْهُمْ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.[٣]

---

١. التوبة (٩): ١١٧ ـ ١١٩.

٢. ابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ١٧٥ ـ ١٨١.

٣. التوبة (٩): ١١٧.

«تاب الله على المهاجرين والأنصار الذين كادت تزيغ قلوب كثير منهم عند الشدة، لأنهم اتبعوا النبيّ ﷺ في الظروف الصعبة».

ثم يقول:

﴿وَعَلَى الثَّـلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا...﴾.[١]

«وتاب أيضاً على الثلاثة الذين تخلفوا».

إنّ تدبر هذه الآيات يزودنا بملاحظات مهمة عن المهاجرين والأنصار؛ يفهم من الآية أنّ المهاجرين والأنصار، وإن كانوا منقادين إلى رسول الله ﷺ في العمل، إلا أنّ قلوبهم أوشكت أن تستسلم للشك والترديد؛ الشك كان في أصل النبوة وليس نابعاً من هوى تسلل إلى نفوسهم، ولكن الله تاب عليهم إكراماً لرسول الله ﷺ ورحمة بهم من أجل مرافقتهم للنبيّ ﷺ ومسايرته عملياً.

بعبارة أخرى: كان هناك الكثير من العوامل التي تدفع الأشخاص إلى التخلف عن رسول الله ﷺ في أثناء تجهيز الجيش وخلال المسير، كما كان الكثير منهم على وشك الانحراف، ولكنه في النهاية قام جماعة من المهاجرين والأنصار بمرافقة النبيّ ﷺ إلى تبوك، وهذا ما جعل الله يتوب عليهم. ولعل المراد من توبة الله عليهم أنه تعالى لم يعاتبهم في المرحلة الأولى على الشك الذي تسرب إلى قلوبهم، وأنه في المرحلة الثانية تاب عليهم بلطفه ورحمته.

والمهم هنا أنّ مرحلتي التوبة هاتين شملتا أولئك الذين لم يستسلموا إلى الشك القلبي، أما المنحرفة قلوبهم فلم تشملهم التوبة؛ فقد أشرنا وسنشير أيضاً إلى أنّ الله

---

١. التوبة (٩): ١١٨.

تعالى يوبخ المنافقين الذين رافقوا رسول الله ﷺ في آيات كثيرة ويتوعدهم بالعذاب الأليم.

ثم يقول الله تعالى في الآية التي تليها:

﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتّى إِذا ضاقَت عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاّ إِلَيْهِ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ﴾.[1]

«و[تاب كذلك] على الأشخاص الثلاثة الذين تخلفوا حتى ضاقت بهم الأرض على وسعها وضاقت عليهم أنفسهم...».

وبعطف هذه الآية على سابقتها يتضح أنّ المعنى هو «وتاب على الثلاثة... ليتوبوا...» أي: أنّ الله تاب عليهم ابتداءاً عسى أن يتوبوا ويعودوا إلى الله؛ إذن، فحالة هؤلاء الثلاثة تختلف عن باقي المهاجرين والأنصار المذكورين في الآية السابقة، فقد تجاوز الله عنهم بناءاً على ظاهر أحوالهم عسى أن يتوبوا توبة قلبية.

ومن خلال التدقيق في عبارة **﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾** نتوصل إلى ملاحظات جديرة بالاهتمام:

العبارة تشير إلى الثلاثة الذين «خلفوا» أي: تُركوا في مكانهم، هذا يعني أنّ التقصير لم يكن من هؤلاء الثلاثة، بل إنّ الآخرين هم الذين تركوهم، أي: أنهم لم يرتكبوا خطأً يستحق العفو.

---

١. المصدر نفسه.

ولكن الملاحظ أيضاً أنّ معنى «خلفوا» لا ينسجم مع مفهوم الآية، وفي تبرير الحالة نلفت النظر إلى ما يلي:

ألف) استناداً إلى ما أجمع عليه المؤرخون، فإنّ هؤلاء الثلاثة خالفوا رسول الله ﷺ بمحض إرادتهم، في هذه الحالة لا تصح قراءة «خُلِّفوا»؛ إذن، إما أن يكون أهل السنة كذبوا في ادّعائهم بأنّ الثلاثة خالفوا بإرادتهم، أو لابدّ أن تكون القراءة الصحيحة للكلمة هي: «تَخَلَّفوا» أو «خالفوا»[1]، وهذا يعني أنّ كلمات القرآن قد تعرضت للتحريف.[2]

ب) ولو اعتبرنا رواية التاريخ ثابتةً واكتفينا بالتعبير الوارد في القرآن، وافترضنا أنّ الثلاثة تركهم الآخرون، فلا يكون ذلك مبرئاً لهم من استحقاق اللوم والتوبيخ، فقد كان عليهم أن يلحقوا بجيش رسول الله ﷺ بعد ذلك؛ إذن فبقاؤهم في المدينة كان بإرادتهم.

ج) لو كان بقاء هؤلاء الأشخاص في المدينة بأمر رسول الله ﷺ، لما كانوا

---

١. قد أشار بعض مفسري أهل السنة كالسمرقندي والسمعاني إلى هذا الاختلاف في القراءة، يقول السمرقندي: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ يعني: وتاب الله على الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، ويقال: «وعلى الثلاثة الذين تخلفوا» عن التوبة. (السمرقندي، **التفسير**: ٢/ ٩٦).

ويقول السمعاني أيضاً: وفي بعض القراءات: «وعلى الثلاثة الذين خالفوا». (السمعاني، **التفسير**: ٢/ ٣٥٦).

وانظر: الكليني، **الكافي**: ٨/ ٣٧٧؛ الطبرسي، **مجمع البيان**: ٥/ ١٣٥، فيهما اشارة إلى هذا الاختلاف في القراءة.

٢. وهنا لابدّ أن ننبّه بأنّ أهل السنة هم المسئولون عن حلّ هذا التناقض الموجود بين القرآن وقصصهم التاريخية، إمّا أن يكون القرآن معرّض للتحريف أو أن تكون القصص كاذبة.

يستحقون الذم، أما إذا كان أمر النبيّ الأكرمﷺ محدداً بوقت معين فكان عليهم أن يلتحقوا به بعد انقضاء ذلك الوقت، وفي هذه الحالة أيضاً سيحسبون من المتخلفين.

لقد تاب الله على هؤلاء الثلاثة أيضاً، ولكن بعد أن أمر النبيّﷺ الناس بالإعراض عنهم، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ـ كما يصف القرآن ـ وضاقت عليهم أنفسهم، حينئذٍ لم يجدوا ملجأً من الله إلا إليه؛ على أنّ لجوءهم إلى الله لم يكن قائماً على اليقين، بل على الاضطرار مشوباً بالظن والشك.

هنا يقول الله: ﴿ثُـمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾، وهذا تعبير مدهش، فهو يدل على أنهم لم يتوبوا توبة حقيقية ولكن الله تاب عليهم، يعني: أنه أمر بأن يعاملوا كسائر المنافقين.

وبعبارة أخرى: أمر بأن يعاملوا كالمسلمين. كان هذا الأمر الإلهي بمثابة فرج لهم بعد أن كانوا منبوذين من الجميع، فأعادتهم الآية إلى الوضع الطبيعي، وكانت الغاية من هذا العفو الإلهي منحهم فرصة حقيقية للتوبة والمبادرة إليها.

وهكذا يكون معنى ﴿تابَ عَلَيْهِمْ﴾ عاد إليهم وشملهم بلطفه، وهم بدورهم أدركوا أنّ العناية الإلهية شملتهم؛ وما كان الرجوع الإلهي إليهم إلا ليكفوا عن نفاقهم ويتوبوا توبة نصوحاً وهو معنى قوله تعالى: ﴿لِـيَتُوبُوا﴾، لتكون فرصة لباقي المنافقين ليعودوا إلى الله.

تحليل خبر ابن إسحاق

ينقل ابن إسحاق هذه القصة عن عبدالرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك حفيد

كعب؛[1] لقد أصبح كعب ضريراً في أيام شيخوخته وكان يقوده ابنه عبدالله، فسمع منه تلك القصة في تلك الأيام.[2]

يقول ابن إسحاق: كان كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ثلاثة من مسلمين تخلفوا عن جيش رسول اللهﷺ في غزوة تبوك، بلا شك ولا نفاق في نفوسهم.[3] ويوضح كلامه نقلاً عن مالك نفسه، ولا شك أنّ كعباً يروي قصته بطريقة لا يدفع فيها عن نفسه شبهة ارتكاب الخطأ فحسب، بل يجعلها مدعاة لتمجيده والثناء عليه. إنّ أغلب المؤرخين يروون حكاية كعب عن لسانه، وهذا ما يجعل اعتبارها عرضة للترديد.

يقول ابن أبي حاتم أيضاً في تفسيره: إنّ الثلاثة هم: كعب بن مالك من بني سلمة ومرارة بن ربيعة من بني عمرو بن عوف وهلال بن أمية من بني واقف، ويقول: إنهم لم يسفكوا دماً حراماً ولم يأكلوا مالاً حراماً ولم ينكروا حقاً، ولم يبدر منهم إلا التخلف عن غزوة تبوك.[4]

لابد من القول ـ بشكل عام ـ: إنّ كعب بن مالك كان من أركان خلافة أبي بكر، وكان من الصحابة القلائل الذين والوا عثمان وعادَوا أميرالمؤمنينؑ، وكان أيضاً من الذين يأخذون العطاء من معاوية؛ مثل هذا الشخص يروي حكاية تخلفه عن رسول

---

١. ابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ١٧٥.

٢. المصدر نفسه.

٣. المصدر نفسه.

٤. ابن أبي حاتم، التفسير: ٦/ ١٩٠٤.

اللهﷺ ويحولها إلى منقبة لنفسه، ولم يروها أحد من الصحابة غيره.

ولعل إصرار الروايات التاريخية على أنّ تخلف هؤلاء الثلاثة ما كان بسبب النفاق والشك، إنما هو مكافأة لهؤلاء المنافقين على الخدمات التي قدموها لجهاز الخلافة.

إنّ نص الخبر يكشف عن كذب راويه، ونشير هنا إلى مثال من أمثلة عدة:

يدّعي كعب أنه تخلف عن معركة بدر ولم يكن أي اعتراض من الله ولا رسوله على ذلك، ويكفي للرد على كلامه هذا أن نتدبر بعض آيات سورة الأنفال حيث يوبخ الله تعالى أولئك الذين رافقوا النبيّﷺ إلى بدر ولكن عن كراهة:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفالِ قُلِ الأَنفالُ لله وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.[١]

«يسألونك يا محمد، عن الأنفال (وهي الغنائم والأموال التي ليس لها مالك خاص) فقل: إنها لله ولرسوله فقط، فاتقوا الله وأصلحوا ما بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين».

في هذه الآية يؤكد الله على أنهم إن كانوا مؤمنين حقاً فعليهم أن يطيعوا رسوله ويتبعوه، ولكن الذين كانوا يدّعون الإيمان كانوا يجادلون رسول اللهﷺ في الأنفال ولا ينصاعون لكلامه؛ لقد سألوه عن الأنفال، ولمّا تبين لهم أنها من حق الله ورسوله وأن لا نصيب لهم فيها، اعترضوا.

وهنا يذكّر الله تعالى بحادثة بدر ويقول: إنّ موقفهم هذا شبيه بحادثة بدر، حين

---

١. الأنفال (٨): ١.

أمر الله نبيه بالخروج من بيته ومدينته ولكن جماعة من المؤمنين خالفوه وجادلوه في أمر الحق، ويقول:

﴿كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ المُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ * يُجادِلُونَكَ فِي الحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلى المَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾.[١]

«إنهم يخاصمونك ويجادلون مع علمهم بأنّ الحق معك، وما كان جدالهم إلا من بعد ما علموا أنك تقول الحق، ومع هذا فإنهم يشعرون كأنهم يُقتلعون من الأرض اقتلاعاً ويساقون إلى القتل وهم ينظرون».

يعني: أنّ كرههم للجهاد بلغ درجةَ أن نزلت في أهل بدر ـ الذين ذهبوا كارهين ـ آية توبخهم، فما بالك بالمتخلفين عن الجهاد، وإن لم يواجههم النبيّ الأكرمﷺ إلا بخلقه الكريم. إنّ الذين استجابوا للنبيّﷺ ولكنهم رافقوه كارهين، يصفهم الله تعالى بقوله: ﴿كَأَنَّما يُساقُونَ إِلى المَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾، فكيف لا يؤاخذ المتخلفين عن بدر عالمين عامدين؟ على أنّ من المحتمل أنّ النبيّﷺ لم يحاسبهم بعد المعركة، ولكن نزول الآيات حسم أمرهم، كما أنّ النبيّﷺ لم يحاسب المتخلفين حتى عن غير بدر، أما القرآن فقد حاكمهم وحاسبهم.

بناءاً على هذا نقول: إنّ النبيّﷺ لم يسبق له أن اتخذ مثل هذا الموقف الحاد في الغزوات السابقة، وكانت ردة فعله بعد عودته من تبوك مفاجئة للجميع. وقد حاول

---

١. الأنفال (٨): ٥ ـ ٦.

كعب بروايته هذه التي رواها ـ وهو شيخ ـ أن يسترد ماء وجهه الذي أهدره في تلك الفترة، خاصة وأنّ القرآن يشير إلى حكايته؛ لذا حاول أن يعوض ما فقده من سمعة وشأن من خلال الكذب وادّعاء المظلومية وتحريف شأن نزول الآيات.

ملازمة «الصادقين» شرط النجاة من الضلال

ثم يبين الله أنّ النجاة من الضلال لا تكون إلا بمرافقة الصادقين:

﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّـقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصّادِقِـينَ﴾.[1]

هذه توصية مهمة للمؤمنين وتحذير من أنّ الخطر محدق بهم على الدوام، فإذا أرادوا النجاة منه عليهم ملازمة الصادقين. إنّ الآية موجهة للمهاجرين والأنصار الذين كانت قلوبهم على شفا الانزلاق في وادي الضلال، وهم الذين كانوا عرضة للافتتان بالمنافقين والانحراف معهم، ولكنهم نجوا بعد ما تبعوا الرسول صلى الله عليه وآله؛ وفي هذه الآية يجعل الله الأمن الدائم من مؤامرات المنافقين ودسائسهم منوطاً بملازمة «الصادقين» الذين تُجمع الروايات الصحيحة من الفريقين على أنّ المراد بهم أميرالمؤمنين عليه السلام.

والغريب أنّ كعباً يعتبر نفسه مصداقاً للصادقين[2]، في حين أننا أثبتنا أنّ الآية تتهمه بالبقاء على النفاق في قرارة نفسه وأنه لم يتب، وأنّ مقتضى قول الله تعالى: **﴿...وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاّ إِلَيْهِ...﴾** هو أنّ لجوءه إلى الله لم يكن عن قناعة وندم، بل عن اضطرار بعد ما لقيه من مقاطعة اجتماعية. وإذا كان الله قد تاب عليهم، فما ذلك إلا

---

١. التوبة (٩): ١١٩.

٢. ابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ١٨١.

لكي يمنحهم فرصة التخلص من النفاق والعودة الصادقة إليه، ولكنهم لم يفعلوا.

بالمقابل، يأمر الله المؤمنين بأن لا يخدعوا بظاهر هؤلاء وكذبهم وأن يلازموا الصادقين في الإيمان والعمل، وإلا فإنّ هؤلاء الثلاثة ليس فقط لم يكونوا صادقين، بل كانوا مصرين على نفاقهم كذلك، حيث أنّ إصرار كعب على الكذب ـ وهو شيخ هرم ـ، دليل على بقائه على النفاق.

والحمد لله ربّ العالمين

الملحق

صلح الحديبية بين التاريخ والواقع

حول صلح الحديبية وبيعة الرضوان، يروي ابن هشام، عن ابن إسحاق: أنّ رسول اللهﷺ خرج من المدينة في شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة لأداء العمرة، ويؤكد أنه كان «لا يريد حرباً» مع أهل مكة،[1] ثم يقول:

خرج رسول اللهﷺ من المدينة ومعه جماعة من المهاجرين والأنصار وأعراب البادية الذين التحقوا به، ولبس لباس الإحرام لكي يطمئن الناس بأنه لا ينوي القتال، بل زيارة بيت الله الحرام.[2]

وفي خبر آخر ينقل ابن هشام، عن ابن إسحاق، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم تأكيده على أنّ النبيّﷺ كان «لا يريد قتالاً».[3]

إلا أنّ قصة صلح الحديبية وردت في القرآن بشكل مغاير عما هي عليه في كتب التاريخ.

فالقرآن ـ خلافاً لكتب التاريخ ـ يقول في حديثه عن صلح الحديبية: إنّ النبيّﷺ خرج من المدينة وفي نيته قتال أهل مكة، ولكنه لما رأى الاختلاف بين المسلمين أصبح

---

١. ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ٣٢١.

٢. ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ٣٢٢.

٣. المصدر نفسه.

مكلفاً بالصلح. لقد روّج المنافقون بين الناس اتهام النبيّ ﷺ بالسعي لسفك الدماء وقطع الأرحام، وألّبوهم عليه، فكانت النتيجة أن تزلزلت همّة المسلمين في قتال أهل مكة. وكانت غايتهم التمهيد لهزيمة رسول الله ﷺ في مكة، كانت خطة المنافقين التفرق عن رسول الله ﷺ عند وصوله إلى مكة، بحجة الحفاظ على حرمة القرابة، وبهذا تتهيأ أسباب انهزام جيش المسلمين. ولكنّ الله أنبأ رسوله بمؤامرتهم، ووعده بأن يفتح مكة بطريقة تسد أفواه المتقولين عليه، المتهمين إياه بقطع الرحم؛ لذا أُمر النبيّ ﷺ بالصلح تمهيداً لفتح مكة من غير سفك دماء.[١]

ولعل التدقيق في آيات سورتي «محمد ﷺ» و«الفتح» يمكننا من تتبعَ التاريخ الحقيقي؛ فمن خلال التأمل في آيات القرآن الكريم نتوصل إلى حقيقتين:

١ـ إنّ رسول الله ﷺ كان خروجه من المدينة في البداية بقصد قتال أهل مكة، ولكنه أُمر بالصلح بعد أن علم بتآمر المنافقين عليه.

٢ـ إنّ صلح الحديبية جاء نتيجة مؤامرات المنافقين التي فرضت ظروفاً على النبيّ ﷺ في بيعة الرضوان.

وهنا نحتاج إلى المزيد من الضوء نسلطه على هاتين الحقيقتين:

---

١. لذا فإنّ المعنى الحقيقي والواقعي لقوله تعالى: ﴿إِنّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ...﴾ هو أنّ الله سيفتح لك يا محمد، مكة بطريقة تسد كل أبواب الاعتراض عليك، فلا يتهمك أحد بقطع الرحم. فقد كان من جملة العراقيل التي وضعها المنافقون في طريق الفتح، اتهام النبيّ ﷺ بقطع الرحم.

قصد الجهاد ضد المشركين

كما ذكرنا، فإنّ نية رسول الله ﷺ من خروجه من المدينة كانت في البداية قتال أهل مكة. هذه الحقيقة تثبتها الآيات الافتتاحية لسورة «محمد ﷺ»:

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ﴾. [١]

«إنّ الله أبطل عمل الذين كفروا وأضلوا الناس عن طريق الهدى عند ما حاولوا القضاء على الحق».

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّد وَهُوَ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بالَهُمْ﴾. [٢]

«والمؤمنون والذين عملوا الصالحات وآمنوا بما أنزل على النبيّ ﷺ، وهو الحق، كفرّ الله سيئاتهم وأصلح أعمالهم في الدنيا والآخرة».

ثم يقول:

﴿ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الباطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنّاسِ أَمْثالَهُمْ﴾. [٣]

ثم يقول:

﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الوَثاقَ فَإِمّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمّا فِداءاً حَتّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزارَها

---

١. محمد (٤٧): ١.

٢. محمد (٤٧): ٢.

٣. محمد (٤٧): ٣.

ذٰلِكَ وَلَوْ يَشاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلٰكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ﴾.[1]

«أما وقد علمتم أيها المؤمنون، أنكم على حق وأنّ الكافرين على باطل، فاقتلوهم إذا تقابلتم، وإذا أكثرتم فيهم القتل وسيطرتم عليهم فأسروهم وأوثقوهم بشدة. بعد ذلك، إما أن تمنّوا عليهم وتطلقوا سراحهم أو تأخذوا منهم فدية لقاء ذلك. [عليكم أن تواصلوا القتال] وهذا هو حكم الله حتى تتوقف الحرب ويلقي المقاتلون أسلحتهم، ولو شاء الله لتولى بنفسه الانتقام منهم وإهلاكهم، ولكنه أمركم بالجهاد لكي يظهر حقائقكم بعضكم ببعض وأنّ الله لا يضيع أعمال من جاهد واستشهد في سبيله».

﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بالَهُمْ﴾.[2]

«سيهديهم إلى طريق السعادة قريباً ويصلح أحوالهم بالتوبة عليهم، ليكونوا جديرين بدخول الجنة ومجاورة الله».

﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ﴾.[3]

«يدخلهم الجنة التي وصفها لهم في الكتب السماوية».

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾.[4]

---

١. محمد (٤٧): ٤.

٢. محمد (٤٧): ٥.

٣. محمد (٤٧): ٦.

٤. محمد (٤٧): ٧.

«أيها المؤمنون إن تنصروا الله وتعملوا لكسب رضاه وتقاتلوا الكافرين به وتحموا دينه، فسيهيئ لكم أسباب النصر ويساعدكم على الثبات في ساحات القتال».

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ﴾.[1]

«أما الكافرون فإنّ الله يضيع أعمالهم ويجعل سعيهم هباءاً منثوراً».

﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ﴾.[2]

«اعلم أنّ سبب ذلك أنهم يكرهون ما ينزل الله، لذا أضاع الله أعمالهم».

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكافِرِينَ أَمْثالُها﴾.[3]

«ألم يعتبروا بما على الأرض من عبر ويروا مصير الذين سبقوهم؟ لقد أهلكهم الله وما يملكون. أيها النبيّ، وهذه العقوبات ستحل بالذين يكفرون بك كذلك».

﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ﴾.[4]

«إنّ نصر المؤمنين ومعاقبة الكافرين مردّه إلى أنّ الله مولى المؤمنين، أما الكافرون فلا مولى لهم».

---

١. محمد (٤٧): ٨.

٢. محمد (٤٧): ٩.

٣. محمد (٤٧): ١٠.

٤. محمد (٤٧): ١١.

﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الأَنْعامُ وَالنّارُ مُثْوىً لَهُمْ﴾.[١]

«إنّ مكافأة المؤمنين العاملين الصالحات أن يدخلوا الجنة يأكلون من ثمارها وتجري من تحتهم الأنهار، أما الكافرون فإنهم فقدوا روحهم الإنساني في الدنيا وعاشوا كالبهائم، لذا فإنّ مصيرهم النار».

هذه الآيات بمجموعها تهدف إلى خلق أرضية في أذهان المسلمين، وبعد قراءة الآيات يطرح السؤال التالي: من هم أولئك الكافرون الذين صدوا الناس عن سبيل الله واتبعوا الباطل، وكان قتالهم محكاً لإيمان المسلمين، ووعد الله الذين يقاتلونهم بتوفير أسباب النصر لهم عليهم؟

الجواب نجده في الآية التالية لها:

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ﴾.[٢]

«وكم أهلكنا من أهل مدن كانوا أقوى من أهل بلدتك الذين أخرجوك منها فلم يجدوا ناصراً لهم».

لا شك أنّ المقصود بالقرية التي أخرج أهلها النبيّ صلى الله عليه وآله منها، مكة؛ إذن فالنبيّ صلى الله عليه وآله ـ بحكم الآيات الشريفة ـ خرج لمحاربة مشركي مكة. كذلك فإنّ قوله تعالى:

---

١. محمد (٤٧): ١٢.

٢. محمد (٤٧): ١٣.

﴿...أَهْلَكْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ﴾ يدل على أنّ مكة، عند نزول الآية، لم تكن قد فقدت كونها كياناً مقابل الإسلام بعد؛ لذا يكون موضوع الآيات الاستعداد لقتال مشركي مكة وأنها نزلت قبل فتح مكة، إلا أنّ الآيات التالية تكشف عن أنّ أهل المدينة كانوا فاقدين لإرادة القتال ضد أهل مكة، وأنّ الظروف النفسية السائدة فيهم لم تكن مواتية لمجاهدة مشركي مكة.

رد فعل المسلمين على فتح مكة

في سورة «محمدﷺ» يبين القرآن الكريم حالة مجتمع المدينة حيال الحرب مع مشركي مكة؛ كان هناك فئتان بموقفين مختلفين: فئة المنافقين الذين كانوا يرفضون محاربة مشركي مكة وهم حلفاؤهم، ويفعلون ما بوسعهم لمنع وقوع ذلك بشتى الطرق، ومنها توجيه الاتهامات لرسول اللهﷺ، والتأثير على الناس بها، وإضعاف روح الجهاد لديهم. وفئة المؤمنين الذين كانوا يطالبون بمحاربة المشركين وينتظرون نزول شيء من الوحي على النبيّﷺ يقطع تقولات المتقولين، بحيث يكون أمر الجهاد قطعياً لا يخفى على أحد ويبطل مساعي المنافقين. فقد كانوا يعتقدون بأنه لو كان نزل في القتال سورة محكمة لم تنته الأمور بصلح الحديبية ولتم فتح مكة، غافلين عن أنّ المصلحة في صلح الحديبية كانت في قطع حجة الذين اتهموا رسول اللهﷺ بسفك الدماء والتمهيد لفتح مكة بدون سفك دماء، وكذلك فضح المنافقين وكشف حقيقتهم ليمتاز من كان يريد محاربة المشركين ممن كان يحميهم.

إنّ آيات هذه السورة تكشف النقاب عن النفاق الذي كان مستشرياً في المحيطين

برسول اللهﷺ،[١] تقول الآية العشرون من سورة محمّدﷺ:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُـزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِـيها القِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ المَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ فَأَوْلى لَهُمْ﴾.[٢]

«ويقول الذين آمنوا: لم لا تنزل سورة تبين أموراً جديدة؟ ولكن حين تنزل سورة فيها دعوة صريحة للمؤمنين إلى الجهاد، ترى ـ يا رسول الله ـ الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك بفزع كأن الموت يلقي ظلاله عليهم، إذن فهم أولى بالموت».

نزلت سورة محمدﷺ في السنوات الأخيرة من حياة النبيّﷺ، فما معنى أن يسأل المؤمنون: «لولا نزلت سورة»؟ والجواب نجده في الآيات التالية لتلك الآية؛ كان المؤمنون ينتظرون نزول آية تدعو إلى مجاهدة المشركين بشكل صريح يقطع الطريق أمام المنافقين في عرقلة الجهاد واتهام النبيّﷺ بالفساد في الأرض وقطع الأرحام، ويشير الله تعالى في الآية الثانية والعشرين إلى تذرع المنافقين ويقول:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ﴾.

«إذن يا ضعاف الإيمان المتخلفون عن الجهاد، إن أعرضتم عن كتاب

---

١. قال أبوعبدالله: من أراد أن يعرف حالنا، وحال أعدائنا، فليقرأ سورة محمدﷺ، فإنه يراها آية فينا، وآية فيهم. (الطبرسي، مجمع البيان: ٩/ ١٥٩).

٢. محمد (٤٧): ٢٠.

الله وأحكامه، فهل يستبعد منكم أن تنشروا الفساد في الأرض بالقتل والنهب وتنتهكوا حرمة القرابة مع ذويكم؟».

هذا الكلام يقال عند ما يكون المخاطَب يوجه الاتهام نفسه إلى غيره. الحقيقة أنّ الله تعالى يقول لهم: أنتم تتهمون النبيّ ﷺ بإشاعة القتل وقطع الأرحام، ولكنكم إذا توليتم زمام الأمور فستفسدون في الأرض بالقتل وتقطيع الأرحام، ثم يلعنهم ويقول:

﴿أولـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ﴾.[1]

وهكذا كان سلاحُ المنافقين بوجه رسول الله ﷺ اتهامَهم إياه [بإشاعة القتل وقطع الأرحام]؛ لهذا السبب كان المؤمنون يريدون أن تنزل سورة من القرآن تقطع تقولات المنافقين، وقوله: ﴿سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾ إشارة إلى هذه النقطة؛ فهي تعني السورة التي لا تقبل التأويل وفيها دعوة صريحة للقتال. وتوضح تكملة الآية العشرين أنه إذا نزلت سورة فيها أمر صريح بالجهاد دبّ الرعب في قلوب المنافقين حتى صاروا ينظرون إلى النبيّ ﷺ كما ينظر المحتضر.

ثم تأتي الآية التالية لتسخر من التمكين الظاهري للمنافقين:

﴿طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ﴾.[2]

كناية عن أنّ هؤلاء يجيدون الكلام وقطع الوعود ولكنهم غير جديرين بالثقة لا

---

١. محمد (٤٧): ٢٣.

٢. محمد (٤٧): ٢١.

في أقوالهم ولا في أفعالهم.[١] والشاهد على هذا الادعاء في قوله: ﴿...فَإِذا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ﴾، يعني: أنّ من الخير لهم أن يثبتوا على كلامهم حين يجدّ الجد.

وهذا يعني أنه لا يمكن الوثوق بكلامهم من الآن، بل لابد من الانتظار حتى تتبين حقيقتهم عند ما يحين وقت العمل. وشاهدُنا على ذلك التعبير بجملة شرطية، لأنّ الله عالم بنتيجة تمردهم؛ لذا فإنّ كراهة مواجهة المشركين والخوف منها كانا من جانب المنافقين، إلا أنّ التاريخ يصور صلح الحديبية وكأنّ النبيّ ﷺ كان يؤثر الصلح، خلافاً لرغبة الآخرين بالجهاد والشهادة! حيث يقول ابن هشام:

«فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب، فأتى أبابكر فقال: يا أبابكر، أليس برسول الله؟ قال: بلى. قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: بلى. قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نُعطى الدنية في ديننا؟ قال أبوبكر: يا عمر الزم غرزه، فإني اشهد أنه رسول الله. قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله. ثم أتى رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم فقال: يا رسول الله ألست برسول الله؟ قال: بلى. قال: فعلام نُعطى الدنية في ديننا؟ قال: أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني! قال: فكان عمر

---

١. في القرآن الكثير من الآيات التي تحمل معاني السخرية في قالب من الجدية والإيجابية، كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَياةِ الدُّنْيا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلى ما فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصامِ﴾ (البقرة (٢): ٢٠٤)، وقوله في آية أخرى: ﴿وَيَقُولُونَ طاعَةٌ فَإِذا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللهُ يَكْتُبُ ما يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلى اللهِ وَكَفى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ (النساء (٤): ٨١).

يقول: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق، من الذي صنعت يومئذ! مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيراً».[١]

ولكن الله يقول في الآية الحادية والثلاثين:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبارَكُمْ﴾.

الآية تضع الجهاد في سبيل الحق ميزاناً، فبعد أن جعل عمل المدّعين مقياساً لصدق قولهم بقوله في الآية الحادية والعشرين: ﴿...فَإِذا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ﴾، جعل ثباتهم على الجهاد ميزاناً لعزمهم.

يتبين من الآية الحادية والثلاثين أنّ النبيّ ﷺ خرج إلى مكة عازماً على قتال أهلها ـ خلافاً لما تقوله السيرة ـ، وأنه لم يخرج لمجرد زيارة بيت الله، فكان ذلك ابتلاءاً من الله، يميز به الذين يثبتون على عهدهم من الذين يختلقون الأعذار للتنصل منه. وسنبين كيف أنّ المنافقين أوجدوا ظروفاً أجبرت النبيّ ﷺ على انتهاج الصلح.

نزول سورة «محمّد ﷺ» في صلح الحديبية

كل ما تقدم من حديث تم على أساس افتراض نزول سورة «محمد ﷺ» في صلح الحديبية، ويمكن إثبات ارتباط آيات هذه السورة بصلح الحديبية وفتح مكة من روح الآيات نفسها.

يقول الله تعالى في الآية الخامسة والعشرين من سورة «محمّد ﷺ»:

---

١. ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ٣٣١.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلى لَهُمْ﴾.

فماذا يمكن أن يكون معنى الارتداد في هذه السورة التي نزلت بعد سنوات من دخول الناس في الإسلام؟ هل يمكن أن يكون ارتداداً عن التوحيد؟ من خلال التدبر في الآيات الماضية يمكننا أن نتوصل إلى أنّ موضوع النزاع وانحراف المسلمين في تلك الفترة كان يتعلق بالجهاد ضد مشركي مكة. فقبل ذلك، كانت الموازين المالية والعسكرية تميل إلى جانب أهل مكة؛ لذا كانت جميع الحروب تدار من قبلهم، ولكن بمرور الأيام واشتداد عود المسلمين بدأت أصوات الثأر من مشركي مكة وفتح مكة تتعالى، وقابلتها أصوات معارضة من جماعات كان أغلبهم من المهاجرين الذين تربطهم صلات دم وقبائل مع أهل مكة. والشاهد على ذلك الآية التي تقول:

﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ﴾.[1]

إنّ التاريخ يثبت أنّ المنافقين لم يكرهوا الصلاة والصيام والحج والعبادات الأخرى، بل كرهوا الجهاد وخاصة الجهاد ضد حلفائهم؛ لذلك لمّا نزلت ﴿سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾ وأكدت على مجاهدة المشركين ومقاتلتهم وأتمت الحجة على الجميع، أظهر بعض المنافقين نفاقهم وصرحوا علناً: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ﴾، يعني: أنهم لن يكونوا مع المسلمين في الحرب؛ ولهذا جاءت الآيات التالية لتكشف المزيد من أحوال المنافقين:

---

١. محمد (٤٧): ٢٦.

﴿فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ المَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ﴾.[١]

«إنهم اليوم يتخفون وراء نفاقهم ويعدون الكافرين بالتعاون، ولكن كيف سيكون حالهم حين تقبض الملائكة أرواحهم وتضرب وجوههم وأدبارهم؟».

﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ﴾.[٢]

«اعلم أنهم اتبعوا ما يغضب الله ولم يسعوا لكسب رضاه فأحبط الله ما عملوا من حسنات».

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغانَهُمْ﴾.[٣]

«هل ظن الذين في قلوبهم مرض ـ الذين تحولوا في النهاية إلى الكفر وعُدّوا في زمرة المنافقين ـ أنّ الله لن يفضح أحقادهم تجاه الإيمان والمؤمنين؟».

﴿وَلَوْ نَشاءُ لأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ﴾.[٤]

«ولو أردنا لأريناك المنافقين [يا محمد]، ولعرفتهم بالعلامات التي تميزهم، وأنت الآن تعرفهم بطريقة حديثهم المفعم بالهمز واللمز، والله مطلع على حقيقة أعمالكم ويعلم ما تريدون منهم».

---

١. محمد (٤٧): ٢٧.

٢. محمد (٤٧): ٢٨.

٣. محمد (٤٧): ٢٩

٤. محمد (٤٧): ٣٠.

ثم يقول الله:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾.[١]

«لا شك في أننا سنعرّضكم للابتلاء لنميز المجاهدين في سبيل الله، الصابرين على أوامره، ونمتحن أعمالكم الدالة على حقائقكم».

الآية تبين أنّ المسلمين كانوا حينئذٍ يخضعون لامتحان الجهاد، وكان معيارُ التمييز بين الإيمان والنفاق الرغبةَ في مجاهدة مشركي مكة، حتى أننا نقول: من قاتل مشركي مكة فهو مؤمن، ومن تذرع بالصلح تهرباً من مقاتلتهم فهو منافق. وهكذا يتضح أنّ المنافقين هم الذين كانوا يصرون على الصلح مع المشركين وهم الذين أجبروا النبيّ ﷺ على عقد صلح الحديبية.

خلاصة القول: إنّ رسول الله ﷺ خرج من المدينة مرتين من أجل القتال، فلم ينته خروجه الأول بقتال، بل أفضى إلى صلح الحديبية، بعدها نزلت ﴿سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾ وهي الآيات الافتتاحية من سورة التوبة، وبخروجه الثاني تم فتح مكة بدون إراقة دم؛ لذا فلابد أن تكون الآيات الأولى من سورة براءة نزلت بين سورتي محمد ﷺ والفتح.

فتح مكة وسورة الفتح

بعد أن نزلت سورة «براءة» المحكمة وفيها أمرٌ بالجهاد قطع الطريق أمام المتذرعين، خرج رسول الله ﷺ مرة أخرى من المدينة عازماً على فتح مكة، ولكن الله

١. محمد (٤٧): ٣١.

في هذه المرة أمر بأن يتم الفتح بدون قتال وسفك دم لكي لا يتهم أحدٌ النبيّ ﷺ بتقطيع الأرحام؛ وهذا مفهوم قوله تعالى في أول سورة الفتح:

﴿إِنّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾.[١]

«إنا فتحنا لك بصلح الحديبية فتحاً مبيناً».

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً﴾.[٢]

«ليتم لك فتح مكة بدون سفك دماء حتى تبرأ ساحتك مما يحاول المنافقون والمشركون إلصاقه بك من تهم، وليتم الله نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً».

﴿وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾.[٣]

«ويتحقق لك بإذن الله نصر لا مثيل له».

غير أنّ المؤمنين خرجوا إلى مكة وهم فريسة الخوف والحزن لعدم علمهم بالوعد الإلهي، الخوف من مواجهة المشركين والحزن من الهزيمة التي يتوقعونها، وهذا واضح من قوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيْماناً مَعَ إِيمانِهِمْ وَللهِ جُنُودُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾.[٤]

---

١. الفتح (٤٨): ١.

٢. الفتح (٤٨): ٢.

٣. الفتح (٤٨): ٣.

٤. الفتح (٤٨): ٤.

إذ ما الذي جعل المؤمنين في حاجة إلى السكينة؟ حتى قال الله: **﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيْماناً مَعَ إِيمانِهِمْ﴾** والله قادر على ذلك، لأنه بيده أسباب السماوات والأرض وكلها جنود مجندة له وهو العليم الحكيم.

لقد كان مردّ خوف المؤمنين إلى أنهم كانوا يحسبون حسابات النصر والهزيمة بموجب المعطيات الظاهرية؛ لقد كانوا على معرفة بقوة مشركي مكة وسبق لهم أن ذاقوا مرارة التواطؤ بينهم وبين منافقي المدينة؛ وإنّ اختصاص نزول السكينة على المؤمنين الوارد في هذه الآية دليل على وجود المنافقين في معسكر المسلمين. كل هذه العوامل كانت كافية لتولد الشعور لدى المؤمنين بقرب نهايتهم بسبب تلك الحرب، ولكن الله وعد بأن يتم الفتح بدون قتال ولا إراقة دماء وأنزل السكينة في قلوب المؤمنين **﴿لِيَزْدادُوا إِيْماناً مَعَ إِيمانِهِمْ وَلِلهِ جُنُودُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾**.

والآن يبرز السؤال التالي:

إذا كان المشركون في وضع أفضل من وضع المسلمين، بحيث كان المسلمون آيسين من تحقيق النصر عليهم إذا حصلت مواجهة معهم، فلماذا ذهب أبوسفيان إلى المدينة يطلب الصفح من رسول الله ﷺ عن قريش بعد أن قتلت رجالاً من خزاعة ـ حلفاء النبيّ ﷺ ـ ونكثت عهدها في صلح الحديبية؟ أليس هذا الموقف مؤشراً على ضعف المشركين وخشيتهم من المسلمين؟

رداً على هذا السؤال، لابد من القول إنه كانت هناك مؤامرة كبيرة تحاك ضد المسلمين. الحقيقة أنّ أباسفيان، بعمله ذاك، أراد أن يحقق أمرين: فمن جانب أراد أن يفعل ما فعله النبيّ ﷺ إزاء المشركين في معركة الأحزاب حين قام أولاً بعزل اليهود

عن المشركين، فحاول أبوسفيان أن يخرج حلفاء النبيّ ﷺ من دائرة المسلمين أولاً، لذا وجه ضربته إلى خزاعة. ومن جانب آخر حاول بمجيئه إلى المدينة أن يقنع النبيّ ﷺ برفع دعمه عن خزاعة، لكي يستطيع هو أن يستغل هذه الثغرة في إقناع القبائل العربية بأنّ النبيّ ﷺ عاجز عن مساندة حلفائه وحمايتهم كما يدّعي ويتعهد، لأنّ القوة المالية والعسكرية هي ما كان يجذب العرب إلى الإسلام. إنّ اعتناق المسلمين للإسلام في صدر الإسلام لم يكن دافعه إلا حب الجانب الأقوى، فعند ما كانت قريش سيدة الموقف في الجزيرة العربية كان العرب يميلون إليها، وحين انتشر الإسلام وآلت قريش إلى الضعف آمن العرب برسول الله ﷺ، وهذا هو سبب نزول سورة النصر بعد سيطرة المسلمين على مكة:

﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾.

وبعد نزول هذه السورة أدرك رسول الله ﷺ أنّ رسالته في طريقها إلى النهاية، لأنه كان يعلم أنّ الناس يهمهم النصر والفتح. والشاهد على ذلك «سنة الوفود»[1] التي حملت الاسم بعد فتح مكة، فأراد أبوسفيان أن يحطم هذه الصورة في أعين العرب قبل استفحال أمر النبيّ ﷺ؛ وهذا ما جعله يذهب إلى المدينة، وإلا فإنّ كفة المشركين عند الهجوم على مكة كانت هي الراجحة بحساب المعادلات الظاهرية.

---

١. من أهم الحوادث التي وقعت في السنة التاسعة للهجرة دخول القبائل العربية في دين الله أفواجاً بعد فتح مكة، وتحقق قوله تعالى: ﴿... يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْواجاً﴾. وهكذا توحدت الجزيرة العربية وتحولت المعارك الطاحنة بين قبائلها إلى صلح وسلام، وسميت السنة التاسعة للهجرة «سنة الوفود»، لكثرة ما توافد على رسول الله ﷺ من قبائل عربية جاءت لتدخل في الإسلام، ويمكن أن يراد بالوفود جمع الوفد.

ولعل أهم الآيات الكاشفة عن الكثير من الحقائق الآيات الخاصة ببيعة الرضوان، يقول الله تعالى:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾.[1]

«يا محمد! إنّ الله رضي عن المؤمنين حين بايعوك في الحديبية تحت تلك الشجرة وعلم بنواياهم الصادقة، فانزل عليهم السكينة ولا يلبث أن يجزيهم بفتح مكة».

وقال في الآية العاشرة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾.[2]

«لا شك في أنّ الذين بايعوك إنما بايعوا الله، وأنّ يدك التي جعلتها فوق أيديهم وهم يبايعونك إنما هي يد الله؛ لذا فمن ينكث بيعته معك فإنما ينكثها مع الله ولن يضر الله شيئاً، بل يضر نفسه، أما من ثبت على ما بايع الله عليه فسيجزيه جزاءاً حسناً».

الملاحظة الأولى: إنّ ورود كلمة «المؤمنين» في الآية ١٨ دليل على وجود المنافقين بينهم، ودليل أيضاً على أنهم بايعوا رسول الله ﷺ في من بايع.

الملاحظة الثانية: إنّ تقدم قوله تعالى: **﴿...فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ...﴾** في

---

١. الفتح (٤٨): ١٨.

٢. الفتح (٤٨): ١٠.

الآية العاشرة، على الآية ١٨، وعلى قوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَى﴾، يكشف عن أمرين: الأول: أنّ أكثر المبايعين كانوا من المنافقين، الثاني: أنّ هذه الأكثرية كانت عازمة على نكث البيعة عند عودة النبيّ ﷺ إلى المدينة.

الملاحظة الثالثة: عبارة ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ تعني أنّ المنافقين كان قصدهم من المشاركة في بيعة الرضوان التظاهر بوفائهم لرسول الله ﷺ لجعله يصر على دخول مكة لينفذوا مؤامرتهم، ولكن الله قال: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، كناية عن أنّ المنافقين لا يستطيعون أن يخدعوا الله.

اتضح إذن كيف أنّ المنافقين فرضوا صلح الحديبية على النبيّ ﷺ فرضاً؛ إنهم لم يكونوا راغبين في قرارة أنفسهم، في قتال المشركين، وكانوا يرغبون في أن ينتهي الأمر بين النبيّ ﷺ وبينهم إلى الصلح، ولكنهم حينما رأوا النبيّ ﷺ قاطع العزم على قتال المشركين وجدد أخذ البيعة من المسلمين على عدم الفرار من الميدان، تحولت خطتهم إلى التظاهر بمبايعته، وكانوا في الحقيقة يضمرون العزم على إعاقة وقوع الحرب، وكانوا واثقين من القضاء على المسلمين نهائياً حتى قال الله:

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً﴾.[١]

«ظننتم أنّ رسول الله والمؤمنين لن يعودوا إلى أهلهم أبداً وأنهم سيقتلون على أيدي الكفار عن آخرهم، وظننتم أنّ الله يترك رسوله، فخاب ظنكم، وأنتم قوم فاسدون».

---

١. الفتح (٤٨): ١٢.

فما معنى قوله: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً﴾ وأنّ سفرهم هذا لا عودة لهم منه وفيه هلاكهم؟ إنهم كانوا يعلمون أنّ أهل مكة كانوا يتمتعون بأمن دفاعي جيد في مدينتهم، وأن ليس بمقدور جيش المسلمين أن يواجهوهم مع وجود عدد كبير من المنافقين بين صفوفهم يعملون على عرقلتهم. ﴿وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أي: أنكم أسأتم الظن بالله بأعلى درجات سوء الظن، وتصورتم أنه سيخذل نبيه، ﴿وَزُيِّنَ ذلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، وسرّكم أن تكون الظروف كما كانت، ولكن الله حفظ نبيه كما هي سنته ونجّاه من أذى المنافقين.

ملاحظة:

إذن لابد من التدبر في عموم آيات القرآن لتتبع الظروف التي كانت سائدة في عصر الرسالة، وهذه هي الوسيلة الوحيدة التي توصل إلى حقيقة التاريخ. فأن قيام جماعة بمصادرة بيعة الرضوان لصالحهم أو تصوير صلح الحديبية بشكل مغلوط، يعود إلى النظر إلى الآيات القرآنية بعيون مغلقة؛ فلابد إذن من تحليل جميع الحوادث التي سبقت الفتح والحوادث التي تلته ودور المنافقين من خلال النظرة التحليلية لمجموع الآيات الناظرة للمنافقين والآيات المتعلقة بتلك الفترة على نحو ما.

* * *

والحمد لله ربّ العالمين

المصادر

١. **القرآن الكريم.**

٢. **ابن أبي حاتم**: عبدالرحمن بن محمد بن إدريس الرازي (٣٢٧هـ)، **تفسير ابن أبي حاتم**، تحقيق: أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية ـ صيدا.

٣. **ابن أبي الحديد**: عبدالحميد بن هبة الله (٦٥٦هـ)، **شرح نهج البلاغة**، تحقيق: محمد أبوالفضل ابراهيم، دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٤. **ابن أبي شيبه**: عبدالله بن محمد بن أبي شيبة العبسي الكوفي (٩١١هـ)، **المصنف**، تعليق: سعيد اللحام، دارالفكر ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٥. **ابن الأثير**: أبوالحسن علي بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني ابن الأثير (٦٣٠هـ)، **الكامل في التاريخ**، تحقيق: عمر عبدالسلام التدمري، دارالكتب العربي ـ بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٦. ـــــــــ، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، مقدمة: آية الله المرعشي النجفي، المكتبة الإسلامية ـ طهران.

٧. **ابن البطريق**: يحيى بن الحسن بن الحسين بن علي بن محمد بن البطريق (٦٠٠هـ)، **العمدة في عيون صحاح الأخبار**، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ـ قم، ١٤٠٧هـ.

٨. **ابن تيمية**: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني (٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ)، **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية**، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٩. **ابن حبّان**: أبوحاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي (٢٧٠ ـ ٣٥٤)، **الثقات**، دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد الدكن، الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

١٠. ـــــــــــ **كتاب المجروحين**، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار الوعى ـ حلب، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

١١. **ابن حجر**: أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ)، **المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية**، تحقيق: محمد بن سعود، دارالغيث/ دار العاصمة ـ السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

١٢. ـــــــــــ **فتح الباري**، تصحيح: محب الدين الخطيب، دارالمعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت، ١٣٧٩.

١٣. ـــــــــــ **تقريب التهذيب**، تحقيق: محمد عوامة، دار الرشيد ـ سورية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

١٤. ـــــــــــ **تهذيب التهذيب**، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ـ حيدر آباد الدكن ـ الهند، الطبعة الأولى، ١٣٢٦هـ.

١٥. ـــــــــــ **الاصابة في تمييز الصحابة**، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

١٦. **ابن حزم**: أبومحمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (٤٥٦ هـ)، **المحلى بالآثار**، دارالفكر ـ بيروت.

١٧. **ابن حنبل**: أبوعبدالله أحمد بن حنبل الشيباني (١٦٤ـ٢٤١ هـ/ ٧٨٠ ـ ٨٥٥ م)، **مسند الامام أحمد بن حنبل** (وبهامشه كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال)، دارصادر ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٩ هـ/ ١٩٦٩م.

١٨. **ابن سعد**: محمد بن سعد (٢٣٠هـ)، **الطبقات الكبرى**، تحقيق: إحسان عباس، دارصادر ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م.

١٩. **ابن عبدالوهاب**: عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، **مختصر سيرة الرسول**، مكتبة الرياض الحديثة ـ الرياض.

٢٠. **ابن عبدالبر**: أبوعمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر بن عاصم النَمَرِيّ (٤٦٣هـ)، **الدرر في اختصار المغازي والسير**، تحقيق: شوقي الضيف، دارالمعارف ـ القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

٢١. ـــــــــــ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

٢٢. **ابن القيم**: محمد بن أبي بكر ابن القيّم الجوزية (٦٩١ ـ ٧٥١ هـ)، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، موسسة الرسالة ـ بيروت/ مكتبة المنار الإسلامية ـ الكويت، الطبعة ٢٧، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٢٣. **ابن كثير**: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (٧٧٤ هـ)، **السيرة النبوية**، تحقيق: مصطفى عبدالواحد، دار المعرفة ـ بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٦م.

٢٤. ـــــــــ **تفسير ابن كثير**، دارالفكر ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م.

٢٥. ـــــــــ **البداية والنهاية**، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٢٦. **ابن مزاحم**: نصر بن مزاحم المنقري (٢١٢هـ)، **وقعة صفين**، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، المؤسسة العربية الحديثة ـ القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٢هـ.

٢٧. **ابن منظور**: أبوالفضل محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (٧١١ هـ)، **لسان العرب**، دارصادر ـ بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

٢٨. **ابن العربي الاشبيلي**: أبوبكر محمد بن عبدالله بن محمد المَعافِري الاشبيلي (٤٦٨ ـ ٥٤٣هـ)، **عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي**، دارالعلم ـ دمشق.

٢٩. **ابن‌عساكر**: أبوالقاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله الشافعي (٤٩٩ ـ ٥٧١هـ)، **تاريخ مدينة دمشق**، تحقيق: علي شيري، دارالفكر ـ بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٣٠. **ابن هشام**: أبومحمد عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري (٢١٨ هـ)، **السيرة النبوية**، تحقيق: مصطفى السّقا، إبراهيم الابياري وعبدالحفيظ شلبي، دار احياء التراث العربي ـ بيروت.

٣١. **أبوحاتم الرازي**: أبومحمد عبدالرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي (٣٢٧ هـ)، **الجرح والتعديل**، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٢٧١هـ/ ١٩٥٢م.

٣٢. **أبوداود**: سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٧٥ هـ)، **سنن أبي داود**، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية ـ بيروت.

٣٣. **أبونعيم**: أحمد بن عبدالله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الاصبهاني، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، السعادة ـ مصر، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٣٤. **الأميني**: الشيخ عبدالحسين أحمد الأميني النجفي، **الغدير**، دارالكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة الرابعة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

٣٥. **البخاري**: أبوعبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري الجعفي (٢٥٦هـ)، **صحيح البخاري**، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٦. **البلاذري**: أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري (٢٧٩هـ)، **أنساب الأشراف**، تحقيق: محمد حميد الله، دارالمعارف ـ مصر، ١٩٥٩م.

٣٧. ـــــــــ، **فتوح البلدان**، دار ومكتبة الهلال ـ بيروت، ١٩٨٨م.

٣٨. **البيهقي**: أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (٣٨٤ ـ ٤٥٨هـ/ ٩٩٤ ـ ١٠٦٦م)، **السنن الكبرى**، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، دارالكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٣٩. ـــــــــ، **الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد**، تحقيق: أحمد عصام الكاتب، دار الآفاق الجديدة ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.

٤٠. ـــــــــ، **دلائل النبوة**، دارالكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ.

٤١. **الترمذي**: أبوعيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (٢٠٩ ـ ٢٧٩ هـ)، **سنن الترمذي**، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت، ١٩٩٨م.

٤٢. **التفتازاني**: مسعود بن عمر بن عبدالله الهروي الخراساني التفتازاني (٧٩١ هـ)، **شرح المقاصد في علم الكلام**، دار المعارف النعمانية ـ باكستان، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٤٣. **الجوهري**: أحمد بن عبدالعزيز (٣٢٣هـ)، **السقيفة وفدك**، تحقيق: محمد هادي الأميني، شركة الكتبي ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

٤٤. **الحاكم النيسابوري**: أبوعبدالله محمد بن عبدالله بن حمدويه بن نعيم الضبي النيسابوري (٤٠٥هـ)، **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، دارالكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

٤٥. **الحموي**: أبوعبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي (٦٢٦هـ)، **معجم البلدان**، دار صادر ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م.

٤٦. **الخطيب البغدادي**: أبوبكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، **موضح أوهام الجمع والتفريق**، تحقيق: عبدالمعطي أمين قلعجي، دار المعرفة ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٤٧. **الدياربكري**، حسين بن محمد الدياربكري، **تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس**، دارصادر ـ بيروت.

٤٨. **الذهبي**: أبوعبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي الدمشقي (٧٤٨ هـ)، **سير أعلام النبلاء**، إشراف وتخريج: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٤٩. ــــــــــــ، **المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال**، تحقيق: محب الدين الخطيب.

٥٠. ــــــــــــ، **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، تحقيق: علي محمد البجاوي، دارالمعرفة ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م.

٥١. ــــــــــــ، **الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة**، تحقيق: محمد عوامة، دار القبلة للثقافة الإسلامية ـ جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

٥٢. **الزرقاني**: محمد بن عبدالباقي بن يوسف الزرقاني المالكي، **شرح المواهب اللدنية**، دارالكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٥٣. **الزمخشري**: أبوالقاسم جار الله محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري الخوارزمي (٤٦٧ ـ ٥٣٨هـ)، **الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل**، دارالكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.

٥٤. **زيني دحلان**: سيد أحمد بن زيني دحلان، **السيرة النبوية والآثار المحمّدية**، دارالمعرفة ـ بيروت، الطبعة الثانية.

٥٥. **السمرقندي**: نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، **تفسير السمرقندي** (بحرالعلوم).

٥٦. **السمعاني**: أبوسعد عبدالكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني (٥٦٢هـ)، **الأنساب**، تعليق: عبدالله عمر البارودي، دارالجنان ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٥٧. ــــــــــــ، **تفسير السمعاني**، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دارالوطن ـ الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٥٨. **السندي**: محمد بن هاشم بن عبدالغفور بن عبدالرحمن السندي، **بذل القوة في حوادث سني النبوة**، لجنة احياء الأدب السندي ـ باكستان، الطبعة الأولى، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

٥٩. **السنوسي**: أبوعبدالله محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي، **مكمل اكمال اكمال**

المعلم في شرح صحيح مسلم، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
٦٠. السيوطي: جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١ هـ)، **الدر المنثور**، دارالفكر ـ بيروت.
٦١. ـــــــــــ **الاتقان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مصر، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.
٦٢. ـــــــــــ **تاريخ الخلفاء**، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، دارالنهضة ـ القاهرة، ١٣٩٥هـ.
٦٣. **الشريف الرضي**: أبوالحسن محمد بن الحسين الموسوى الشريف الرضي (٤٠٦ هـ)، **نهج البلاغة**، شرح: الشيخ محمد عبده، دارالذخائر ـ قم، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٣٧٠ش.
٦٤. **الشهرستانى**: ابوالفتح محمد بن عبدالكريم (٤٧٩ـ٥٤٨هـ)، **الملل والنحل**، تحقيق: محمد سيّد كيلاني، دار المعرفة ـ بيروت.
٦٥. **الصفدي**: خليل بن أيبك بن عبدالله الصفدي (٧٦٤ هـ)، **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، دارإحياء التراث ـ بيروت، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
٦٦. **الصنعاني**: أبوبكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني (٢١١ هـ)، **المصنف**، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
٦٧. **الطباطبائي**: السيد محمد حسين الطباطبائي (١٤١٢هـ)، **الميزان في تفسير القرآن**، قم: منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية.
٦٨. **الطبراني**: أبوالقاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٣٦٠ هـ)، **المعجم الأوسط**، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبدالمحسن بن إبراهيم الحسيني، دارالحرمين ـ القاهرة.
٦٩. ـــــــــــ **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة، الطبعة الثانية.
٧٠. ـــــــــــ **مجمع البيان في تفسير القرآن**، موسسة الأعلمي ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
٧١. **الطبري**: أبوجعفر محمّد بن جرير بن يزيد الشافعي الطبري (٢٢٤ ـ ٣١٠ هـ/ ٨٣٩ ـ ٩٢٣م)، **تاريخ الطبري (تاريخ الأُمم والملوك)**، مراجعه وتصحيح: نخبة من العلماء الاجلاء، موسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٣هـ.
٧٢. ـــــــــــ، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)**، مطبعة مصطفى البابي

الحلبي وأولادة ـ مصر، الطبعة الثانية، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.

٧٣. **الطحاوي**: أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي (٢٣٩ ـ ٣٢١هـ)، **مشكل الآثار**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، موسسة الرسالة ـ بيروت، ١٤١٥هـ.

٧٤. **رشيد رضا**: محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس (١٢٦٤ ـ ١٣٢٣ هـ)، **تفسير القرآن الحكيم** (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مصر، ١٩٩٠م.

٧٥. **العجلي**: أبوالحسن أحمد بن عبدالله بن صالح العجلي الكوفي (٢٦١ هـ)، **معرفة الثقات**، تحقيق: عبدالعليم عبدالعظيم البستوي، مكتبة الدار ـ المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م.

٧٦. **العراقي**: أبوالفضل زين الدين عبدالرحيم بن الحسين بن عبدالرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي، **طرح التثريب في شرح التقريب**، داراحياء التراث العربي/ موسسة التاريخ العربي/ دارالفكر العربي ـ بيروت.

٧٧. **العصامي**: عبدالملك بن حسين بن عبدالملك العصامي الملكي، **سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والقوالي**، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود وعلي محمد معوض، دارالكتب العلميه ـ بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٧٨. **العقيلي**: أبوجعفر محمد بن عمرو بن موسى بن حماد العقيلي المكي (٣٢٢ هـ)، **الضعفاء الكبير**، تحقيق: د. عبدالمعطي أمين قلعجي، دارالمكتبة العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٧٩. **العيني**: أبومحمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد العيني الحنفي (٨٥٥ هـ)، **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، محمد أمين دمج ـ بيروت.

٨٠. **القرطبي**: محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، دارالكتاب العربي للطباعه والنشر ـ القاهرة، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

٨١. **القسطلاني**: أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبدالملك القسطلاني (٨٥١ ـ ٩٢٣هـ)، **إرشاد الساري شرح صحيح البخاري**، المطبعة الكبرى الأميرية ـ مصر، افست: مكتب المثنى ـ بغداد، الطبعة السادسة، ١٣٠٤هـ.

٨٢. ـــــــــــ **المواهب اللدنيّة بالمنح المحمدية**، المكتب التوفيقية ـ القاهرة.

٨٣. **القفاري**: ناصر بن عبدالله القفاري، **مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة**، دار الطيبة للنشر والتوزيع ـ مكه، الطبعة الرابعة، ١٤١٦هـ.

٨٤. **الكليني**: ثقة الإسلام أبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي

(٣٢٨/ ٣٢٩ هـ)، **الكافي**، تعليق وتصحيح: علي أكبر الغفاري، دارالكتب الاسلامية ـ طهران، الطبعة الرابعة، ١٣٦٥ش.

٨٥. **كحالة**: عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبدالغني كحالة، **معجم المؤلفين**، دارإحياء التراث العربي ـ بيروت.

٨٦. **الكوراني**: علي الكوراني العاملي، **جواهر التاريخ**، دارالهدى، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.

٨٧. **مالك بن أنس**: مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (١٧٩هـ)، **الموطأ**، تصحيح وتعليق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

٨٨. **المباركفوري**: أبوالعلا محمد عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفوري (١٢٨٣ ـ ١٣٥٣هـ)، **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، تصحيح: عبدالرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية ـ المدينة المنورة، ١٩٦٣م.

٨٩. **المتّقي الهندي**: علاء الدين علي بن حسام الدين المتّقي الهندي البرهان فوري (٩٧٥ هـ)، **كنزالعمّال في سنن الأقوال والأفعال**، تحقيق: بكري حيّاني وصفوة السقا، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٩٠. **المجلسي**: محمد باقر بن محمد تقي بن مقصود علي المجلسي (١٠٣٧ ـ ١١١٠هـ)، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار**، موسسة الوفاء ـ بيروت، ١٤٠٤هـ.

٩١. **المزي**: أبوالحجاج يوسف بن عبدالرحمن المزي (٧٤٢ هـ)، **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، تحقيق وتعليق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

٩٢. **المسعودي**: أبوالحسن علي بن الحسين المسعودي (٣٤٥ هـ)، **التنبيه والاشراف**، دار صعب ـ بيروت.

٩٣. **مسلم**: أبوالحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري (٢٦١ هـ)، **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار احياء التراث العربي ـ بيروت.

٩٤. **ملا علي القاري**: علي بن سلطان محمد أبوالحسن الملا الهروي القاري (القرن الثامن)، **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، دارالكتب العلميه ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٩٥. **النسائي**: أبوعبدالرحمن أحمد بن شعيب بن علي (٣٠٣هـ)، **السنن الكبرى**، تحقيق: حسن عبدالمنعم شلبي، موسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

٩٦. **النووي**: أبوزكريا يحيي بن شرف النووي (٦٧٦هـ)، **شرح صحيح مسلم**، داراحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

٩٧. **الواقدي**: محمد بن عمر بن واقد السهمي الواقدي (١٣٠ ـ ٢٠٧ هـ)، **المغازي**، تحقيق: مارسدن جونس، دار الأعلمي ـ بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٩٨. **الوشتاني**: محمد بن خلفة بن عمر الأبي الوشتاني المالكي، **إكمال اكمال المعلم في شرح صحيح مسلم**، دار الفكر ـ بيروت.

٩٩. **الهيثمي**: أبوالحسن علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (٨٠٧ هـ)، **مجمع الزوائد**، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي ـ القاهرة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

١٠٠. **اليعقوبي**: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي (٢٨٤ هـ)، **تاريخ اليعقوبي**، دارصادر ـ بيروت، ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م.

الفهرس